

الكتاب العربي السعودي



عزيز ضياء

ماما زبيدة

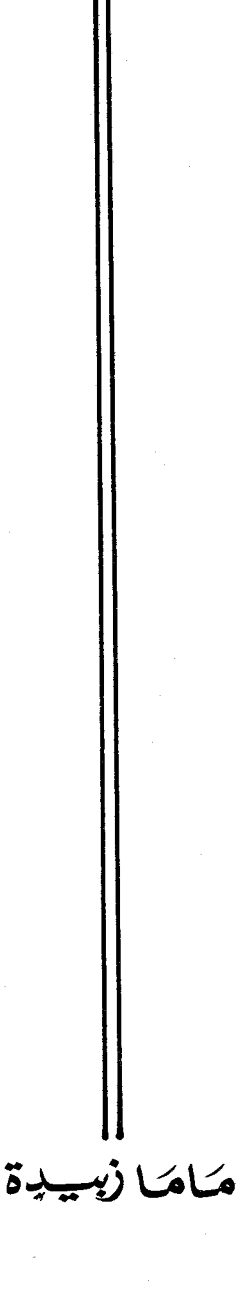
الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية

الغلاف للفنان : ضياء عزيز ضياء

بسم الله الرحمن الرحيم



ص.ب ٥٤٥٥
جدة ٢١٤٢٢
هاتف ٦٤٤٤٤٤٤
المملكة العربية السعودية



مَامَا زبيدة

مقدمة

لكتابة القصة القصيرة تقنيات تكاد تكون مقررة، والمكتبة في اللغة العربية لا تخلو من كتب عالجت بحوثا عن كتابة القصة القصيرة. وفي اللغة الانجليزية، وغيرها من اللغات كثير من الكتب التي تناولت القصة القصيرة باعتبارها فنا من فنون الأدب، قائما بذاته، وله ما يمكن أن يسمّى قواعد وأصولا يقف عندها النقاد، وعلى ضوئها يحكمون للكاتب، أو عليه. وقد زاد من تعقيد هذه القواعد والأصول ذلك الاتجاه المحموم إلى التحديث الذي أخذ يغمر مختلف الفنون، ومنها القصة القصيرة بطبيعة الحال. وكما تأثر الشعر العربي، ومعه الفنون التشكيلية بهذا الاتجاه، تأثرت القصة القصيرة ايضا، فكان من حصاد هذا الاتجاه أن حظيت المكتبة العربية بالكثير من القصص القصيرة التي حاول كتابها ان يركبوا موجة التحديث والحداثة فكان منهم من استطاع أن يقدّم أعمالا أثبتت قدرتهم على مسايرة اندفاع الموجة فكانت قصصهم نماذج طيبة لا تقل عن مثيلاتها في أدب القصة القصيرة الحديث، ولكن كان منهم أيضا من أغرقتهم الموجة في صخبها وعنفوانها، فكانت قصصهم نوعا من التهويم الضائع في دوّامة عابثة يتعذر أن تجد فيها مفهوما من أي نوع. وهذا هو الطوفان الذي تزدحم به الصفحات الأدبية في صحفنا المحلية، بل وفي كثير من الصحف والمجلات العربية طوال فترة تزيد عن عشر سنوات. ومن طبيعة الطوفان ان يجرف كل ما يعترض طريق اندفاعه، فكان من نتيجة ذلك أن ضاع ربما الكثير الذي يستحق أن يقرأ، بل وأن يلتفت إليه النقاد.

ولكن القصة القصيرة، تظل رغم كل ما نما في حقل دراستها من آراء، وحاصر انطلاقها من قواعد وتقنيات، بحيث أصبحت في كثير من كليات الآداب في العالم مادة يحاضر عنها متخصصون بتاريخها، وتطورها، وعلاقة مواضيعها بالفرد والمجتمع، بل وحتى بالتطورات السياسية والاتجاهات العقائدية، تظل تلك (الحدوتة) أو (الحكاية) التي عرفها الانسان منذ أقدم العصور.. وهي تختلف أو تتميّز عن (الرواية) بأنها تحكي حدثا أو جملة أحداث، لشخص أو أكثر بحيث تنتهي من قراءتها أو الاستماع إلى الذي يحكيها، في جلسة واحدة أو في مناسبة عابرة، ومن هنا فهي أقدم أنواع القصص وأكثرها تواؤما مع طبيعة الإنسان، وهي تعيش في حياة جميع شعوب العالم، بل لعلّها أكثر انتشارا في حياة الشعوب البدائية، إذ للخرافة أو الأسطورة حياتها الخاصة المتفاعلة مع حياتهم اليومية، وما يزال التراث، في كثير من شعوب العالم حافلا بحشد من الحكايات التي ما تزال ترويها الجدّة لأحفادها، أو الأم لأبنائها قبل أن يذهبوا إلى فراشهم في المساء. بل ما تزال دور النشر الكبرى في معظم الدول المتحضّرة، تعنى بتزويد المكتبات في رأس السنة أو عيد الميلاد بالمئات من كتب حكايات الأطفال، في طباعة رائعة وعلى ورق صقيل ممتاز وبالألوان المتقنة للصور التي يرسمها كبار الفنّانين، لأبطال هذه الحكايات. وليست القصة القصيرة، في نهاية الأمر إلا هذه الحكاية التي تطورت، فخرجت من حقل الخرافة والأسطورة، إلى دنيا الناس، إلى حياة الإنسان في واقعه اليومي، لتقول لنا شيئا عنه.

وهذه المجموعة من القصص القصيرة، التي لم أربأ في أن تضمها دفّتا كتاب تنشره شركة تهامة، حين اضعها بين ايدي القراء اليوم، أود ان اعترف بأني كتبتها دون أن اعنى بالتقنية، والأصول والقواعد، التي لا اخفي أني قرأت عنها الكثير، وبين ما قرأته بعض المراجع الأكاديمية، بل بعض الكتب التي يدرسها طلاب اكثر من كليتين من كليات الآداب في الجامعات الأمريكية. وليس ذلك عجزا عن التزام هذه التقنية والقواعد والأصول، وبالطبع ليس استكبارا عليها أو استهتارا بها وإنما لسبب بسيط، وهو أن كتابة القصة القصيرة، عمل أو عطاء فني يصعب في رأيي أن يخضع للتقنية الأكاديمية، أو للقواعد والأصول التي تمخّضت عنها دراسات النقاد من جهة، وتتبّع واستيعاب العلماء المتخصصين من جهة أخرى. ولعلي لا اسرف على

نفسي أو على القارىء إذا ذهبت إلى أن أي عمل فني، إذا كان لا يستغني عن القواعد والأصول والتقنيات المتوفرة لدى المعاهد المتخصصة أو في كليات الآداب والفنون، فإنه لايستغني في نفس الوقت، عن ابداع الموهبة والمدخور من الاستعداد الفطري والقدرة على استثمار التجارب مع الانطلاق المتوثّب وراء الآفاق التي يصل إليها الخيال المجنّح في سبحه الجريء ومعاناته الصادقة في مراحل الإبداع. وما اظن اني محتاج إلى التذكير بحقيقة كثيرا ما نغفل عنها، وهي أن اعظم الأعمال الفنية في تاريخ الفنون، تمخضت عنها عبقريات كانت أكبر من القواعد والأصول والتقنية، وكانت أعمالها مدارس قائمة بذاتها، استفادت أو اعتمدت عليها مدارس ومعاهد الفن.

وهنا قد ينبغي أن أسرع إلى استبعاد ما قد يدور في أذهان البعض عني حين اعترف بأني كتبت هذه القصص دون أن اعنى بالتقنية والقواعد والأصول، متوهمين اني أزعم لهذه القصص أو أدعي انها أعمال فنية من هذا النوع الذي تمخضت عنه العبقريات الإنسانية الكبيرة.. اني لا أعني شيئا من هذا إطلاقا وإنما الذي عنيته، هو انه لا يوجد أبدا ما يمنع أن تكتب القصة القصيرة أو الرواية، أو المسرحية، أو أن يبدع الفنان التشكيلي، أو الموسيقار، أو النحات عملا فنيا دون أن يتقيد بالقواعد والتقنية والأصول.. والشواهد على ذلك قائمة في روائع القصص القصيرة، التي كتبها عباقرتها في امريكا: (ايدجر آلان بو) و(ناثانيل هوثورن) وفي فرنسا: (أونوريه دي بلزاك) وفي روسيا: (نيكولاى جوجول) و(ايفان تورجينيف) وذلك في أواسط القرن الثامن عشر، ثم في القرن التاسع عشر (جي دي موباسان) في فرنسا، و(انطون تشيكوف) في روسيا و(هنري جيمس) في امريكا و(جوزيف كونراد) في انجلترا، ومع مطلع القرن العشرين قرأ العالم لمجموعة كبيرة من عباقرة كتاب القصة القصيرة، منهم (جيمس جويس) في ايرلندة، إلى جانب (ايرنست هيمنجويه، وسكوت فيتزجيرالد، ووليام فوكنر) في امريكا.

ومع أن مجلات وصحف العالم، تكاد لا تخلو من قصة قصيرة، وعلى الأخص في الملاحق الأدبية، مما يدل على أنها قد اصبحت المادة التي لا يستغني عنها القراء، وكتاب هذه القصص يفوق أي محاولة للحصر، فإن الأعلام من كتّابها الذين تعكف

الجامعات على دراسة قصصهم، وربما طوال الفترة من أواخر القرن الثامن عشر وحتى اليوم، يكاد لايزيد عددهم عن الستين أو سبعين كاتبا، و يتاح للقارىء المتابع أن يجد (المختار) من أعمالهم في أكثر الكتب المقررة على الطلاب في الجامعات

ثم،.. اتطلّع إلى أن يعلم القارىء، ومعه النقاد أيضا، اني لم أحاول في هذه القصص ركوب موجة التحديث والحداثة، ولذلك فهي خالية ــ إلى حد الفقر المدقع المحزن ــ من لمسات أو شطحات التهويم والضياع، والرمز وفنون الإيقاع.. وحسبي أن يجد فيها القارىء (الحدوتة) أو (الحكاية) التي يفرغ من قراءتها في دقائق، قبل أن يسلم أجفانه لتعسيلة الظهيرة أو للنوم بعد سهرة حافلة.

ومما يفاجىء القارىء في هذه المجموعة، وجود تمثيلية إذاعية بعنوان (مال المحروم للنزهي) و باللهجة العامية،.. فالواقع اني لم أر بأسا في أن تحشر مع هذه القصص لأني كتبتها قصة قصيرة أصلا، ثم رأيت انها تصلح أن تكتب تمثيلية إذاعية ــ ربما للأطفال ــ وقد اذيعت، وكان من حظّها الطيّب، أن مثلت دور الجدة العجوز فيها، الآنسة «ليلى على شيخ» فكانت فيها كما في غيرها مما مثلته هذه الفنّانة.. كانت قمة في قدرتها على تقمّص شخصية هذه العجوز بكل انفعالاتها في تصرفاتها مع حفيدتها، وليس فقط في أداء اللهجة صوتا ومخارج حروف، فذلك ما لا يعجز عن مثله الكثيرون والكثيرات، وإنما في تعمّق نفسية العجوز وإخراج المخزون في هذا العمق من انفعالات. وإني لأنتهز فرصة نشر التمثيلية مع هذه المجموعة من القصص لأقول إن الآنسة ليلى على شيخ كفاءة فنّية يصعب أن تتكرر بين الكفاءات الفنّية التي ظهرت وتظهر في التمثيليات الإذاعية. وقد لا أتجاوز الواقع إذا زعمت أن ليلى كان يمكن أن تكون إحدى قمم التمثيل في المسرح والتليفزيون العربي، لو كانت الفرصة تتاح لها ــ ولمثيلاتها، أن يظهرن نبوغهن، دون أن يحول دون ذلك واقع نؤمن بضرورة مسايرته واحترامه، ولكننا لا نكره في نفس الوقت أن توجد ثغرة أو سبيل للتخفيف من صرامة تشدد هذا الواقع دون أن نتجاوز حدود ما حرّم الله.

و بعد.. فإن الساحة الأدبية عندنا قد أخذت تجود فتتفتح فيها مجموعة طيبة من كتّاب القصة القصيرة، ولعل منهم من يكاد يكون متفرغا لكتابتها دون غيرها من الأعمال الأدبية، وأهمها المتميز الشعر والمقال.. وهذا يبشر بأن دوحة الأدب في

المملكة قد اخذت تمتد لها ظلال إلى أبعد مما اعتادت أن تظلّل طوال فترة مسيرة الأدب التي توشك أن تتجاوز نصف القرن. وعسى أن لا أغضب اصدقائي الشعراء، إذا قلت إن القصة ــ قصيرة أو طويلة ــ في أدب أي أمة منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم هي مجال الإبداع الأقدر على أن يرينا واقع الأمة، وما يتفاعل فيه من متغيّرات وردود فعل لرواسب هذه المتغيرات، في النفس الإنسانية، وفي علاقتها بالمجتمع سلبا وإيجابا، واخذا وعطاء، وانكسارا ونجاحا، ومآسي وأفراحاً. وهي التي تتفتح لها أسماع الجماهير فتستجيب لها المشاعر والأحاسيس. وحياتنا الأدبية طوال نصف القرن، ظلت مزدهرة بالشعر والشعراء الكبار منهم فيما مضى، والشباب في هذه الأيام، فإذا قدر للقصة أن تجد فرسانها فهي مؤهلة لأن تلعب دورا أكثر حيوية، وأعمق تأثيرا في حياة الجماهير من قصيدة الشعر، أو المقال، ومن المفروغ منه أن رسالة الأدب في حياة الشعوب، هي التعبير الصادق عن واقعها وما في هذا الواقع من نبض التطلع إلى الأفضل والأجمل، وقليلا ما استطاعت قصيدة الشعر أن تؤدي هذه الرسالة، رغم كل ما قد يتوفر لها من عناصر الجمال موضوعا و بلاغة أداء وصدق انفعال وعاطفة.

على أية حال، لابد أن أقول إن مشوار القصة في المملكة سيظل طويلا، والطريق إلى الإبداع الذي يضعها على مدارج القمة، لابد أن يكون وعرا، ولكن هكذا كان مشوارها في مسيرة الفكر العالمي، وهكذا كان الطريق إلى ابداعها في حياة الأعلام الكبار من الكتاب.

يكفي أننا قد بدأنا نشهد النوامي الصغيرة في غصنها الرطب.. فلننتظر الأزهار والثمار ولا بأس أبداً بأن يطول الانتظار.

المؤلف

ماما زبيدة



ماما زبيدة

طوال حياتها، وقد بلغت من العمر خمسين عاما، اذا صحّ حسابها، عرفت ماما زبيدة انواعا من الأمراض والعلل.. بل عرفت كيف يتم علاجها، منذ كان العطّار هو الملاذ لمختلف الأعشاب والعقاقير البلدية، إلى أن ازدحمت البلد بمخازن الأدوية والصيدليّات.. ومنذ كان الكيّ بالنار في الكعب أو في الصدر والظهر علاج كل مرض يستعصي على الأعشاب، إلى أن تعددت المستشفيات، وتكاثر فيها الأطباء، الذين يجرون العمليات الجراحية لتلك العلل حين لايفيدها العلاج بأنواعه من الأقراص والأشربة إلى مالا يحصى من أنواع الحبوب.

ولم تكن معرفة (ماما زبيدة) بهذه الأمراض لأنها اصيبت بها، وانّما لأن مسيرة الحياة التي قدّر الله لها أن تمشيها، قذفت بها إلى بيوت عدد من الأسر الكبيرة، مربيّة لأطفالهم، منذ يكون الطفل منهم في الشهر الثالث أو الخامس إلى أن يبلغ السنة الخامسة من عمره.. وقد كان هؤلاء الأطفال يتعرّضون لكثير من هذه الأمراض، وبتعددهم في حياتها وتعدد ما يطرأ عليهم عرفت (ماما زبيدة) الكثير مما يصيب الصغار، كما عرفت بالطبع الكثير مما يصاب به الكبار.

وفي هذه المرحلة من حياتها كان قد انتهى بها المطاف إلى أن تساكن سيدة تملك منزلا صغيرا في أحد الأحياء الشعبية ورثته عن زوج مات في الحج بضربة الشمس بعد زواجه منها بأقل من عام، ولم تكن في سن تؤهلها للزواج للمرة الثالثة، فاكتفت بما يدرّه عليها أجر غرفتين من المنزل الصغير يسد حاجتها ويكفيها شر العوز والفاقة إلى جانب بعض الأعمال الصغيرة التي كان يُعهد بها إلى النساء، ومنها (تكتيل) الأشمخة والغتر، بما لايقل عن نصف ريال للغترة أو الشماخ.

فلمّا استيقظت (ماما زبيدة) ذات ليلة على آلام في احشائها ظلّت تتزايد بين كل لحظة وأخرى، وهرعت إليها مالكة المنزل بـ (سفّة) الزنجبيل والكمّون، رفضت أن تتناولها واصرّت على أن تنقل إلى المستشفى.. ولم يتردد جّارها الذي يملك سيارة في أن ينقلها بعد منتصف الليل إلى حيث ارادت، كما اصرّت مالكة المنزل على أن تصاحبها لتطمئن عليها.

ولم يطل انتظار الطبيب المناوب، الذي ما كاد يفحص الحالة حتى اسرع يتصّل بالجرّاح، وحين عاد قال (لماما زبيدة) انها تحتاج إلى عملية عاجلة.. ورغم انفعالات الآلام الحادّة التي بدا لها كأنّها تمزّق امعاءها، قالت: (التهاب الزائدة الدودية.. أليس كذلك يادكتور ؟) وابتسم الطبيب وهزّ رأسه موافقا وقال..(ما شاء الله.. عرفت الذين يصابون بهذه الحالة يعرفونها و يسرعون إلى المستشفى مثلك.. هل اشتغلت بالتمريض ؟) واستغرقها الألم فلم تجب بشيء.. وحين كانوا يدخلونها غرفة العمليات لمحت الطبيب الجرّاح.. وابتسمت رغم ما تعانيه من آلام..

وفي الساعة التاسعة صباحا، كانت قد بدأت تستيقظ من تأثير المخدّر.. وحين فتحت عينيها تتأمّل ما حولها، رأت مَنْ في العنبر من المريضات، كما رأت الطبيب الجرّاح الذي اجرى لها العملية، يقف عند كل سرير، يتأمّل هذه الورقة التي يسمونها (الطبلة) ثم يتناول يد المريضة، وقد يطلب منها أن تخرج لسانها، ثم يطمئنها بكلمة طيبة، لينتقل إلى أخرى.

وقالت ماما زبيدة وهي تتفرّس ملامحه: (انّه هو.. هو دون شك.. واسمه.. اسمه..) ولكن سرعان ما لفّها تأثير المخدر، فغلبها النعاس، واستغرقت في نوم عميق.

وأيقظتها حركة مفاجئة بعد الساعة الواحدة ظهرا.. حيث رأت الممرضات يدخلن بوجبة الطعام فرفعت يدها تشير إلى واحدة منهن تطلب ماء اذ كانت تشعر بظمأ بدا لها انها لم تشعر بمثله قط.. وابتسمت لها الممرضة السمراء وقالت: (ليس الآن).. ثم جاءتها بعد لحظات بقطعة من القطن مبلّلة بالماء مسحت بها

شفتيها، تخفف من شدة الظمأ.. ثم قالت: (لاماء إلى المغرب).. ثم انصرفت.. ولم يسع ماما زبيدة إلا أن تذعن، فهي تعرف حتى هذا.. تعرف أن لاسبيل إلى الماء بعد العملية الجراحية إلا بعد مضي وقت لابد لها من الصبر إلى أن ينتهي.. وهو لاينتهي الآّ بأمر الطبيب.

وبعد الغروب استطاعت أن تتحدث إلى المريضة في السرير المجاور، وان تسمع منها قصة مرضها وما ظلّت تقاسيه طوال عام، وفي النهاية لم يكن بد من العملية الجراحية، والطبيب الجرّاح يبشرها بأنها قد نجحت.. ثم قالت : (هذا الدكتور يده مبروكة.. يقولون انه منذ بدأ العمل اجرى أكثر من مئة عملية.. كلّها نجحت.. وكل الذين عالجهم يتمتعون بأحسن حال..).

وانتهت ثرثرة المريضات، بعد الساعات الأولى من الليل، وساد العنبر صمت ظل يعبّر عن وحشته وتجهمّه بالأنّة تصدر من السرير البعيد، أو الأنفاس الثقيلة تتلاحق من السرير المقابل، وبذلك الضوء الخافت الشاحب تمتد له ظلال الأسرّة والمناضد البيضاء، وهي تهتز أو تتأرجح، كأنها تمارس حركة رياضية تتابع دوران المروحة الكهربائية في السقف ورفرفة أوراق (الطبلات) المعلّقة على اطار كل سرير.

ولكن (ماما زبيدة) كانت تسمع من اعماقها أحاديث السنين الغابرة.. أحاديث ماضيها، منذ سمعت زغاريد الفرح بزواجها الأول والوحيد والأخير، إلى أن أفاقت من تأثير المخدّر واستراحت من حريق الظمأ، ثم ـــ وهو الأهم ـــ من ذلك التمزّق المتوحش الذي كان السبب في اجراء هذه العملية على يد الدكتور، الذي اجمعت المريضات حولها على أن يده (مبروكة) وأن العمليات المئة التي اجراها منذ عاد من الخارج قد نجحت.

كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، ولم يكن قد بقي لها من اسرتها سوى امها.. وعلى شدة اصرارها على رفض الزواج لتبقى إلى جانبها، فقد اصرّت الأم ـــ يرحمها الله ـــ من جانبها على أن تزوّجها من الشاب الذي تقدّم لخطبتها بعد أن ظلّت ترفض من تقدّم إليها قبله بفكرة أن الزوج لابد أن يضيق بعبء العناية بالأم

حتى ولو لم تسكن معها.. ثم مع من تسكن هذه الأم.. وكيف تقضي أيامها ولياليها وحيدة لا يؤانسها أو يخفف من الوحشة حولها إلاّ القطّ العجوز، والراديو؟

والذي تزوّجته كان شابا في مقتبل العمر، ورث عن أبيه متجرا صغيرا لبيع الخردوات، وعلى الأخص منها لوازم الخياطة من ابر ومقصّات وأنواع الخيط، والدانتلا والروائح، وعطور الهند.. وكان يعول أمه واخواته الثلاث اللائي تزوّجن قبل زواجه.. وقد اتسعت تجارته وانتعشت بعد الحرب، وبعد أن كان يشتري بضاعته من المستوردين الكبار في جدة، اصبح هو مستوردا تخصّص في لوازم السيارات.

وقضت زبيدة معه أربع سنوات، توفّيت خلالها أمّه وأمها في سنة واحدة.. ولم يكد ينتهي العام الرابع، حتى صارحها بأنّه سيتزوّج أخرى، تنجب له اطفالا، أراد الله ألاّ تنجبهم منه. ورغم مرور ما يزيد عن ربع قرن، فانها حتى هذه اللحظة لا تنسى أحزانها، واضطرارها لقبول الأمر الواقع، فاذا به يخطو خطوة أخرى.. لم تكن مفاجئة، اذ كانت تتوقعّها في كل يوم بعد زواجه من الفتاة التي قالوا انها من اللائي تلقين دراستهن في بلد عربي مجاور.. وتحمل شهادة (البكالوريا) وتتقن اللغة الفرنسية، وترتدي الأزياء الحديثة.. لقد سافر للاصطياف معها في الخارج ومن هناك ارسل إليها ورقة الطلاق، ومعها تحويل بثلاثة آلاف ريال هو مؤجلّ صداقها..

وتسامع الناس بخبر طلاقها.. وبينهم اصدقاء أبيها وصديقات امها.. وما كادت تخرج من العدة حتى تلاحقت عليها عروض الزواج.. ولكن من رجال تخطّوا الأربعين والخمسين من أعمارهم، ومنهم المتزوجون وآباء لأبناء وبنات في مثل سنّها.. وانقضت شهور لم تستطع خلالها أن تصل إلى قرار.. ولكنّها رجّحت أخيرا أن تمتهن خياطة ملابس السيدات، وأن تقضي بقية حياتها كما ظلّت امها من قبل.. ومرّت شهور انفقت خلالها الكثير من مؤجلّ الصداق ولم يبد لها انها ستحقق نجاحا في مهنتها بعد أن ظهرت الفساتين الجاهزة في الأسواق، إلى جانب خيّاطات وفدن مع أزواجهن من الخارج، تهافت عليهن نساء المجتمع وقد أصبحن لا يرضيهن إلاّ الجاهز من الأزياء، والأجنبيات من الخيّاطات.

وقبل أن ينتهي العام الذي طلّقت فيه، وحين أوشك آخر ما لديها من مؤجّل الصداق أن ينفد ولم يبق امامها إلا أن تبدأ بيع أثاث منزلها، زارتها سيدة من صديقات أمّها، بكت لما سمعته من احوالها، واحتضنتها تقبّلها وتخفّف عنها، وتحسّن لها الزواج أيا كان الزوج.. ولكن فجأة.. وكمن وقعت على حل لم يكن في الحسبان قالت.. (اسمعي يابنتي.. التاجر الكبير كامل نجيب هاشم.. تسمعين عنه بالطبع.. تزوّج ابنه الوحيد من الخارج.. وقد رزق من زوجته ابنا منذ ثلاثة شهور.. وقد عرضوا عليّ أن أعمل مربّية لهذا الصغير.. ولكن صحتي لا تساعدني.. وحفيدتي يتيمة ليس لها من يرعاها سواى..) واطرقت لحظات ثم قالت.. (ما رأيك.. كلاّ لن تكوني خادمة.. ولست مسؤولة الاّ عن هذا الطفل.. عندهم الكفاية من الخدم.. وهم مستعدون أن يخصصوا لك غرفة حسنة الأثاث وأن يوفّروا لك كل أسباب الراحة.. بل سيكون تحت يدك خادم يقوم بالأعمال التي لا تستطيعين أو لايليق أن تقومي بها.. ثم سيدفعون لك راتبا مجزيا.. ربّما لايقل عن ثلاثمئة ريال).

ولم تجد زبيدة بدا من الموافقة.. اذ لم يكن امامها الاّ أن تتزوّج آخر من تقدّم لها وهو رجل تجاوز الخمسين، وأجنبي يدير مطعما لحساب أحد المواطنين، وزوجته وابناؤه في بلده، أو أن تعمل لتعيش.. وفضلّت أن تعمل وما عرضته عليها صديقة أمها ليس فيه ما يمس كرامتها على أية حال..

ومنذ اللحظة التي أخذت فيها ذلك الطفل بين ذراعيها، أحسّت كأن هذا العمل لم يفتح لها باب الرزق الحلال فحسب، وانما قد منحها ما هو أهم وأغلى.. منحها ري تلك العاطفة التي لم يسبق أن نهلت من عطائها قط.. وأحاطها بالجو الذي طالما تمنّت أن تجد نفسها فيه.. جو الأمومة بكل مشاعرها، وبكل ما يعبق به من أنفاس البراءة والطهر، وما يغردّ فيه من أهازيج ومناغاة اضاءت ما ظلّ يعتكر في حياتها من تجهّم وظلام.

وفي أحضان هذه المشاعر نسيت زبيدة كل متاعبها.. وكلّما كبر الطفل بين يديها كبر تعلقها به وحنانها عليه بين كفيّه الصغيرتين، وهو يعبث بشعرها أو

وجهها كل حياتها.. وحين بدأ يخطو خطواته المتعثرّة الأولى في نهاية العام الأول من عمره، بدأت هي تحلم له بالمستقبل المشرق الذي سوف يملأ حياتها وحياة اسرته كلّها شبابا وحركة وتوفزًا.. ولكن امّه.. تلك الشابة المترفة، ما كادت تراه يدب إلى عامه الثاني حتى شرعت تتحدّث عن اليوم الذي تذهب به إلى نفس المدرسة التي ارسلت إليها منذ بلغت السابعة.. والتي كانت تصفها كما لو كانت فردوسا.. فهي على سفح جبل من جبال سويسرا، وعلى ضفاف إحدى بحيراتها.. و يكفي عن مستواها انها المدرسة التي لايوجد فيها غير ابناء و بنات اعظم العائلات في اوروبا كلّها.

وقبل أن يبلغ (كامل) الخامسة من عمره سافرت به امه إلى ذلك الفردوس.. ولم تره ماما زبيدة بعد ذلك حتى اليوم.. كما لم تعد ترى أى طفل من الأطفال الذين ظلّت تمتهن تربيتهم، بعد أن ذاع لها بين الأسر الكبيرة صيت وسمعة طيبة عن سعة صدرها، وصبرها وأناتها في معالجة مشاكل الأطفال.. وهذا مع تلك الخصيصة التي يندران تتوفّر في كثير من المربيّات، وهي الحرص على عدم التدخل فيما ينشب بين الزوجين من عراك، وما ينشأ بينهما من خلاف، والتزام حد في علاقتها بمجتمع الأسرة لم تتجاوزه قط.. ومع انها كانت كلمّا وقفت امام المرآة ترى في قسماتها من الجمال ما لو اضافت إليه بعض ما تعنى به المرأة من زينتها، وفي قوامها من الرشاقة والتناسق، ما لو عنيت باختيار مايلائمه و يظهره من الثياب لسطعت اجمل وأرشق من بعض امّهات الأطفال الذين تستخدم لتربيتهم.. فقد ظلت تتصوّن وتحتشم، فلا تظهر الاّ بالمظهر الذي اختارته لنفسها منذ دخلت بيت الوجيه كامل نجيب هاشم.. وهو مظهر من تتهّيأ للصلاة، فلا يظهر منها الاّ وجهها و يداها.

والآن.. وهي على هذا السرير في المستشفى العام.. تتقاذفها ذكريات ما يقرب من ربع قرن، وتتلامح في ذهنها صور اولئك الأطفال الذين ربتّهم ومنهم هذا الدكتور الجرّاح.

كان الطفل الثاني بعد (كامل) وقد تعهّدت تربيته حين كان يدرج إلى الثالثة من عمره، وهي ما تزال تذكر كيف كان ينطق (السين) (ثاء).. كم

كانت تلك اللثغة حلوة حين يتفتّح عنها ثغره الصغير كلّما نادى الخادم (سعيد) أو اخته الكبيرة (سامية).. فاذا سألوه عن اسمه كان يتردد و يتأبى اذ يرى في وجوه السائلات من صديقات امه أو جدّته كيف يتوقّعن اللثغة و يضحكن حين يسمعنه يقول (اثمي ثامي).

وتوالت صور الأطفال، كما تلاحقت ذكرياتها عن تلك الأجواء الملائكية التي عاشتها وكل منهم بين ذراعيها وعلى صدره صدرها.. أو محلّقا في فردوسه على سريره الصغير بالقرب من سريرها، فلا يكاد يفتح عينيه مع تغريدة العصفور عند الفجر حتى تكون إلى جانبه تداعبه وتناغيه، وتبتكر له كلمات التدليل تغنّيها، فاذا سمعها الأب أو الأم أو حتى الخدم، لايجدون أفضل منها لاستدراجه إلى ما يعجبهم أن يروه من نوامي ضحكاته ومرحه.

وتنهّدت ماما زبيدة.. وجذبت كم قميصها الأ بيض باطراف اصابعها تمسح به ما ظلّ ينذرف من العبرات على وجهها وقالت.. (هذا سامي.. ولكن اين الآخرون ؟ كامل.. وعماد.. وتلك الصغيرة عبير، وشوقي.. وطه).

كانت تتتبع اخبارهم كلمّا اتيح لها أن تلقى نفرا من اسرهم.. ويملأ صدرها احساس بالزهو والاعتزاز، حين يقال لها ان هذا في امريكا، والثاني في فرنسا، وعبير مع زوجها الديبلوماسي في روما.. وشوقي معيد في الجامعة، وطه استاذ في كلّية الهندسة.. كلّهم بخير.. وتدير بصرها في العنبر حولها.. وتقول.. (وانا أيضا بخير.. الحمد لله).

وحين افترّت النافذة امامها عن اولى ابتسامات الفجر كانت ما تزال تعانق اطفالها.. وما تزال تردد في ذهنها كلمات التدليل التي كانت تناغيهم بها.. ووجدت نفسها تتساءل (أتراهم يذكرونها ؟) و(هل خطر ببال، انها هي التي كانت تقف إلى جانب سرير الواحد منهم، وهو يفتح عينيه على هذه اللحظات من الفجر كل يوم.

وغلبها النعاس، فاغفت فترة لم تدرك انها ظلت إلى التاسعة إلا حين فتحت عينيها على وجه الدكتور سامي وفي يده (الطبلة) وإلى جانبه الممرضة تقول:

هامسة..(ايوه يادكتور.. اسمها زبيدة) ولم تملك ماما زبيدة إلا أن ترفع صوتها

وتقول.. (ايوه يادكتور.. اسمي زبيدة.. صباح الخير..).. واستدار مقتربا منها وتناول يدها يجس نبضهـا.. ثم أجـاب.. (صباح الخير) واضاف بعـد لحظات..(عال.. عال.. كلّها يومين تلاثة وتخرجي وانتي في قلب العافية).. وعصف بها ادراكها انّه لم يعرفها، وحتى اسمها (زبيدة) لم يذكّره بها وعزّ عليها أن تتسوّل ذكراها في نفسه.. ماتت الكلمات على شفتيها.. ولكنّها لم تستطع أن تمسك دموعها.. وحدث ـ قبل أن ينتقل إلى السرير المجاور ـ ان التفت إليها ورآها تبكي.. وبدت عليه دهشة خفيفة، فتوقف يسألها..(هل يؤلمك الجرح ؟) وزحمها الانفعال، فلم تنبس بكلمة وظلّت شفتاها ترتعشان.. ثم تمالكت لتقول.. (كيف حال امّك.. وكيف حال سامية ياسامي؟).. وابتعد خطوة.. ثم كمن استيقظ من غفوة طويلة.. هتف..(انتي ؟ ماما زبيدة؟؟) وقبل أن تجيب انحنى على رأسها وأخذه بين يديه وقبّل جبهتها.. واستطاعت ان ترى عبر دموعها عينيه تحتقنان وهو يرفع رأسه و يردد (انتي ؟ انتي فين ياماما زبيدة ؟).

وانقضت خمسة ايام في المستشفى، توافد عليها خلالها اكثر من سألت عنهم من ابنائها.. حتى الذين يعملون في الرياض، وكانوا يقضون اجازتهم في جدة، ظلّوا يزورونها ومعهم زوجاتهم واطفالهم، والكل يناديها (ماما.. ماما زبيدة).

وفي اليوم السادس، كان الدكتور سامي هو الذي تتكيء على ذراعه في الممرات، وفي المصعد ثم إلى سيارته وحين بدأ يخرج من باب المستشفى قالت له..(بيتي بعيد ياسامي ياولدي.. والطريق متعب.. اوقف لي تكسي..) ولكنّه لم يجب بشيء.. وقدرت انه مشغول الذهن فالتزمت الصمت.

ووقف بها امام دارة لم تشك في انها منزله.. فهو يستضيفها ذلك اليوم.. ولكن ليته أجل ذلك إلى يوم آخر.. وقبل أن تقول شيئا.. اسرع إلى باب الدارة وفتحه، ثم عاد إليها وفتح لها باب السيارة.. وحين دخلت متكئة على ذراعه فوجئت بما اذهلها.. كلّهم كانوا هناك.. اسرعوا يرحبّون بها ويمشون بين يديها إلى

الشرفة ثم إلى داخل الدارة حيث مشوا بها إلى باب فتحه أحدهم لتجد نفسها في غرفة نوم راعها ما رأته من اثاثها الجديد.

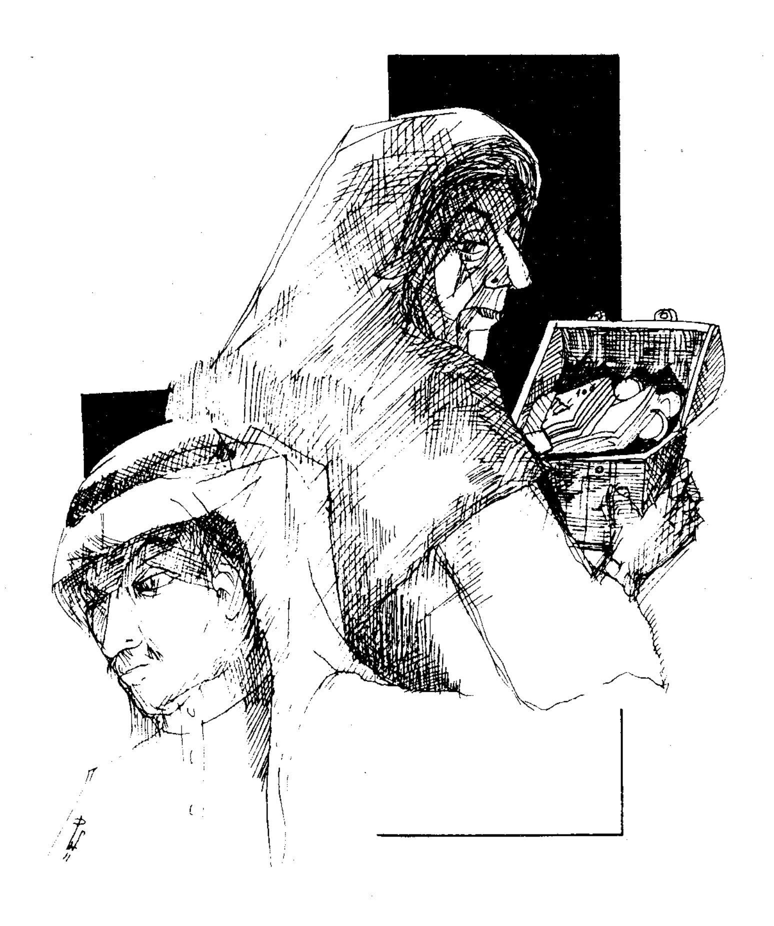
بلغ بها الذهول، انها لم تستطع أن تنبس بكلمة.. لم تكن تفهم شيئا.. وتهالكت على السرير فساعدها الدكتور سامي على أن تتمدد.. ورأتهم يتجمعون حولها.. وتقدّم اليها كامل.. ووضع على المنضدة بجانب السرير ورقة كبيرة وابتعد قليلا ليقول..(ماما زبيدة.. كلّنا قصرّنا كتير.. وفضلك على كل واحد منّا كبير. كبير جدا.. لازم ما ننساه ابدا.. وعلشان تسامحينا عن تقصيرنا.. نترجّاكي تقبلي منّنا هديّة.. هدية صغيرة.. كل واحد منّنا ساهم فيها باللي يقدر عليه.. هادي الفيلا.. وهادي حجتّها).. وما كاد ينتهي حتى تقدّم إليها (عماد) واخرج من جيبه ورقة وهو يقول..(وهادا ياماما تحويل على البنك.. مبلغ بسيط.. لكن كلّنا ابنائك.. ودايما تحت أمرك..)

وقبل أن يغادروا الغرفة، دخلت خادمة سمراء تحمل إليها كوبا من عصير البرتقال.. وحين رأت الدموع تملأ عينيها ووجهها، اسرعت تقدم لها علبة المناديل.. وأسرع أولادها إليها.. يقبلّون جبهتها.. وكل منهم يردد بصوت متهدّج وعينين محتقنتين..(سامحينا ياماما.. ياأحسن ماما في الدنيا..).





تمثيلية: مال المحروم للنزهي





تمثيلية : حال المحروم للنزهي

موسيقى راقصة صاخبة هي اللحن المميّز.

إحداهن (فتاة في سن ١٤ مثلا): على فين ياسيدي راجح؟

راجح (شاب في العشرين أو أكثر): على بركة ماجد ..

إحداهن (مستفسرة): ليه .. عسى خير؟

راجح: بلاشي تحكّي الصدا دحّين .. بعدين أقول لك .

احداهن: لكن ياسيدي راجح .. دحّين لنا يومين ما قضيّنا ، وأمي تعبانة كثير، وابونا لا حس ولا خبر من نهار ما سافر .. ما تشوف لك صديق تتسلّف منّه يعني ما هو معقول نقعد بهادي الحاله .

راجح: طيب ما هو أنا رايح بركة ماجد علشان كده .

احداهن: ياسيدي راجح .. والله انا عارفه بركة ماجد ما يروحوها الناس إلا للتمشية وما اظننا في حال تمشيه .

راجح (بضيق): طيب ما دام بتحكّي بهدا الشكل .. انا اقول لك ياستي .. انا رايح بركة ماجد علشان اجمع شويّة ضفادع .

احداهن بدهشة: تجمع ضفادع ؟ وهي الضفادع تأكّل عيش ؟ هي الضفادع تجيب دكتور ؟ ياسيدي راجح .. والله مووقته ابدا .. مووقته انّك تمزح وتضيّع الوقت .

راجح: يابدرية أنا ما بامزح .. أنا باتكلم جد .. انا رايح

اجمع ضفادع من بركة ماجد علشان اقدر اجيب فلوس.

(احداهن) بدهشة: ليه هي الضفادع اصبحت تنباع وتنشري في السوق؟

— بدرية بعد الآن —

راجح (ضاحكا): لأ.. ما تنباع ولا تنشري بالطبع.. لكن برضه رايح اجيب بها فلوس.

بدرية: انت لازم خرّفت.. انت سرت زي ام جدّة.. اللي ما عاد تعرف كوعها من بوعها، و برضها زيّك كده كل يوم تطلع بهرجة ما احد عارف لها أول من آخر.

راجح: لأ.. بس هادي المرّة.. انا سمعتها اليوم طلعت بهرجة لها أول ولها آخر وعلشان كده أنا رايح بركة ماجد اجيب منّها الضفادع.

بدرية: والله برضه ماني فاهمة ولا حاجة.

راجح: طيّب.. ما دام ما بتفهمي.. خليّك على كده.. احسن.. على كل حال انا رايح اليوم أجيب فلوس كثير.. فلوس تكفيّنا طول الشهر، ويمكن اكثر من كده.

بدرية (باستغراب): وتجيبها من الضفادع ياسيدي راجح.

راجح (بضيق): اوه.. طوّلتي الكلام كثير.. باقول ايوه من الضفادع.. من الضفادع..

بدرية (مستسلمة): طيّب.. ربّنا يكون في عونك.. ياسيدي راجح.. لا تاخد عليّ.. اصله انت عارف اننا متضايقين كثير.

راجح باهتمام: بس اسمعي.. خلّي بالك من كلامي طيّب طيّب.. ما ابغا أم جدّة تسمع اني رايح اجيب

راجح (ضاحكا): لأ.. بس لا تطوّلي الكلام.. ولا تجيبي سيرة الضفادع قدّامهاابدا.

بدرية (ضاحكة): بالطبع لأ.. علشان انا عارفه انها هيّ تخاف من الضفادع موت.. بيتهيأ لها بعض الأحيان اني أنا نفسي (تضحك) ضفدعة.. وتفضل تصيح في وجهي وتقول لي.. اصحي تدخلي عليّ.. وتمد عكآزها وتقفل الباب.. ولوغلطت ودخلت، قبل ما تسمع مني (انا بدرية).. ياساتر.. دي تروح نازلة على دماغي بالعكاز.. دي حصلت مره.. و بعدين ياعيني عليها، طاحت النضّارة من عينيها على الأ رض.. و بالطبع لمّا شفتها بتدوّرعليها وما هي قادرٍه تشوفها، ما قدرت اصبر.. قلت زي بعضه خلّيها تضرب وقرّبت منّها، وناولتها النضّارة.. وساعدتها الين حطّتها على عينها.. عادتدري ايش اللي ساربعد كده (تضحك)؟

راجح (ضاحكا): ايش اللي سار؟

بدرية وهي تضحك وتمثل لهجة العجوزوطريقة كلامها ان امكن

ياسيدي برضه انفجعت.. وصاحت.. وقعدت تقول الحقوني.. الحقوني الضفدعه.. الضفدعه.. يعني حتى بالنضارة ما شافتني إلا حتّه ضفدعة.

راجح (مبتعدا): طيب خلاص.. انا رايح.. وخلي بالك مع اميّ.. لحسن انا شايف السخونه زايده عليها كثير.. وان شاء الله ما يجي المغرب إلاّ وانا جايب لها الدكتور. في امان الله.

بدرية: في امان الله.

موسيقى.

حركة خطوات صعود على السلّم يمكن أن تؤدّى بالمشي على لوح خشب في الاستوديو.. أو

مؤثر صوتي موجود في المكتبة .
العجوز صوتها قريب من المايك
بينما صوت الخطوات مستمر.. مع ملاحظة ان الخطوات سريعة لأن المفروض انها خطوات بدرية الشابة الصغيرة .

العجوز: فاهمة يااختي .. العزلة الكبيرة اللي في النقا باعها بمية وخمسين جنيه دهب .. والعزلة اللي في السليمانية باعها بمّيتين جنيه وخمسة مجايدة .. و بعدين باع العزلة اللي في الشعب .. و باع و باع .. وفضل يبيع في العقار الين خلاّنا على الخسف .. انت سامعه ؟ طبعا سامعه .. و بعدين ، ياريت ربّنا هداه .. دا فضل يضيّع الفلوس ، زي كأنّه بينه و بينها تار .. دي الفلوس اللي ضاعت كانت ..

بدرية (فجأة) وهي تلهث من الصعود: هوّه مين ياجدّة ؟

العجوز: المرحوم .. المرحوم جوزي .. الله يتغشّاه بالرحمة و يبشبش عضامه في الجنّة .

بدرية : لا .. ماله حق ..

العجوز (بغضب) : ايش ؟ انت بتقولي ماله حق .. جوزي ماله حق .. الرجّال اللي مات وما تجوز عليه إلاّ الرحمة بتقولي انّو ماله حق ؟ الله (بدهشة) الله .. انتي مين ؟؟

بدرية : انا بدرية ياجدّة .

الجدة (باستنكار وتجاهل) : بدرية ؟ مين بدرية ؟

بدرية (بدهشة) ياجدّة انا بدرية .. الله . وهوفيه كم بدرية في هادا البيت ؟

العجوز: بتقولي كم بدرية ؟ طيب انا اقول لك .. انا اعرف

بدرية بنت عمتّي الله يرحمها واعرف بدرية بنت خالي نور. و بدرية بنت عبدالرحمن سليم اللي كانوا جيراننا سنة ما كنّا ساكنين في الهجلة .. سنة السيل الكبير اللي يابنتي وصل للحزام حق الكعبة واللي جانا بلا مطر .. واعرف بدرية .

بدرية (مقاطعة) : انا ياجدة بدرية .. بدرية بنت ولد بنتك .. انا بدرية بنت يحي .

العجوز: ايوه .. انتي بدرية .. ايوه دو بي عرفتك .. طيّب ليه ما تقولي كده من اول .. طيب وفين ابوكي يابنت ؟ ايش به ما شفته اليوم ؟

بدرية : ياجدة .. ابو يا مسافر .. مسافر من ستة اشهر .. يعني انتي .

العجوز: مسافر ؟ متى يابنتي سافر ؟

بدرية (متضايقة) : ياجدّة باقول لك سافر من ستة اشهر .. وكل يوم تسأليني .. وكل يوم باقول لك انّومسافر.

العجوز: طيّب وفين اسمها ايه هادي .. ياشيخه قولي معايا .. ايوه (بحدة) قولي معايا يابنت .

بدرية : ايش اقول معاكي ياجدة ؟؟

العجوز: قولي معايا (وتبدأ تغني بصوتها العجوز) .

والفتاة (بدرية تغني معها) وترددان هذه الكلمات مرتين
جمّال بي جمّال بي .. رُد السلام لُمّي و بي
كانت خديجة الغاليه واليوم صبحت جاريه . ترعى الغنم ترعى البقر فوق الجبال العاليه .

بدرية (تضحك) : طيب كفايه ياجدة .

الجدّة : ايش بتقولي يابنت ؟؟

بدرية: يعني باقول كفاية نغني علشان انا جيّه، اكنس لك المبيت، واملّي لك الشربه، ولازم اروح اشوف امي.. امي وجعانة ياجدّة..

العجوز (بحدة): تروحي تشوفي امّك؟؟ وهيّ فين امّك؟؟ ليه ما باشوفها؟؟

بدرية (متضايقة): باقول لك انها وجعانة.. وجعانة في الفراش.. مسخّنة.. ما تقدر تتحرك..

العجوز: لا.. سلامتها.. الف سلامة.. طيّب يابنتي وانتي ايش جيتي تبغي؟

بدرية (متضايقة) لنفسها بهمس: يا ربي هادا ايه هادا الغلب (ثم ترفع صوتها) ياجدّة انا جيّه اخدمك جيّه انضّف لك.. قصدي اكنس لك المبيت.. واملّي الشربه.

العجوز (منتهرة بغضب): طيّب ومين اللي قالّك، لا تكنسي.. ولا تملّي الشربه.. طيب ما تشتغلي هيّا وتوريّني كيف تعرفي تكنسي ولاّ لأ.. وتعرفي تملّي الشربه ولاّ تكسرّيها.. و بعدين.. اذا لقيتك عارفه شغلك طيّب.. ما عندي مانع اشتريكي.

بدرية (بدهشة): تشتريني انا ياجدة؟

العجوزة: أيوه واشتري ابوكي كمان.. انا اللي اشتريتهم عتقتهم.. وانتي اشتريك، ولكني ماني رايحة اعتقك ابدا.. انت.

بدرية ضاحكة مقاطعة: طيب ليه.. ايش اللي حصل منّي؟

العجوزة: وهادا كلّه اللي بتسو يه و برضك تسأليني ايش اللي حصل منّك؟

بدرية بدهشة وضاحكة في نفس الوقت.. منّي انا؟

العجوزة: ايوه انتي يامقصوفة الرقبة.. انتي اللي بتكسّري لي

الشراب المدني اللي جابهم المرحوم.. ماخليتي لي ولا شربه.

بدرية: طيب.. حاضر.. انا تحت امرك.. بس خلّيني اشوف شغلي.

العجوزة: شغلك ؟ ايه هوّه يابنتي شغلك ؟ هوّه لا سمح الله البنات بيشتغلوا في هادي الأ يام؟

بدرية في غاية الضيق: ياجدّة.. امّي وجعانة ولازم انزل اشوفها.. واجيكي بعدين.

العجوزة: ايوه يابنتي روحي شوفي امّك وتعالي.. ولا تنسي وانتي طالعه، تجيبي لي اللّبه، والتوب المصكّك والقنعه، والكرته الجنفص.. وكمان لا تنسي الخف الأصفر والبابوج اللي جابو المرحوم من الغرب.

بدرية (ضاحكة ومبتعدة): حاضر.. حاضر.. (لنفسها وهي تهبط السلّم) هادا ايه هادا الغلب دي خرّفت مرّة واحدة.. لبّه.. ومصكّوك، وجنفص.. وخف..

تغمر صوتها الموسيقى.

العجوز وحدها: ايوه هوّه هادا الكلام.. انا لازم احضر هدا الجواز بالتوب المصكّك، وبالقبعة الجاوي، واللّبه الألماس على صدري، واكيدهم كلّهم.. اخلّيهم يتفرفصوا من الغيرة.. واخلي رقبة كل وحدة منهم تسير زي السمسمة.. وهادا الصندوق السيسم.. اللي جاب لي هوّه الله يرحمه و يبشبش عضامه في الجنّة من الهند، (تضحك ضحكة عجايزي) ما أحد يدري ايش فيه. ولو دريو عنّو.. ولو دريو انّو مليان ومطفّح، من التياب المصكك التقيل، والمنتور، والتل.. والعقود اللولو، والشماسي الألماس، دول

كان يمديهم يخنقوني .. و يسلّطوا عليّ الحرامي ..
لا .. لا .. انا لازم اربط المفتاح في حلقي .. لأ
احسن اربطه في صدري .. لأ لأ .. وعلى ايّه ..
الأحسن اني ادفنه .. ايوه .. ادفنه في الخارج ولا
من شاف ولا من درى ..

لكن لا .. يمكن اضيّع مكان الحفرة .. وما عاد
اقدر افتح الصندوق ابدا .. طيب يابنت ياخديجة ..
فين .. فين يابنت فين .. فين ادس المفتاح . ما
تهرجوا ياهو .. ما تهرج انت يامسند .. وانت
يامرتبة .. ما تبغا تجاوب ياصندوق .. كلكّم
ساكتين ؟ طيب خليكم ساكتين .. أنا اسأل
الشربه المدني .. هي الحبيبة اللي عمرها ما تخّيب
لي رجا .. هيّا ياشربه .. هيّا ياست الشراب المدني
كلّها .. هيّا قولي فين ادس المفتاح .

صوت الشربة هوراجح (محاولا تغيير صوته وجعله غريبا اقرب إلى صوت سيدّة) .

العجوزمرتعبة : بسم الله الرحمن الرحيم .

صوت الشربة : الله .. انت خايفة ؟ كيف تسأليني فين تدسي المفتاح .. وتقولي لي هيا قولي و بعدين تخافي منّي ؟ ؟

العجوز (وقد نسيت خوفها) : ايو الله ياشربه .. ياست الشراب المدني .. قولي لي فين ادس المفتاح ؟

الشربة : يعني انت خارجة .. رايحة محل ؟ ؟

العجوز: ايوه رايحه احضر هدا الجواز.. واخاف مفتاح الصندوق السيسم يضيع منّي .

الشربة : خلاص .. انا اقول لك فين .

العجوز (بفرحة) : الله يبشرك بالخير .. فين ياشربه .. فين .. احط المفتاح ؟

جيبه التاني .. تلا تة ضفادع كبيرة من اللي جابهم من بركة ماجد، وحط واحدة في الصندوق، و واحدة في الشر بة المدني، و واحدة فلتها في الغرفة ورجّع كل حاجة زي ما كانت، و بعدين كتب ورقة قال فيها أنا مديون للجدّة بهادا المبلغ وقدره خمسون جنيها عثمنليا، ادفعها عند حضور والدي للجدّة، واشهدت الله على ذلك.. والله على ما اقول وكيل.

كلام راجح (من انا مديون الخ.. بصوته).

موسيقى.

بدرية (بقلق): ياسيدي راجح مالك حق.. دحّين جدّة تموت من الخوف.. ما دام اخدت الفلوس وحطّيت سند كان بلاش تحط لها الضفادع.

راجح: لو ما حطّينا الضفادع وحصل انها فتحت الصندوق، واكتشفت الحكاية يمكن تشتكيني للشرطة وتجيب لنا مصيبة.. هادي انتي عارفة بيجوها العجايز اللي زيّها و يساعدوها على كل شي.

بدرية: طيب ودحّين؟؟

راجح: دحّين.. رايحه تقول الضفادع همّ اللي اخدوا الفلوس.. ورايحة تحلف يمين على كده وكل اللي يسمعوها رايحين يقولوا مخرفّة.. وابو يا ما يزعل بالطبع علشان هو ما يرضيه اننا نقعد كده امّي وجعانة ونحن ما عندنا شي، وهوما ارسل لنا فلوس وانا ماني موظّف ولا باشتغل.. يعني تبغيني أروح اشحت ولاّ اسرق.

بدرية: لك حق ياخو يا .. بس خلّيني اطلّعها واقعد معاها الين اشوف كيف تسير الحاله.

موسيقى

الراوي: وطلعت العجوزه.. وبعد ما قعدت شوّيه.. سمعت صوت الضفدعه اللي في الشربه.. وجاوبتها الضفدعه اللي في المبيت.. اللي فلتها راجح.. وصاحت العجوزة.

العجوزة: الحقوني.. الحقوني ياناس.. الضفادع.. الضفادع.

الراوي: وصاحت معاها بدرية.. ياسيدي راجح ياسيدي راجح الحقنا الحقنا الضفادع مملّية المبيت.

راجح من بعيد مصطنعا الرعب ايش فيه ؟ ايش فيه ياجماعة .. (ثم لاهثا) ايش بكم ؟؟ ثم يقترب من المايكروفون تدريجيا

العجوز: اسمعهم.. الضفادع.. الضفادع.

راجح: الله.. هادي واحدة مفلوتة في المبيت.

بدرية: والتانية أنا اسمع صوتها في الشربه.

راجح: وانا سامع واحدة تالتة.. ياترى هيّه فين ؟

العجوز بخوف شديد: في الصندوق.. في الصندوق السيسم.. لازم هادول غلطانين، انا قلت لهم يسيروا ضفادع، لكن ما قلت يهاجموني انا.. ما قلت لهم يآذوني انا ما قلت لهم يجيبولي مصيبة ما هي على البال.

راجح: بتقولي في الصندوق السيسم؟ طيب فين المفتاح ياجدّة؟

العجوز وهي في منتهى الرعب: في الكيلون.. على الصندوق. اجرى قوام افتحه.. وندّرها.. ندّر كل الضفادع.. لاتخلّي ولا شي.

راجح: حاضر.. اصبري خلّيني امسك هادي اللي في

الشربة : خلّي المفتاح في الصندوق السيسم .. ولكن فهمّي الحاجات اللي في الصندوق انها كلّها تسير ضفادع .

العجوز (مرتعبة) : وي .. أعوذ بالله .. ضفادع ؟

الشربة : ايوه .. قولي للفلوس تسير ضفادع .. ولكل حاجه في الصندوق تسير ضفادع .

العجوز: و بعدين ؟

الشربة : و بعدين ، لمّا يجي الحرامي يمد يدّه على الصندوق ، ما يصحا إلاّ والضفادع هاجمة عليه .. وانتيٍ عارفة انّو لازم يبرطع .. وعشرة ما يحطّوا طرف تو به .

العجوز: والله هادي فكرة طيبه ياشربه .. خلاص .. انا موافقه .. بس كما انتي .

الشربة : انا كمان اسير ضفدعه كبيره وانقز على الحرامي ، واعضه من رقبته .

العجوز(تضحك ضحكا عجايزيا . امّا فكره حلوه صحيح .. خلاص .. بس خلّيني البس واتحضّر .. و بعدين اسوّي زي ما قلتي .

الشربة : هوّه هادا الكلام .. بس ابغا اقول لك حاجه .. لازم تلبسي وتتحضري وتخرجي من المبيت قوام .. علشان انا خايفه ، دحين اسير ضفدعه ، وما ادري كيف اسوّى اخاف اهجم عليكي .

العجوز (خايفة) : تهجمي عليّ أنا ؟

الشربة : بالطبع .. لمّا اسير ضفدعه اروح هاجمه على أي واحد في المبيت ، علشان اخلّيه يشرد عن الصندوق السيسم .. موانتي كده قلتي .

العجوز (باستسلام) : ايوه صحيح .

الشربة : طيّب هيّا قوام .

العجوز: طيّب .. خلّيني احط المفتاح في كيلون الصندوق .

الشربة : ايوه .. كده تمام .. هيّا قومي اشوف .. (تستعجلها) هيّا قوام .

العجوز: طيّب .. طيّب .. طولي بالك عليّ .

حركة العجوز واناتها وهي تتحرك وحركة وضع المفتاح في الصندوق .

العجوز: هيّا خلاص .. انا خارجه .. اصبري خلّيني اصفّق لهم يجوينزّلوني .

(تصفق) .. و(تنادي) ياهوه .. انتويا اللّي تحت

بدرية (من بعيد) حاضر يا جدّة .

العجوز: تعالي يابنت .. تعالي نزليني قوام .. اجري .

بدرية : حاضر يا ستّي انا جيّه اهه .

موسيقى

الراوي : وما خرجت الجدّة العجوزة من المبيت ، و بدأت تنزل الدرجان حبّة حبّة وهي خايفة إلاّ ودخل راجح المبيت ، وفتح الصندوق السيسم .. ومدّ يدّه يحسس على الحاجات الموجودة فيه .. لقيها كلّها صرر ، وفتح واحدة صرّة مّن الصرر التقاها مليانة جنيهات دهب عثمانلي .. من القديمة .. يمكن اكثر من ثلاثمية جنيه .. وفتح الصرّة التانية والتقاها مليانة ، عملة دهب ، من الله كانوا يسمّوها (ابوفرج الله) وفتح الصرة التالتة والتقاها مليانة من العملة الدهب اللي يسمّوها مشاخص وغوازي .. وفتح الصرة الرابعة ، والتقاها مليانة ، لولو من الكبار اللي ما في زيه .

و بعدين ، فكّر شو يه .. وقال انا ما ابغا آخد إلاّ على قد حاجتنا الين يجي ابو يا من السفر .. واخد خمسين جنيه دهب... وحطّها في جيبه .. وندر من

ضفادع .. ولا شي من هادا الكلام اللي سمعتيه ابدا .

بدرية (ضاحكة): وهيّ ام جدة ياعيني عليها رايحة تفهم شي .. ؟ دي طول النهار قاعدة تهرج ، مع نفسها .. مع الجدران .. مع الشربة .. مع المسند . ما اسمعها غير بتهرج ليل ونهار .

راجح (ضاحكا): ماهو علشان كده لازم تخليّكي بعيد عنّها اليوم .. وما تاخدي ولا تعطي معاها .. والأحسن كمان ما تقعدي تسمعي الكلام اللي بتقوله .

بدرية (بشيء من التألم): ياسيدي راجح حرام .. هادي مسكينة .. مافي احد يخدمها .. والمبيت حار زي ما انت عارف .. وانا لازم اطلع لها كل يوم .. واقعد معاها شويه واكنس لها المبيت ، واملّي لها شربة المويه .. هادا واجب ياسيدي راجح .

راجح: طيب .. ما دام نحن يابدرية بنأدّي الواجب .. بتخدميها .. وامي كانت قبل ما تمرض طول النهار تخدمها وابو يا طول ايامه ما يقصّر معاها وهي زي ما انت عارفه مكوّشه على فلوس الدنيا والآخره .. في الصندوق السيسم اللي ماتنسى ابدا انها تشيل مفتاحه وتخفيه في مكان ما يعرفه حتى الشيطان .. وما ترضى تساعدنا ولا بريال واحد .

بدرية: برضه ما يمكن نقصّر معاها دي مسكينه في آخر ايامها .. والفلوس اللي بتقول انها مكوّشه عليها يمكن تكون هلل .. وحتى يمكن ما عندها فلوس .

راجح (ضاحكا): لأ .. دي عندها فلوس .. وعندها فلوس كثير .. انا عارف .. انا ابو يا قال لي .

بدرية : طيب .. حتى على فرض انّوعندها فلوس .. نحن ما لنا حق فيها .

راجح : هي ام جدّة موكده ؟؟

بدرية : ايوه .

راجح : يعني أم أم ابو يا .

بدرية : طيب ماني فاهمة .

راجح : يعني بعدما ماتت أم ابو يا ، ومالها أولاد غيره .

بدرية : طيب .. طيب انا عارفه هادا كلّه .. لكن برضه الفلوس فلوسها .

راجح : وام أم ابو يا .. يعني هادي اللي ربّنا ما شاء الله بارك في عمرها ، كمان مالها اولاد ولا بنات غير أم ابو يا .

بدرية (بضيق) ياسيدي راجح .. ايش لنا نحن وهادا الكلام الطويل ؟

راجح : انا اقول لك .. باختصار كده .. هادي الفلوس اللي هيّ مكوّشه عليها وما هي راضيه تساعد ابو يا بها ، ولا تفكّر انها تخرّج ريال واحد تساعدنا هادي الفلوس كلّها رايح يورثها ابو يا .

بدرية : طيب .. و بعدين ؟

راجح : ولا قبلين .. يعني لو اعطتنا من هادي الفلوس يبقى تعمل معروف ، واذا ما رضيت تعطينا واخدنا نحن هادي الفلوس بنفسنا ، يبقى برضه تعمل معروف ولمّا يجي ابو يا يسدّدها حقّها أويتصرفّ بالطريقة اللي يشوفها .

بدرية (مندهشة) : يعني ياسيدي راجح ــ لاسمح الله لاسمح الله ــ رايح تمد يدّك على صندوقها .

الشر به واللي في المبيت (حركة مشي أو دربكة قليلة) .. (وأخيرا فتح الصندوق) الله هادي قاعده ياجدة في وسط الصندوق .. شوفيها .. شوفيهم كلّهم .

العجوز (مرتعبة جدا): لا .. لا .. لا .. ما ابغا اشوفهم .. ما ابغا اسمع صوتهم .. خدهم ارميهم على الزقاق .. (في منتهى الرعب) أقل لك خرّجهم .. اخلص قوام .

راجح: حاضر .. حاضر .. هيّا شوفيني رايح بهم .. هيا اقعدي معاها يابدرية .. واذا سمعتو شي تاني ، نادوني .

العجوز: تعال .. تعال ياولدي .. تعال خد .. امسك الضفادع طيب طيب ولا تفلتهم وتعال خد بخشيشك .. (حركتها وحركة فتح الصندوق) خد هادي الصرّة .. شوفها مليانة جنيهات .. خدها حلال عليك .. ما دام خلّصتني من الضفادع .. وانتي يابدرية .

بدرية: حاضر ياجدّة

العجوز: دوّري معايا .. فيه صرّة فيها لولو .. خديها لكي .

بدرية بدهشة: آخدها ليّه ؟؟

العجوز: ايوه خديها لكي .. انا كاتبة من زمان وصيّتي .. وكاتبه لكي هادا اللولو .. شوفي الصّكّ .. تلقيه في العلبة التنك .

بدرية وراجح: الله يخليكي لنا ياجدّة .. الله لايحرمنا منك .

العجوز: بس اصحا اسمعكم تقولوا مخرّفه .. انا دارية عن كل شي .. وانا عارفه انك انت ياملعون اللي جبت الضفادع .. وانك انت الشر به اللي قعدت تهرج .

راجح مندهشا : الله .. انت عارفه هادا كلّه ؟ على كده انتي مانتي مخرّفه .. انتي

العجوز: انا ياولد صاحيه .. انا بعقلي .. بس لمّا اشوفكم تسيبوني ، وتخلوني لحالي طول النهار .. ولا اشوف وجهك انت ، إلا في السنه مره .. وما اشوف هادي المفعوصه إلاّ من الصبح للصبح .. ولا اشوف امكم الاّ لما يطيب هواها .. ايش تبغوني اسوي .. كيف تبغوني اقضي الباقي عليّ من ايامي .. لابد اهرج مع الجدران .. ومع المساند ومع الشر به .. ومع كل شي .

بدرية (متأثرة) : لكي حق ياجدّة .. وهادي سلمه .. هاتي يدّك .

راجح (متأثرا) : خلاص .. وانا اتوب .. انا كل يوم اجي اصبّح .. وفي الليل اجي اجلس اسمع حكاياتك الحلوة .

العجوز: وامّكم هادي المسخّنه اليوم .. قولوا لها ، انا عامله حسابها في الوصيّة كمان .

بدرية : حاضر ياجدّة .

راجح : ربنا يخليكي لنا .

العجوز: الله كريم ياولدي .. بس بدّي اقول لك .. شوف هادا الصندوق السيسم ،

راجح (باهتمام) : ايوه ياجدّة .

العجوز: هادا ياولدي اذا حصل عليّ امر الله لا يفتحه أحد إلا أبوك .. هادا فيه حجج البيوت والأراضي .. والفلوس وكل شي .. وشوف مفتاحه رايحه أخلّيه في صدري دايما .. وما أحد يدري عنّه غيرك انت وهادي البنت .. سامعين ؟

الاثنان معا : سامعين ياجدّة .

العجوز (منتهرة بحدّة): هيّا ما تروحو تجيبولي مو يه بارده عاد.. وما تيجي انتي يابنت تسوّي لي فنجان شاهي بالعطره.

بدرية (مبتعدة): حاضر.. حاضر.

العجوز لنفسها: دنيا فانيه.. دنيا نفضل نجري وراها، ونفضل نجمع وسخها.. اديني حرمت نفسي.. وفضلت مكوّشه على كل قرش.. حتى ولد بنتي فضلت حارماه.. مسكين.. لكن ما عليه.. بعد ما ربّنا ياخد وديعته.. كل شي رايح يقعد له.. وصدق اللي قال: مال المحروم للنزهي.

موسيقى



سائق تاكسي





سائق تاكسي

استطاع أن يفهم ما ظل يسمعه من زملائه من سائقي سيارات التكسي، عن أنه يجب أن يعرف كيف يرضي زبائنه من الركاب، وعلى الأخص منهم اولئك الذين يقفون امام باب الفندق الكبير أو يخرجون منه ليرتفقوا السيارة التي تتقدّم اليهم ثم ينطلقون بها إلى هذا الشارع أو ذاك، حيث توجد الشركات والمؤسسات التي يعلم انهم قدموا إلى المملكة للتعامل معها.. ولكنه يعترف بينه و بين نفسه، بأن هناك نوعا من الزبائن لايرضيه شيء، ودليل ذلك عنده ان الزبون يظل عاقدا مابين حاجبيه، متجها بنظره إلى الأمام، لايلتفت يمينا أو يسارا، لاينطق بكلمة، بينما يشعل سيجارته و ينفث دخانها، ومع الدخان زفرات بحيث يبدو الدخان وكأنّه دخان الرئة التي تحترق، أو القلب الذي يشوى، وليس دخان سيجارة بين شفتيه. ولكن اعجب مافي هذا النوع من الزبائن، انهم اكثر سخاء من اولئك الذين لايكادون يقتعدون مكانهم حتى يبدأوه بتحية الصباح أو المساء، ولا يبخلون بابتسامة أو كلمة أو سؤال عابر عن هذا المكان او ذاك، أو عن اسم الشارع الذي يجتازونه، فاذا انتهى المشوار، تمتد يد الواحد منهم بالريالين، ومعها كلمة شكر رقيقة، اعتاد هو أن يقابلها بما يلهم من كلمات المجاملة والترحيب.

وما استطاع ان يتعلّمه عن أساليب ارضاء الركاب، استغرق عنده وقتا اطول كثيرا من الوقت الذي قضاه في التدرب على قيادة السيارة، أو هذا ما بدا له اذ لا يستطيع أن يتذكّر كم من الزمن مضى منذ جلس وراء عجلة القيادة، واذن له سائق سيارة أبيه أن يقودها، حين يخرج عن المناطق المزدحمة بحركة المرور.. كان يومذاك في الثانية عشرة من عمره، وكان يذهب به السائق إلى المدرسة في الصباح و يعود به بعد الظهر، مع اخته التي تكبره بسنتين، وقد كانت في المرحلة

الاعدادية، بينما كان هو ما يزال في السنة الثانية الابتدائية التي ظل يرسب فيها مرة بعد اخرى، رغم المدرسين الخصوصيين الذين كان ابوه يأتيه بهم في الشهرين الأخيرين، من السنة الدراسية في كل عام، وهذا إلى جانب ما لم يعد يبالي به من التأنيب والسخرية والازدراء، بل والضرب في كثير من الأحيان، وهو لايدري لماذا يرسب، كما لايدري ماذا ينبغي عليه أن يفعل ليتجنّب هذا الرسوب الذي ظل يتوالى و يتلاحق إلى أن بلغ الثامنة عشرة من العمر، والفوز بالشهادة الابتدائية بالنسبة لأمّه، وأبيه، وكل فرد في اسرته حلم بعيد المنال.

وهو الآن وقد تعلّم كيف يرضي زبائنه من الركاب، لاينسى ذلك اليوم، الذي يعتبره اسعد أيام حياته.. يوم استوقفه ابوه قبل أن يغادر البيت إلى المدرسة، وقال له:

اسمع ياولدي.. دع اختك تذهب، مع اخيك الصغير، وابق انت معي فسنذهب معا.

وحين كان يمشي وراء أبيه في حديقة الدار الكبيرة، و يرى الجنايني، والخادم، والسائق، يقفون، و يلاحقون والده بتحية الصباح، كان ما يدور في نفسه، أن أباه سيذهب به إلى المعهد الذي سمع بافتتاحه، حيث يتعلّم الناس، مهنة من المهن، وهو يعترف اليوم، بأنه لم يكن يكره ان يذهب إلى هذا المعهد، وان يتعلّم فيه المهنة الوحيدة التي استقطبت كل اهتمامه، منذ طفولته، وهي قيادة السيارات، و يبتسم حين يتذكّر انّه حلم حلما كبيرا، في اللحظات التي كان يقتعد المقعد الخلفي من السيارة، حيث ابوه بجانب السائق.. وكان هذا الحلم، انّه سيكون هو سائق سيارة أبيه، و بذلك سيوفّر عليه اربعمئة ريال، ولاشك عنده ان أباه سوف لايبخل عليه بمئتي ريال، في كل شهر تكفيه تماما لشراء ما يحتاجه من السجاير وزجاجات المرطبات، او (البارد) كما يسمّونها، أو الجلسة في المقهى مع لداته وزملائه، أما الأكل والشرب والملابس والسكن، فالبركة في الوالد، والوالدة، وفي البيت الكبير بغرفه الكثيرة، وله منها غرفة خصّصت له يوم ادخلوه المدرسة، وما تزال مخصصة له حتى اليوم.

ولكن والده لم يذهب به إلى المعهد، وانما إلى معرضه التجاري الكبير، وحين دخله لم يتوقّف وانما التفت إليه وهو يقول: (الحقني على المكتب).. ثم إلى أحد موظفيه و يقول له.. وانت ايضا الحقني.. واطلب لي وكيل القائد حمزة، رئيس المرور، على التليفون.

ولم يفهم شيئا، ولم يجد ما يستدعي التفكير، أو محاولة فهم ما يمكن أن يكون لوالده من علاقة بمدير المرور، فمشى، ولحق بأبيه في المكتب، وجلس يدير بصره في الغرفة المترفة، إلى أن استقر على صورة من هذه الصور التي رأى مثلها في مكتب أبيه في المنزل.. صورة غابة وارفة الظلال، وعلى الأرض المعشوشبة الخضراء ألوان من الزهر، تلتف حول سيارة جديدة، سمع انها من صنع اليابان، وانها وردت حديثا، و وراء عجلة القيادة فتاة، لم يعن بأن يتأمل ملامحها أو جمال تلك الخصل من الشعر المنساب على وجهها وكتفيها، بقدر ما عني بأن يتأمل معجبا، مقاعد السيارة، وقد بدت دكناء الحمرة، فتخيل انها مريحة، وفخمة، لا تقل ابدا عن أي سيارة من السيارات التي تصنع في غير اليابان من البلدان.

ورن جرس التليفون، فأسرع ابوه برفع السمّاعة، وبعد كلمات المجاملة والترحيب المعتادة، قال ابوه: سيصلك ابني انيس الآن، وكما سبق ان تكرّمت بوعدك، ارجو أن يتم تزويده برخصة قيادة..لا.لا.ليست رخصة قيادة خصوصية.. عمومية.. عمومية.. ايوه ياأخي عمومية.. امتحان؟ بالطبع بالطبع.. امتحان وكشف نظر وبصمات الأصابع وجميع الاجراءات حسب النظام.. كل الذي ارجوه، هو الاسراع بصدور هذه الرخصة.. عمر انيس؟ عمر انيس تجده في حفيظة النفوس التي سيقدمها اليك. الف شكر. الف شكر.. وهو الآن في طريقه إليك.

وسقط فك انيس دهشة وهو يسمع اباه يقول هذا الكلام.. ومع الدهشة الغامرة، لم يستطع ان يخفي فرحته بما سمع، فقد وقف مسرعا.. في اللحظة التي دخل فيها الموظّف.. وسمع اباه يقول:

اصدر شيكاً بقيمة السيارة الشفر الجديدة.. وسجّلها باسم انيس.. اقصد

الاستمارة وجميع الاجراءات، ولا تنس أيضا عقد التأمين عليها وعلى السائق والركاب.

وهنا لم يسع انيس إلاّ أن يندفع نحو أبيه يقبّل يده ورأسه، و يدعو له بطول العمر.. ولكن ما كاد يبتعد قليلا، وقبل ان يتجه نحو الباب، حتى رأى عيني ابيه تمتلآن بالدموع و وجهه يحتقن، ثم لم يملك إلاّ أن يحني رأسه على المكتب بين يديه، ويجهش بالبكاء.

وأحس الموظف بالحرج فخرج مسرعا، ووقف انيس ذاهلا، لايكاد يصدّق عينيه، اذ لم يسبق له أن رأى أباه يبكي قط.. ولم يدر ماذا يقول، ولا كيف يتصّرف، فظل واقفا ينتظر ما يمكن أن يسمعه من أبيه.

ورفع الأب رأسه، والتقط منديلا من الورق ومسح الدموع، ثم قال:

أنيس.. اعلم انك، ربّما لا تدرك لماذا ابكي.. ولكن ماذا استطيع أن أفعل غير هذا البكاء بعد أن يئسنا كلّنا ــ أنا وأمّك وعمّك والجميع ــ من أملنا في ان تدرس، وتتم مراحل الدراسة وتتخّرج من الجامعة كما اراد الله لكثيرين من زملائك، واغلبهم ابناء عوائل فقيرة، لم تكن تستطيع أن تفعل من اجلهم واحدا في الألف مما فعلته انا معك، لأحقق هذا الأمل.. لاشك هذه ارادة الله.. ولعلّ فيما اراده الخير لنا ولك. وتنهّد، وارسل زفرة حارة، ثم قال:

والمصيبة ياولدي، اني محتاج إليك لو انك تعلّمت.. لو انّك تعرف القليل من الحساب ومسك الدفاتر مثلا.. كان لابد ان تكون انت مدير المحل، وانت صاحبه ورجل البيت بعدي، ولكن.. ولكن هذه مشيئة الله، ولا اعتراض على حكمك يارب.. هيّا اذهب، إلى المرور، و بعد ان تأخذ الرخصة، استلم السيارة، فهي ملكك، و بذلك تصون شيئا من كرامتك، ومن سمعة الأسرة.. وكل واردها لك، تصرفّ فيه كما تشاء، وانا اعلم انك مستقيم، فلا أخشى عليك من هذه الناحية.. والعمل أيا كان، شريف، ومن يدري.. قد يكون في هذا الذي اراده الله لك، افضل مما كنا نرجوه، منذ كنت طفلا حتى اليوم.

وبكى انيس في هذه اللحظة.. ولا يدرى لماذا بكى فقد كان فرحه بكل ما تمّ ويكاد يجعله يقفز أو يرقص أو يفعل أي شيء غير البكاء.

بكى وعاد إلى أبيه، يقبّل يديه، وينحني على قدميه.. والهم كلمة واحدة قالها مختنق الصوت،: قال: (ادعي لي يابويا.. ادعي لي.. وسامحني).

ومارس عمله كسائق تكسي للسيارة التي يملكها، ونصحه من كان يركب معه من زملائه في أيام الطفولة، وقد اصبحوا موظفّين أو طلابا في السنة الأخيرة من الجامعة، ان يلتزم ابواب الفنادق الكبيرة، فنزلاؤها أغنياء، والأغلب أنهم يستأجرون السيارة يوما كاملا وربما أياما وأسابيع.. وكان ما نصحوه به مجديا، فسيارته جديدة وانيقة، وهو نفسه، نظيف الثياب والمظهر، وتعلّم من زملائه في المهنة كيف يرضي الزبون، بحيث لايعود من مشوار معه، بعد أن يفرغ من جولته، إلاّ وقد ارتبط بموعد لجولة اخرى بعد الظهر.

وبدأ موسم الامتحانات، واخذت الفنادق تخلو من نزلائها، فاتجه إلى الجامعة، يقف عند مدخلها، حيث يجد زبائنه من المنتسبين والمنتسبات، يفدون إلى الرياض، من مختلف مدن المملكة، لأداء الاختبار، وبذلك لم يجد فرقا كبيرا في الدخل المعتاد، اذ لابد للمنتسبات على الأخص من أن ينزلن مع آبائهن، أو محارمهن، بعض الفنادق، من الدرجة الثانية، ولكنّهن يدفعن بسخاء، ليضمنّ انتظارهن في الموعد المحدّد للذهاب والاياب.

وبعد مرور يومين أو ثلاثة، ارتبط مع رجل كهل، يأتي بابنته من المدينة، لأداء اختبارها في كلّية الآداب.. فاتفق معه على أن يظل في خدمته وفي الأوقات المقررة، كل يوم.

وأحس أنيس ان الرجل فقير، وأن ما يدفعه له أكثر مما يمكن أن يدفعه لسواه لو أنّه ارتفق أي سيارة في الشارع الذي يقع فيه الفندق الذي نزل فيه.. فأصّر على الاّ يأخذ اكثر مما يمكن أن يأخذه سواه.

وباستمراره في خدمة الرجل وابنته صباحا وبعد الظهر، أتيح له أن يلمح

الفتاة، وأن يسمع حديثها مع أبيها، بل أصبح الأب لايجد حرجا في أن يفتح له قلبه ببعض الأحاديث، كما لم يجد أنيس ما يمنع أن يتحدّث عن نفسه، وعن الأسباب التي جعلته سائق تكسي.. ثم عن والده التاجر المعروف..

وانتهت أيام الاختبار.. وتقرر أن يسافر الرجل وابنته عائدين إلى المدينة المنوّرة.. فوجد انيس نفسه تحدّثه، بما لم يكن يخطر له على بال قط.. وتساءل.. ما الذي يمنع أن انقلهما إلى المدينة.. بنفس الأجرة التي سيدفعانها للغير.. وعرض الفكرة على أمّه، فهي التي يحدّثها عن الكثير في كل ما يمر به اثناء عمله في النهار، لأنها الوحيدة التي تصغى إليه، والوحيدة التي ما تزال ترفع يديها بعد كل صلاة، ضارعة إلى الله، أن يسخّر له سبيلا إلى عمل افضل من هذا العمل الذي تسمع كل يوم ما يتعرّض له من اخطار.

وحين أوى إلى فراشه في تلك الليلة، لم يغمض له جفن، فقد وافقت امه على ان يذهب إلى المدينة مع الرجل وابنته، فليس امتع ولا افضل من أن يزور مسجد رسول الله، وان يرى البلد الذي رآه الكثيرون، ولم يتح له هو أن يراه قط.. ولكن لم يكن هذا وحده الذي ظل يشغل ذهنه طوال الليل.. وانما هو هذه الفتاة ابنة الرجل.. كانت صورتها لا تفارق ذهنه لحظة واحدة.. ولكن، كيف؟ كيف يمكن ان يفكّر في الزواج منها وهو سائق تكسي وهي في السنة الثانية من كلّية الآداب.. لقد جمع من عمله مبلغا كبيرا، ووالده لن يبخل عليه بأي مبلغ مهما كان، ولكن هي.. كيف يمكن أن ترضى بمثله.. سائق تكسي.. لا اكثر ولا أقل..

واغفى قبيل الفجر لحظات، ثم استيقظ، على صوت المؤذّن في المسجد المجاور، فأسرع يتوضأ و يدرك الصلاة مع الجماعة كما ظل يفعل مع والده كل يوم.. وقبل أن يجفّف ماء الوضوء، وجد نفسه يتساءل: ما الذي يمنع أن أفاتح أبي.. أن اقول له، اني أريد أن أتزوجها.

وفكّر الأب بعد الصلاة طويلا.. وحين بلغ باب المسجد، التفت إلى أنيس وقال.. دعنا نذهب إلى الرجل.. أين يسكن؟

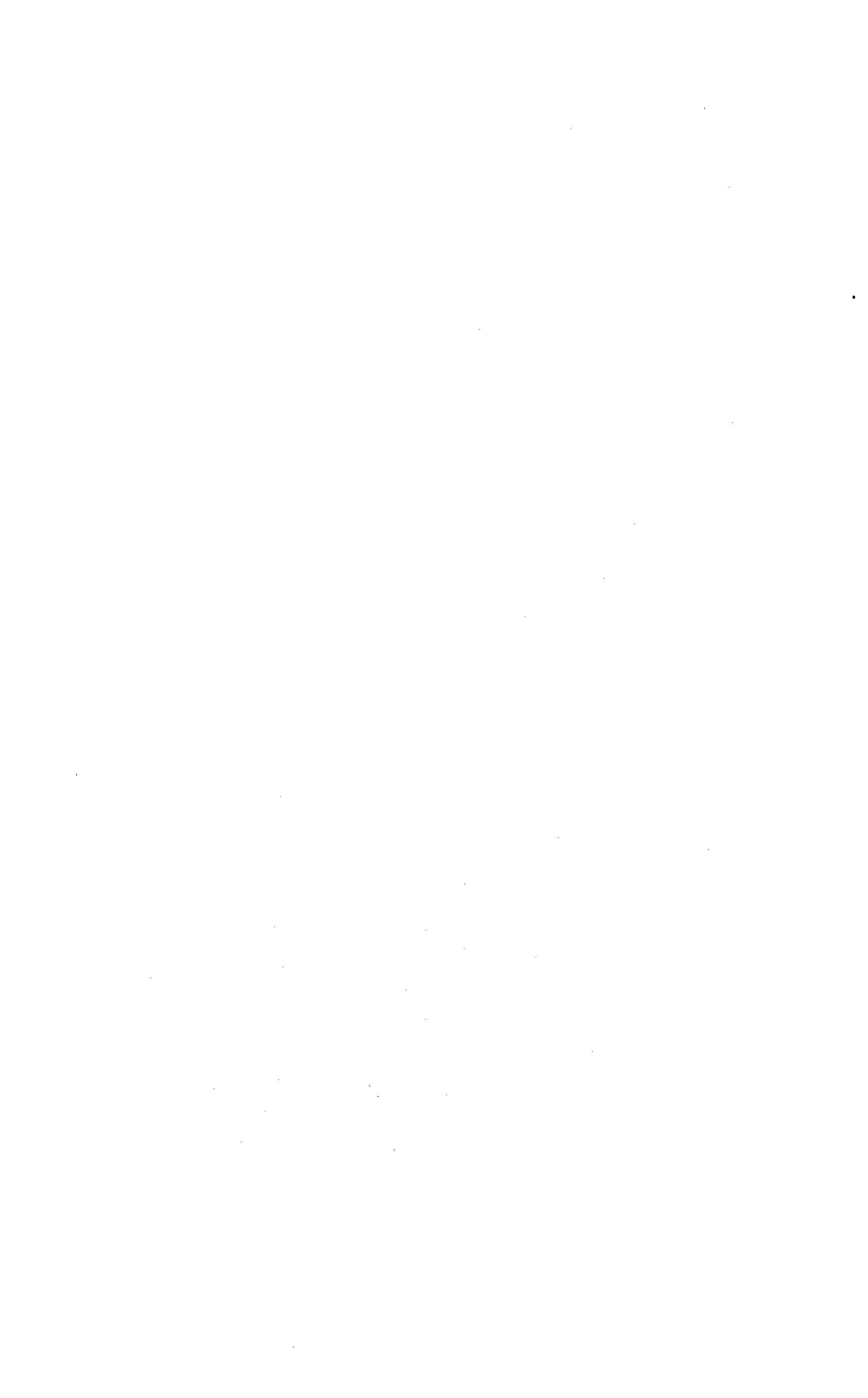
وفي ردهة الفندق جلس ابوه، مع الرجل، وابتعد انيس، حيث جلس على مقعد بالقرب من المدخل.. ولم يطل انتظاره، فقد رأى الرجل ينهض، وسمعه يقول:

انا يابو انيس ما عندي مانع ابدا.. ولكن لابد من موافقتها، وهذه الأمور قسمة ونصيب.. سأؤجّل السفر إلى أن ننتهي إلى قرار.

بعد يومين، حين كان يخرج مع ابيه من المسجد، التفت إليه، وقال: اذهب إلى الخطوط واحجز، لي ولأمّك واختك، وأخيك الصغير، ولعمّك أبو ثريا، ولثريا، الى المدينة.

وحين عاد انيس إلى الرياض مع زوجته ثريا بعد عشرة ايام، كان له مكتبه في محل ابيه، وكان الذين يدخلون عليه، في المكتب، يجدون بين يديه كتابا لتعليم مسك الدفاتر، وآلة كاتبة، وأمامه مدّرس، لايكاد ينهي حصّته، حتى يدخل مدّرس للغة الانجليزية.. كما يجدون أنيس، يجيب على الأسئلة، التي يوجهها إليه المدّرس، بشيء من الصعوبة، ولكن بكثير من الجد والاهتمام.





ومضة الحياة





ومضة الحياة

عرف جميع الذين يسكنون الزقاق الصغير أن جارهم الطيب العم (بكر) يبيت الليلة مع حفيده الرضيع، بعد أن شيّعوا معه ابنته الشابّة إلى مقرها الأخير، على اثر اصابتها بالحمى التى لازمتها أكثر من شهرين وكان قد سبقها إلى الموت زوجها الشاب، حيث قتل في حادث سيارة اجرة كان يرتزق من سياقتها لحساب الغير قبل أن يمضي على زواجه بابنة العم (بكر) عام واحد.

ولم تكن مشكلة العم بكر أن يعنى بالطفل الرضيع في الشهر الرابع من عمره، فقد الف ذلك وظل يمارسه طوال المدة التي قضتها ابنته طريحة الفراش فهو يعرف كيف يجهّز الرضاعة وكيف يضعها في فم الطفل و يظل ممسكا بها إلى أن يتم رضاعتها، بل يعرف اكثر من ذلك، العناية بنظافته وتغيير ما تستلزمه هذه النظافة من خرق وثياب، وحتى تلك الهنهنات اللطيفة التي يتفقّدها الطفل عند النوم كان العم بكر ما يزال يذكر شيئا منها، فلا يكاد يتم رضاعة الطفل، حتى يأخذ في ترديد هذه الهنهنات بصوته المتحشرج الضعيف.

ولكن مشكلة العم بكر الحقيقية، كانت فيما ينبغي له أن يعانيه عندما يضطر إلى الخروج إلى عمله في الصباح فهو بواب المدرسة المجاورة، وعمله يستلزم ان يكون عند باب المدرسة قبيل الساعة السابعة وان يقوم بكنس المدخل ورش احواض الزهر الصغيرة بالماء.. فكيف يوفّق بين اضطراره للبقاء بجانب الطفل و بين ضرورة مزاولته للعمل الذي يتقاضى منه مرتّبا ظل يزداد شهرا بعد شهر حتى بلغ مئتين وخمسة وسبعين ريالا، تصل إلى ثلاثمئة ريال بما يتكسّبه من بيع قطع الحلوى للأطفال.

وهو يعرف ان الجيران يحبّونه و يكرمونه، ولم يكونوا يبخلون بزيارة ابنته طوال ايام مرضها، ولكن منذ اليوم، لم يعد له ان يأمل في زيارة أحد، فالبيت خال من النساء، وليس من المألوف ان تدخل احدى الجارات بيتا ليس فيه نساء.

ونام الطفل على ذراعه، بعد ان امتص اللبن، وسمع المألوف من الهنهنات، واضطجع إلى جانبه العم بكر، وظل يلقي نظرة على الفراش الذي كانت تنام عليه ابنته، فامتلأت عيناه بالدموع، وعادت به ذاكرته إلى الوراء.. إلى الكثير من الأ يام والشهور والسنين، التي عاشها هكذا، على باب الله، فقد عرف الدنيا ولكنّه لم يعرف لنفسه ابا ولا امّا، فقد قال له خاله العجوز انهما قد ماتا وهو في الخامسة من عمره وتركاه للأقدار ولذلك الخال المسكينْ الذي كان يمتهن النجارة في نفس الزقاق، وحتى هذا الخال المسكين الذي كان يعوله وزوجته العقيم، اختطفته يد المنون ذات يوم قبل أن يبلغ هو العاشرة من عمره، ومنذ ذلك اليوم ظل يعيش كما يتيسّر، بأي عمل يمكن ان يؤجر عليه بالكفاف.. ولا يستطيع ان يذكر كم من الأعمال مارس طوال هذا العمر؟ ولكنّه يحمد الله مع ذلك، على انّه لم يتسوّل.. لم يمد يده مستجديا لقمة العيش.. كان لايتردد في أن يعمل خادما في البيوت، أو صبيا في الدكاكين أو عاملا في الحجر والطين، إلى أن استطاع ان يجمع مبلغا من المال دفعه مهرا لزوجة لايدري كيف رضي به اهلها، على ما يعرفون من رقة حاله، ولكنّه لاينسى كيف حدبوا عليه، واعانوه وفتحوا له دكانا صغيرة في رأس الزقاق، كانت تدر عليه ما يكفيه و يكفي زوجته التي يذكر انها كانت طيبة رضية الخلق لم يسمع منها قط كلمة تشير إلى فقره وسوء حاله.. وهو اليوم، وقد فارق ابنته إلى الأ بد، لايملك ان يتساءل ما الذي يجعل الموت يلاحق كل من كانت له بهم صلة؟ فقد ماتت تلك الزوجة الطيبة الرضيّة، تاركة له ابنته في الرابعة عشرة من عمرها، وحين تقدّم لخطوبتها ذلك الشاب سائق التاكسي، لم يتردد في تزويجها، ولكن ما اسرع ما مات هذا الزوج، ولحقت به ابنته، وتركت له هذا الطفل. الذي لايدري لمن يتركه في صبيحة الغد، ليكون عند باب المدرسة قبيل السابعة.

ولم ينم العم بكر ليلته تلك، فقد كان الطفل يستيقظ، و يصرخ، وكان عليه أن يجهز الرضاعة، وان يعنى بهذه المشاكل الصغيرة التي يذكر الآن ان ابنته

كانت تعنى بها رغم المرض فلا يدري عنها شيئا منذ ينام إلى ان يستيقظ مع أذان الفجر.

وأشرقت الشمس، وحان موعد ذهابه إلى عمله، وطالت حيرته، فلم ير افضل من ان يحمل الطفل على كتفه وان يضع رضّاعته في جيبه وان يذهب إلى المدرسة، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ورأى الأطفال العم بكر، وعلى كتفه الرضيع، فكان لابد ان يستوقفهم المنظر على كل حال، ولابد أيضا من الأسئلة الساذجة التي تتلاحق من هذا وذاك، وهم يتجمعون حوله، وكل منهم يريد ان يرى هذا الصغير الذي يحمله العم بكر، ثم اذا بكى، يجلس على الكرسي، و يلقمه الرضاعة، و يسمعه الهنهنات لينام، وان كان يعلم انّه لن ينام مع هذه الضجة المتوالية التي لن تهدأ إلى ان يسمع الأطفال الصافرة تدعوهم إلى دخول الفصول.

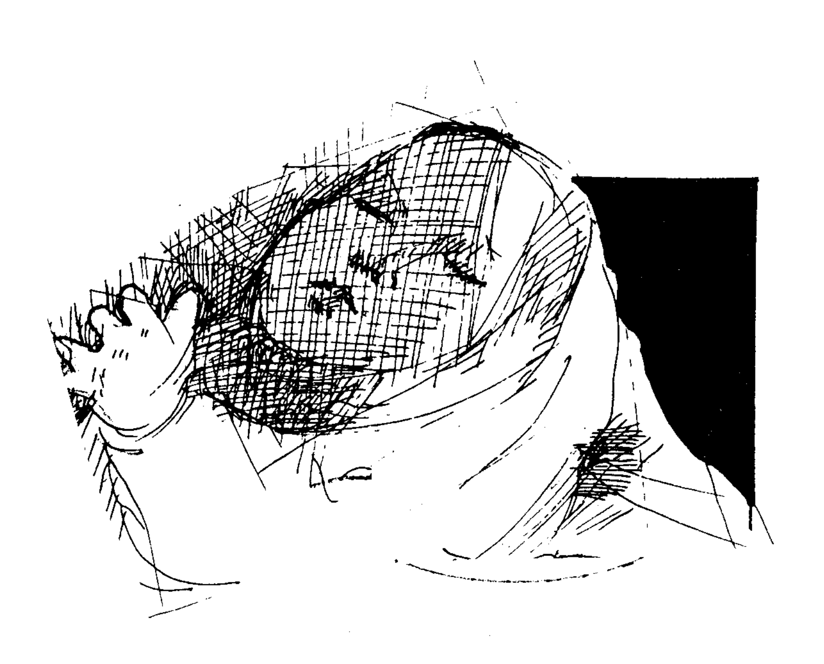
وانقضى يوم شقى خلاله العم بكر كما لم يشق طوال عمره في جميع الأعمال التي مارسها منذ كان في العاشرة،و بعد الظهر كان يجر قدميه والطفل على كتفه إلى البيت، وقد خارت قواه، بحيث كاد يقع هو والطفل على عتبة المنزل، لولا ما بذله من جهد ليتماسك إلى ان يصل الغرفة التي تركها في الصباح كما هي، أو كما كانت قبل وفاة ابنته منذ ثلا ثة أيام.

ولم يكد يستلقى على الفراش، و يضع الطفل إلى جانبه حتى سمع طرقا على الباب.. واستبعد ان يكون أحد قد عنى بأن يزوره في هذا الوقت.. ولكنّه سمع الطرق مرة ثانية وثالثة فلم يملك إلاّ أن ينهض ويجر قدميه إلى الباب.. وفتحه دون أن يسأل من الطارق.. فاذا به أمام صبية من بنات الجيران، تقول له (أبو يا وأمّي يسلّموا عليك و يقولوا هات البزرة عندنا، وتعال اتغدى معانا).

اغرورقت عيناه، وازدحم صدره بما لايوصف من انفعالات الحزن والأسى.. ولم يستطع ان يقول شيئا.. مشى امام الصبية، واشار لها إلى مكان الطفل.. واستطاع أن يقول لها خذيه وسألحق بك.. واسرعت الفتاة تحمل الرضيع، وتقبله، وتخرج به.

واستلقى العم بكر على الفراش متهالكا يتنفّس وكأنّه يرفع اثقالا جاثمة في اعماق صدره.. ومضى وقت طويل، وعادت الصبية تطرق الباب وتنادى العم بكر.. وتكرر نداءها دون أن يجيبها أحد.

وفي اليوم الثاني، كان جيران العم بكر يشيّعون جنازته إلى مقرّه الأخير.. وهم يرددون يرحمه الله فقد استراح.



ثمن علبة سجاير





ثمن علبة سجاير

في اللحظات التي كان صراخ ابنها في السنة الأولى من عمره يربكها ويمزّق اعصابها، ولا يكف مهما حملته وتنقّلت به من مكان إلى مكان أو احتضنته أو عالجت حشو فمه بالرضاعة، دخل زوجها مسرعا لاهثا زائغ العينين وهو يتساءل: (ماذا به..؟ قولي لي ماذا به؟) ثم يتناوله منها و يرفع بصره إليها وتتلاحق صرخات الطفل، حتى ليبدو وكأنّه اختنق أو اسلم انفاسه ثم يتلوّى و يتشنّج، و يلقي برأسه وجسمه إلى الخلف، بحيث يمكن ان يسقط اذا لم يدعمه براحة يده على ظهره.. وتلفّه حالة ارتباك وذعر فلا يجد ما يفعله أو يقوله غير أن يرفع عينيه الزائغتين و يردد: (ماذا به؟.. ماذا به؟.. قولي.. تكلّمي). ولم يكن لديها ما تقوله غير انها لا تدري.. وانها كانت إلى جانبه في الفراش، وكان مستغرقا في نوم عميق ثم فجأة استيقظ صارخا، وما يزال يصرخ و يتلوّى حتى الآن.

وظل الطفل يصرخ و يتلوّى، و يغيب صوته ونفسه لحظات، ثم يرتفع صراخه عنيفا مزعجا يملأ قلبيهما فزعا يكاد يشل حركتهما فلا يملكان غير ان يتناوله احدهما من الآخر، ويمشي به من غرفة النوم إلى الشرفة ثم منها إلى الغرفة مرة أخرى، دون جدوى.

وطال الموقف، وذهبت كل محاولة بذلاها جهدا ضائعا، بدا في النهاية انه سيظل ضائعا ما لم يفعلا شيئا اكثر من حمله والمشي به هنا وهناك.. وكان ما يُلِحّ عليها، وهي تعاني اعنف ما عرفت من الارتباك والتوتّر ان تقترح عليه أن يأخذه إلى الطبيب، ولكنّها لم تستطع ان تفضي إليه بشيء، اذ كانت تعلم منذ خرج في المساء، انّه لايملك ثمن علبة السجاير، وانّه لم يوفّق في الاقتراض من أحد اصدقائه، اذ كانوا كلهم اسوأ منه حالا، أو هذا على الأقل هو ما اعتذروا به إليه،

ولم تكن تجهل ان الطبيب في المستشفى العام سيعالج الطفل مجّانا، ولكن المشكلة هي في الوصول إلى المستشفى.. فهما يسكنان هذا المنزل الذي يبعد عن داخل البلدة بما لا يقل عن ثمانية كيلو مترات.. لابد من سيارة اجرة تكّلفه ريالين على الأقل، ولا سبيل لتأمين هذا المبلغ الذي بدا لهما ضخما على ضآلته، بعد منتصف الليل.

ورأته يخرج بالطفل من الغرفة، فلحقت به، ولكنّه لم يقف فقد فتح باب المنزل وخرج وهو يقول: ضعي عباءتك والحقي بي، ولحقت به واخذا يهبطان سلّم العمارة، إلى أن وقف عند باب احدى الشقق وضغط زر الجرس والطفل ما يزال يصرخ صراخه الذي ملأ العمارة كلّها.. ولم يكن يسعها ان تفكر فيما يهم به أو ينتويه، ولكنّها رجّحت انّه سيقترض من صاحب هذه الشقة بعض المال.. وفُتح الباب، وأطلّ منه وجهُ فتاة شابّة مالبثت حين رأته أن احتجبت، ثم قالت ان والدها غير موجود.. ثم اردفت: (أي خدمة؟) وقال في صوت متهالك لاهث..(شكرا.. فقد اردت أن ارجوه، أن يحملني مع الولد بسيارته إلى المستشفى.. لاندري ما الذي به ولكنّه لايكف عن الصراخ كما ترين).

والتزمت الفتاة الصمت لحظة ثم قالت: إذا كنت تجيد سياقة السيارة، فعندي مفتاحها.. لقد ذهب ابي إلى مكة في سيارة أحد اصدقائه.. ولم يكن صاحبنا في ظرف يسمح له ان يتعفّف، فقال: (الف شكر ياآنسة.. اجيد السياقة فعلا.. تكرّمي به.. الف.. الف شكر).

وتناولت زوجته المفتاح من الفتاة، وهي تكرر عبارات الشكر، واذ ناولته اياه، أخذت منه الطفل، واحتضنته وجفّفت العرق الذي كان يملأ وجهه بطرف عباءتها، ولحقت بزوجها إلى باب العمارة، وفي ذهنها سؤال لم تجرؤ ان تهمس به إليه وهو ما إذا كان يعرف السياقة حقا.. اذ لم يسبق لهما ان اقتنيا سيارة، ولم تسمع منه انّه اقتنى سيارة، أو تعلّم السياقة قبل زواجه منها.. وزالت مخاوفها حين انطلقت بهما السيارة وهو يقودها و يلتفت إليها وإلى الطفل مرددا: (خلاص.. دقائق، ونكون في المستشفى..) ثم يتنفس و ينفخ الزفير من صدره

ويمر بيده على جبهته يمسح العرق عن جبهته و يصلح شعره.. ثم يلتزم الصمت لحظة ليقول: (يارب.. يارب..).

وكان تشخيص الطبيب، ان الطفل ليس به ما يخشى عليه، والأرجح انّه يعاني من تلبّك المعدة، واسرع اليه بعلاج، جرّعه منه ملعقة.. ثم كتب وصفة قال انهما يستطيعان ان يأخذا ما فيها من علاج من صيدلية المستشفى.. ولم تمض دقائق، حتى كفّ الطفلُ عن الصراخ وتراخى ما كان يتوالى عليه من تشنج، ثم نام..

وقبل أن يصلا إلى السيارة، رأيا رجلين من رجال الشرطة يقفان بجانبها.. ولم يدر بخلدهما أن لوقوف الرجلين علاقة بهما، ولكن حين امتدت يده إلى الباب يفتحه لزوجته، تقدّم منه الشرطي وهو يقول:

انت مطلوب ياأخ!!

انا.. مطلوب!!

الست صاحب هذه السيارة؟

كلا.. لست صاحبها.. ولكني جئت بها مع زوجتي وابني المريض إلى المستشفى..

على أية حال.. لابد لك أن تصحبنا معها إلى المركز.

ولكنني.. لست.. صاحب السيارة.. وانا لابد أن أوصل زوجتي وابني إلى البيت..

لا مانع.. سنصحبك إلى منزلك، ثم تعود معنا إلى المركز..

وركب الشرطيان في المقعد الخلفي.. وانطلق بالسيارة إلى المنزل، وفي نفسه أن الأمر لايعدو أن يكون خطأ فصاحب السيارة، رجل معروف، وهو يقودها بنفسه دائما.. ولو انّه ارتكب حادث صدم مثلا، فليس هو بالرجل الذي يهرب.. ولا يحتمل ان يكون من الغفلة بحيث، لاينبه ابنته إلى ما وقع منه: اذا كان هناك شيء قد وقع فهي حين اعطته المفتاح كانت خالية الذهن من أي احتمال، من هذا النوع.

ورفض الشرطيان، أن يسمحا له بأن يوصل زوجته إلى شقتهما في الدور الثالث إلاّ أن يكون في خفارة احدهما وعلى أن لا يدخل معها، وانما يعود بمجرد أن يفتح الباب.. ولم يسعه إلاّ أن يوافق وكان لهما ما اصرّا عليه.

ولم يستطع ان يفهم من الضابط المناوب في المركز شيئا.. فقد سمع أحد الشرطيين، يقول له بعد أن زلزل الغرفة بتحيته: (وجدنا السيارة الصغيرة البيضاء رقم ٣٤٥٨ امام المستشفى العام.. وهذا الأخ هو الذي جاء ليقودها مع زوجته وطفله المريض.. يقول انّه ليس صاحب السيارة.. وها هو تحت الأمر).

وأصر الضابط على أن يحتجزه إلى الصباح، اذ لا يدري عن موضوع السيارة رقم ٣٤٥٨ شيئا.. يعرف ان البحث جار عنها، وعن سائقها أو صاحبها.. ولكن لايدري ما هي القضية بالضبط، فهو قد نقل إلى هذا المركز من تبوك، منذ اسبوع، ورئيس المركز يحتفظ بالأوراق في درج مكتبه والمكتب، مقفل في هذا الوقت من الليل.. إلى آخر ما هناك من أسباب تستلزم أن يحتجزه إلى الصباح، وإذ لم يستطع أن يقنع الضابط، بأنّه هو ايضا لايدري عن السيارة شيئا، فقد استسلم للواقع.. ومشى مع الجندي إلى غرفة الحجز.. وقضى ليلة لم يغمض له خلالها جفن، فقد دخلت زوجته وابنه نائم على كتفها، ولكن كيف له أن يعرف ما انتهى إليه الأمر بعد دخولها البيت.

وفي الصباح، قبيل الثامنة، وقبل أن يحضر رئيس المركز، وقد ظل ينتظره مع عدد من المحتجزين غيره على أحر من الجمر، سمع صوت جاره صاحب السيارة، يتحدّث في احتدام وهو يقول:

المهم الآن هو الرجل.. أبو الطفل.. ارجوك ياحضرة الضابط.. ارجوك.. حالة الطفل خطرة.. ودارت الدنيا به، فاندفع كالمجنون إلى غرفة الضابط.. وما كادت عينه تقع على جاره حتى سأله في لهفة..

ماذا؟ ماذا به..؟

ابنك، ياولدي، اخذناه إلى المستشفى.. لابد من اجراء عملية مصران أعور عاجلة..

ولايدري كيف وصل إلى المستشفى، حيث كانت زوجته في انتظاره.. وإذ لم ير الطفل وسألها عنه قالت باكية: اخذوه إلى غرفة العمليات..

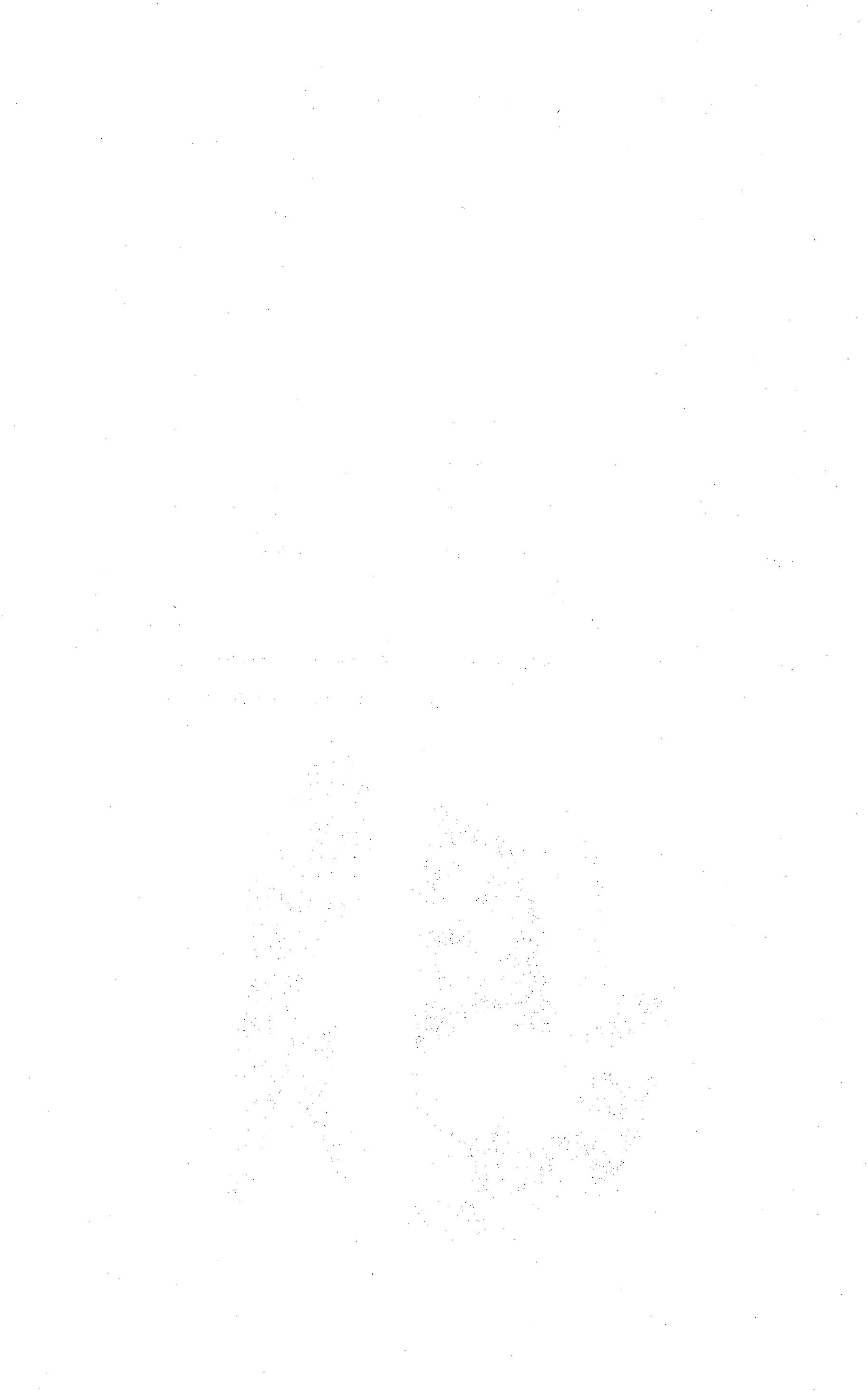
وعاد إلى منزله مع زوجته، بعد الساعة الثالثة، في سيارة صديق ممن شيّعوا جنازة الطفل إلى مقره الأخير.

وتوافد عليهما الجيران من سكان العمارة يُعزّون ويواسون، وكان بينهم صاحب السيارة الذي ظلّ يردد لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.

وفي المساء، كانت الفتاة الشّابة، التي اعطته مفتاح السيارة، تزور زوجته، وتأسف لما حدث، وتقول: أقسم أبي الاّ يعير السيارة لمخلوق.. فقد كان بحث الشرطة عنها، لأن ابن خالتي استعارها، منذ اسبوع وصدم أحد ركاب العجلات النارية، وهرب، وأعاد السيارة بعد أن نظّفها من آثار دماء المصاب، دون أن يقول لنا شيئا.

وتحسّس جيبه ــوهو يسمع حديث الفتاةــ وطفرت دمعة حارة من عينيه، فقد كان ما يزال لايملك ثمن علبة السجاير.





وليمة أبو يعقوب





وليمة أبو يعقوب

كانت الحارة كلّها تعرف العم (أبا يعقوب)، وهو من كبار مشايخ الجاوة، لايتأخّر عن موعده في السفر إلى جدة ومنها على الباخرة إلى جاوة، في النصف الآخر من شهر صفر من كل عام، كما كان لايتأخر عن موعده في العودة مع البواخر التي تصل في اوائل شهر رجب، ومعه ذلك العدد الكبير من مسلمي جاوة، يتوافد بعدهم عدد آخر مع كل باخرة، بحيث لايبقى بيت في الحارة، إلاّ وقد استأجر ابو يعقوب «المقعد» و«المجالس» الثلا ثة في كل منها، وكان ملاّك البيوت، أو مستأجروها، لا يفضّلون مستأجرا آخر من المشايخ والمطوّفين، لأنّه يدفع مقدّما اكثر من نصف الايجار ولا يكاد ينتهي الموسم حتى يكون قد دفع الباقي، فاذا حدث، ان ازداد عدد حجاجه عمّا كان يتوقّع، ــ وهو ما يحدث غالباــ فان اصحاب البيوت، لايترددون في الاستغناء عن الغرف العليا التي تسمّى (المبيتات) ومعها الأسطحة التي يسمّونها (الخوارج)، ينصب فيها العم أبو يعقوب الخيام، و ينتقل الملاّك، إلى البيوت البعيدة عن الحرم كتلك التي في جرول أو المعابدة أو الشهداء.

ولكن العم أبا يعقوب، في ذلك العام قبل الحرب العالمية الثانية، ظلّ يؤجّل موعد سفره، حتى لقد سافر الكثيرون من المشايخ، والمطوّفين، وهو ما يزال يلتزم مجلسه على الدكّة في الدهليز الكبير، فاذا مرّ به اصدقاؤه بعد صلاة المغرب أو العشاء، وجلسوا يتحدّثون إليه عن هذا الأمر أو ذاك من امور الحارة وأحوالها، وانتهوا إلى سؤاله عن موعد سفره كان يكتفي باجابة قصيرة، لا تزيد عن كلمتين هما (قدّام شويّه).. وعلى غير عادته كان يبدو عليه الضيق أو الذهول، حتى لقد يسمع حديث من يتحدّث إليه، ثم يظهر انّه لم يكن يعي شيئا مما يسمع.. كان دون شك، يفكّر في امر يستغرق كل وعيه واهتمامه، ولكن ليس بين جلسائه من يجرؤ على أن يسأله أو يصارحه بما أصبح يلاحظه عليه حتى الخدم.

ومع أن الحارة كلّها، لاتجهل ان (أبا يعقوب) لم ينجب ذكورا، وأن يعقوب، ليس اكثر من كنية لكل من يسمونه (يوسف) وان ذريته كلها اناث، مات منهن اكثر من اربع، واللائي يعين في البيت الكبير، خمس صغراهن قد تخطّت الخامسة والعشرين من العمر، ومع انه قد تخطّى الستين من عمره، فان احدا منهم لم يخطر له قط، ان مشكلة العم (أبي يعقوب) التي استغرقت كل اهتمامه في هذه الأ يام، أو في هذا العام، و بعد هذا العمر، انه لم ينجب ابنا، وقد أراد الله له ألا يرزق إلاّ الاناث، رغم انه قد تزوج أكثر من مرة، بل قد تزوّج في المرة الأخيرة سيدة ثيبا، ولدت للرجل الذي طلّقها ثلا ثة ابناء، فاذا بها تنجب بنتا، عاشت شهورا ثم اصيبت بالحصبة وماتت، وما كاد يعود من المعلاة بعد دفنها حتى طلّق امها، وقد احس بما يشبه اليقين، انها لو عاشرته زمنا مهما طال فانها لن تنجب إلا الاناث.

ولم يكن من عادته، أن يجلس إلى بناته أو أن يتحدّث اليهن في أي شأن من شؤونه.. كان لايكاد ينتهي من جلسته في الدهليز إلى ما بعد صلاة العشاء، حتى يصعد إلى السطح، يتناول فيه عشاءه الذي تقدمه احدى البنات، ثم تسكب الفنجان أو الفنجانين من الشاي، فاذا فرغ، ودخل الناموسية، تنسحب وهي تهمس. (تصبح على خير يابو يا) فيجيبها بما يشبه الهمس.. (تصبحين على خير) فاذا غابت عن ناظريه لتلحق باخواتها حيث ينمن في السطح العلوي، يظل هو مفتوح العينين، و يأخذ في التفكير، فيما سيؤول إليه حالهن بعد أن يموت، وهنّ نسوة، ليس لهن من يعولهن بعده.. اذ قضى الله، أن يكون هو الوحيد الذي عاش لأ بيه، فليس لهن أعمام، وذلك الخال الذي بلغ الثمانين من العمر، ماذا يستطيع أن يفعله، بل من يدري، فقد يموت هو أيضا في أي يوم، بعد ان اقعدته الشيخوخة، وتكاثرت عليه العلل، وأصبح يعجز حتى عن حضور صلاة الجمعة، رغم ان المنزل لايبعد عن الحرم إلاّ خطوات. ولا ينسى وهو يطيل التفكير في مصير بناته، انّ الله قد اغدق عليه الكثير من الرزق، وفي صندوقه الحديد مبلغ كبير من الجنيهات الذهبية، ويملك هذا البيت الكبير، إلى جانب عدد آخر من البيوت، في الجودرية، وفي شعب عامر، وهذا بالاضافة إلى أكثر من مئتي خيمة، وما يتبع هذه الخيام من اواني الأكل من النحاس، ومن الأ بسطة وأكداس من غالي السجاد الذي يؤثث به مساكن العدد الكبير من الحجاج الذين يستقبلهم كل عام.. ثم هناك تلك الذخيرة من عقود الماس واللؤلؤ، التي ورث

بعضها من أبيه، واشترى هو بعضها من الملايو وجاوة.. كل هذا يجعله يطمئن إلى أن البنات، سوف لن يحتجن إلى أحد، وهذا العدد الكبير من الحجاج، سوف لن ينقطع عن التوافد إليهن، ما دمن سيرثن اسمه، وهو يذكر وفاء هؤلاء الحجاج لذرّية من يموتون من المشايخ، حتى ولو كانوا اطفالا، أو لو كن اناثا، كما هو الحال معه.. ولكن.. مع ذلك فالمشكلة تظل دون حل، أو ليس لها من حل إلاّ أن يرزق ابنا، ذكرا، يحيي اسمه، فيجيء الحجاج باسم رجل لابد أن يكون اسمه يعقوب.. و ينتصف الليل وهو ما يزال يفكّر، ويجد نفسه يتساءل.. لم ياترى لم يتقدّم احد لخطبة أي بنت من بناته ؟ كبراهن اشرفت على الأربعين وصغراهن في الخامسة والعشرين،.. فلوانهن تزوّجن لهان الأمر.. لا بأس بأن يتبدد الارث وان يكون في النهاية من نصيب ابناء هؤلاء الذين يتزوجون البنات.. لاحيلة في الواقع.. ولكن حتى هذا لم يحدث طوال هذا العمر.. لم يخطر لأحد، حتى من ابناء اصدقائه من مشايخ الجاوة، ان يتقدم لخطبة احداهن فضلا عن الخمس.. و يستعرض وجوههن في خياله، و يدرك انهن لسن من ذوات الجمال والدل، والعجيب أن أي واحدة منهن لم تشبه امّها.. كانت امهّن جميلة.. جميلة جدا. ولكن هو.. كلهّن صورة طبق الأصل منه.. حتى الجدري الذي أصابه وترك آثاره الشرسة على وجهه، أصاب بعضهن، ومن لم تصب منهن به، لها هذا الضب المتطفّل على الملامح كلّها حتى ليكاد يلتهمها ثم هذه الأسنان.. اسنانه هو.. نافرة لاتختفي حتى ولو أطبق على شفتيه.. و يقتنع ان هذا هو السبب، في رواق الصمت الذي ضرب به الزمن عليهن، فلم يحدث قط أن نبس أي مخلوق بأنّه يتمنى القرب منه.

وهو يذكر أن الأمر لم يكن يشغله قط.. بل لم يحدث أن فكّر فيه كما يفكّر فيه هذا العام بالذات.. كان شغله الشاغل السفر إلى جاوة والملايو، والعودة بذلك العدد الكبير جدا من الحجاج.. وما عدا ذلك فلم يكن مما يخطر له ببال.. ولكن في هذه السنة.. بعد أن توفّي في منى صديقه ورفيق صباه و بعد أن شهد ما آل إليه أمر الأسرة بعد وفاته وظهور تلك الديون الطائلة التي استغرقت كل ما يملك بحيث لم يبق لها إلاّ البيت الذي يسكنه، فانّه قد عجز عن أن يخلي ذهنه من التفكير في المصير الذي ينتظره كما ينتظر كل حي.. ومصيبته هي انّه في الستين، وأب للبنات الخمس العانسات، واللائي تؤكد كل الملابسات انهن سوف يعشن، زمنا فاذا قضى الله أن يمتن واحدة بعد الأخرى، وذلك أمر

مفروغ منه بالطبع ، فكل المال مصيره إلى « بيت المال » .

وانقضى النصف الأول من شهر ربيع الثاني ، والعم ابويعقوب ، ما يزال يستقبل جلساءه في دكة الدهليز الكبير، بعد صلاة المغرب والعشاء ، وما يزال يجيب كل من يسأله عن موعد سفره بالجملة التي لم تتغير قط . . (قدام شويّه) وعندما انتهى هذا الشهر، لم يعد يسمع هذا السؤال من أحد ولم يعد هو يفكّر في السفر اذ قرر لأول مرة منذ اكثر من ربع قرن ، أن يستغني عن الرحلة المعتادة ، ولا يساوره شك في انّه سيستقبل عددا طيبا من الحجاج لأنّه من اولئك القلائل الذين تعددت رحلاتهم إلى جاوة بحيث لم تبق جزيرة من جزرها إلاّ وله فيها من يعرفونه و يذكرونه ، ولا يسألون حين يغادرون بواخرهم إلاّ عنه هو دون سواه .

ومع اول باخرة قدمت من جاوة في منتصف شهر جمادى الثانية ، استقبل اول مجموعة من حجاجه . . وكعادته في كل عام ، استأجر عددا من البيوت . . واستعد بما جرت العادة أن يستعد به من الصبيان والخدم والسقاة، وبمجيء هذا العدد من الحجاج استعاد العم ابو يعقوب بعض نشاطه ومرحه و بدا — حتى بالنسبة لبناته في البيت — كأنّه قد اجتاز تلك الأزمة التي لم يكن يعرف سببها أحد سواه .

و بعد أن عاد من المسجد ، في ذات يوم ، بعد الغروب ، وحين جلس كعادته على الدكّة في الدهليز الكبير، وقف امامه أحد الخدم يقول ان حاجا من الحجاج الذين قدموا البارحة ، يلتزم فراشه منذ وصوله لأنّه مريض ، وقد فهم منه انّه يحمل رسالة لابد ان يسلمّها للشيخ بنفسه . . وأضاف الخادم يقول : (ياعمّي . الحاج كبير في السن ، و باين عليه مرضه تقيل . . ماهو قادر يتكلّم . . لكن لمّا فهم من المترجم انك موجود ، شفت عيونه دمعّت . . و بعدين ما قدر يتكلم . . قعد يشهق و يبكي) .

وأسرع ابويعقوب ، يستأذن جلساءه ، ليذهب إلى هذا الحاج ، الذي لا يدري ماهي الرسالة التي يحملها ، ولماذا يبكي عندما عرف انّه موجود . . وضحك وهو يقول : (موجود والحمد لله) .

وكان الحاج يسكن في بيت مجاور . . حين دخل دهليزه العم ابويعقوب ، رأى عددا من الحجاج ، ما كادوا يرونه حتى وقفوا يرحبّون به وقال احدهم بلغته وهو يقترب منه

(اسرع .. لابد أن ترى «الداتو» قبل أن يموت) .

وكلمة داتو معناها لقب من القاب الشرف .. تشبه الأمير أو الباشا أو الدوق .. وفي اللحظات التي كان يصعد فيها العم ابويعقوب إلى الطابق الثاني من المنزل ، مر بذهنه شريط من الذكريات .. شريط طويل تلاحمت فيه صور الكثيرين ممّن يحملون هذا اللقب وقابلهم في سنغافورة و باتافيا وغيرها من بلدان الملايو .. واشرقت في ذهنه صورة واحد منهم بالذات ، قضى في ضيافته اكثر من عشرة أيام .. وما كان يذكر تلك الأ يام ، وصورة ذلك الداتو، حتى سرت في جسمه رعدة خفيفة .. بعيدة تلك الأ يام .. مضى عليها اكثر من ثلا ثين عاما .. كان في عز شبابه .. وكانت أول رحلة له وحده بعد وفاة أبيه .. وصفع جبهته بيده وتوقف عن الصعود ، وتلاحقت أنفاسه .. وسمعه الخادم الذي يرافقه يقول : (يجوز .. يجوز .. الداتو هو جدّها) ولم يفهم الخادم شيئا .. ولكن أبا يعقوب كان يواجه حقيقة .. لقد تزوّج حفيدة الداتو عبدالستار .. وعندما عاد إلى مكة ، كتب وارسل ورقة طلاقها ، وانتهى الأمر، .... انتهى تماما ، فهو لم يزر الداتو عبدالستار في أي رحلة تالية .. كان يحرص على الآ يزوره لأنه ..) .. واستأنف الصعود .. وكرر (يجوز .. يجوز أن يكون هذا هو الداتو عبدالستار) .

وحين دخل المجلس ، كان الرجل العجوز المريض مضجعا في صدر المجلس .. وعلى عينيه نظّارة سميكة ، بدا كأنّه في غيبوبة اذ لم يفتح عينيه ، إلاّ بعد أن جلس إلى جانبه ابو يعقوب .. فما كاد يتأمله .. حتى حاول الجلوس .. ورغم الغضون الكثيرة ، والنظارة السميكة ، استطاع ابويعقوب ، ان يهتف .. (داتو عبدالستار) .

واسرع الداتو بيديه المرتعشتين ، يخرج من جيب قميصه ، أوراقا ، انتقى منها غلافا ، أخرج منه صورة و ورقة مكتوبة وقال بلغته .. (هذا ابنك .. انظر .. وهذا خطاب منه) .

وشهق العم ابويعقوب ، هاتفا (ابني ..؟ تقول ابني ؟) .

ودمعت عينا الداتو عبدالستار وهو يقول .. (ابنك من زينب .. ورقة طلاقها وصلت قبل ان تضعه .. وعندما وضعته كتبنا إليك .. كتبنا إليك عدة مرات .. كنا نبعث رسائلنا مع الحجاج .. ولكنك لم تجب على أي رسالة .. والحمد لله .. ادخلناه المدرسة الانجليزية .. وهو الآن داتو .. موظف كبير في سنغافورة .) .

ولم يستطع العم ابو يعقوب ان يتبين ملامح ابنه.. كانت الدموع تملأ عينيه.. وكانت عاصفة الانفعال التي لفّته تدور به في دوّامة.. أحس معها ان كل ما حوله يدور.. و بعد ان مسح عينيه.. وادركه الخادم بكوب من الماء.. جعل يتأمّل الصورة.. انّه هو.. صورة طبق الأصل منه.. نفس الضب الناتىء.. ولكن الأسنان معتدلة فهوفي الصورة مبتسم عن اسنان منتظمة الصف، وفي عينيه دعة واطمئنان وسعادة.. وهذه الملابس التي يرتديها تؤكد انه فعلا شيء كبير.

واستجمع ابو يعقوب شتات نفسه، واسرع ينحني على يد الداتو عبدالستار يقبلها و يرجوه السماح، و يقول انّه لم يطلع على هذه الرسائل قط.. لم يقرأ أي رسالة من الداتو تخبره انه قد رزق من زينب ولدا اسمه يعقوب.. ولكن كان لا يستطيع ان ينكر بينه و بين نفسه انّه لم يكن يعنى بفتح مئات الرسائل التي تصله من حجّاجه، لأنها كلّها لا تقول أكثر من أنهم وصلوا بالسلامة، و يشكرون له حسن معاملته و يطلبون منه الدعاء لهم عند بيت الله الحرام.. ولا شك أن رسائل الداتو التي تخبره عن ابنه من زينب، كانت بين تلك الرسائل التي لم تفتح وجرى على عادة حرقها قبلَ أنْ يستأنف رحلته إلى هناك.

وحين عاد إلى منزله، كان يقفز السلالم إلى الطابق العلوي قفزا، ولأول مرة منذ زمن جد طويل يدخل المجلس الذي تجتمع فيه بناته الخمس بدلا من أن يصعد إلى المبيت والخارجة التي ينام فيها.. دخل عليهن واندفع يحتضن هذه وتلك والأخرى.. و يقبلهن.. و يهتف.. (اخوكم.. اخوكم.. يعقوب.. يعقوب يابانات..الداتو يعقوب..).

وطال ذهولهن.. واستبد بهن الرعب لحظات.. اذ ليس بعد ذلك الصمت والذهول والانصراف عن فكرة السفر إلاّ أن يكون قد اصيب بلوثة.. مصيبة.. ظلّت كل واحدة تنظر إلى الأخرى، وظل هو يقبلهن و يعانقهن، و يردد اخوكم..(اخوكم.. يعقوب.. الداتو يعقوب.).

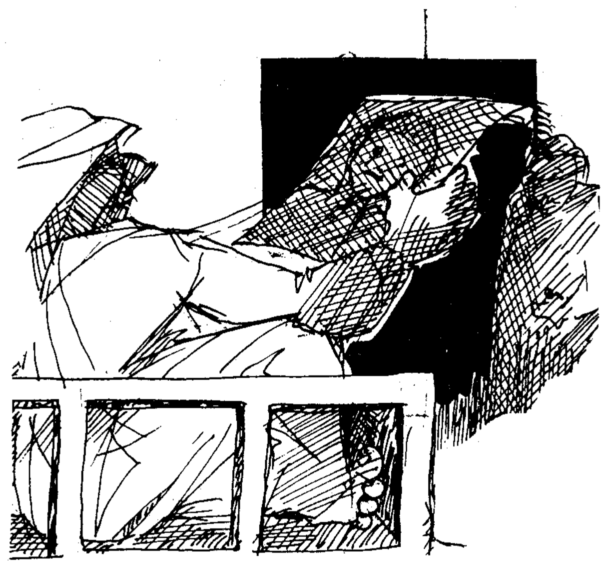
وفهمن اخيرا كل شيء.. واسرعت كل واحدة منهن تحمل إلى الخارجة التي ينام فيها فراشا وثيرا، وناموسية جديدة، وحشايا، ومساند، وشراب الماء البارد، والكاسات الكولندي المبخّرة بخشب «القفل» وما كدن يفرغن من اعداد الفراش والمكان، حتى

كان الخدم يدخلون، وعلى اكتافهم (شبرية) تحمل الداتوعبدالستار.

ولأ ول مرة أيضا منذ سنوات طو يلة.. منذ ماتت امهن.. سهر ابويعقوب مع بناته ومع الداتو عبدالستار، الذي بدا وكأنّه قد استعاد الكثيرمن نشاطه.. وقبل ان يودّعن ايذانا بانتهاء السهرة.. وضع الداتو يده في جيب قميصه، ونادى كل واحدة، بعد الأخرى، وحين تفتح يدها يضع فيها قطعة من الماس ومعها سبيكة صغيرة من الذهب.. و يردد (دعا.. دعا) و يفهمن انّه يطلب منهن الدعاء له.. و يضحك ابويعقوب ملء رئتيه وشدقيه.

وفي موعد وصول الباخرة التالية، كان ابويعقوب، ومجموعة من كبار اهل حارته واصدقائه، ينتظرها في الميناء ولم يطل انتظاره لرؤية يعقوب.. فقد كان واقفا في مقدّمة المتأهبين للنزول.. وكان يضحك.. و يشير بيديه محييا

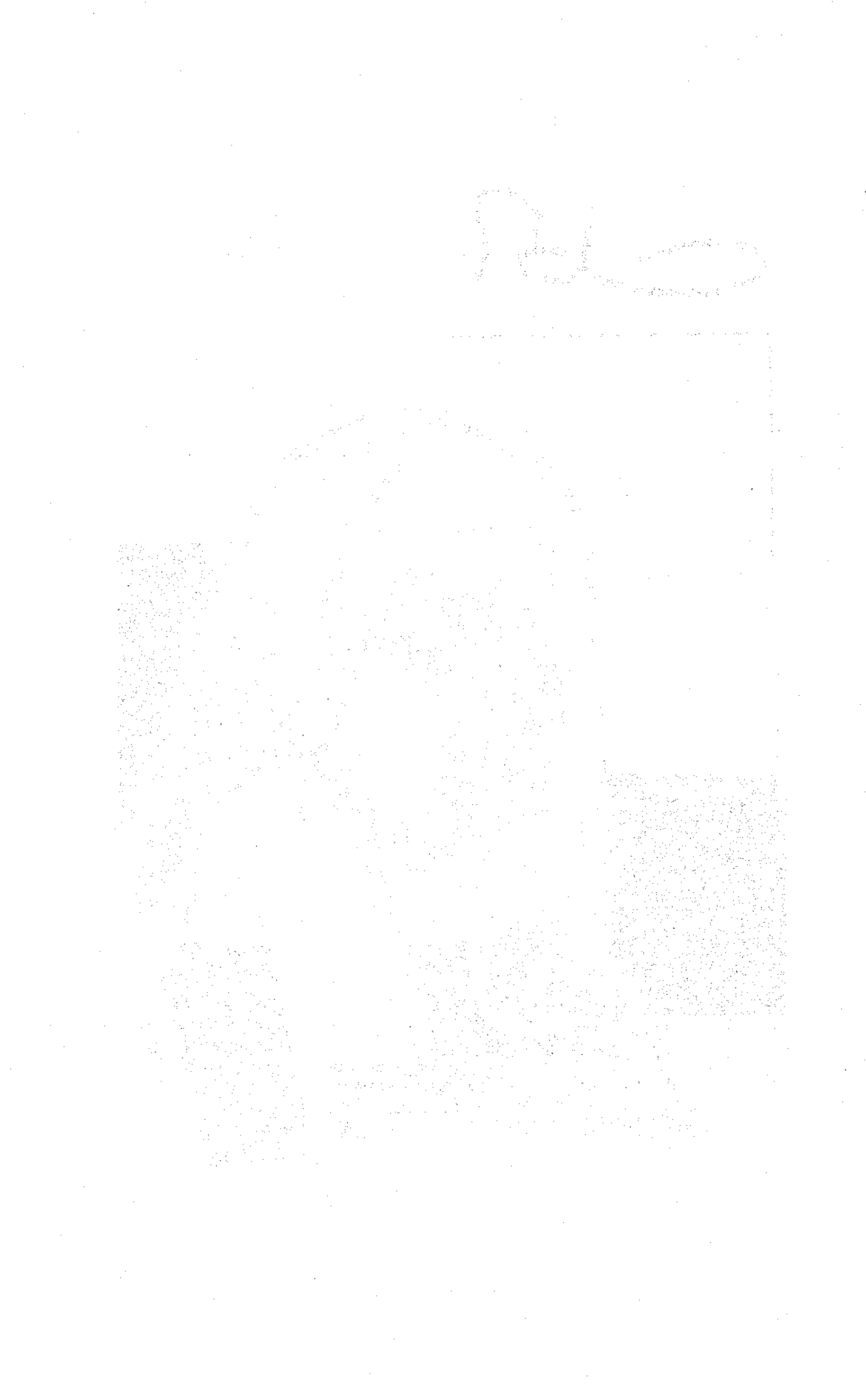
وشهدت الحارة في الليلة التالية أفخم وليمة عرفها الشيوخ والشباب على السواء وليمة ما يزال الذين شهدوها من الكبار يؤرخون بها ميلاد هذا أوذاك من الأحفاد.. إذ يقولون: ابراهيم ولد في سنة الوليمة التي أقامها أبويعقوب.. أو توفيق ولد في السنة التي جاء فيها يعقوب.

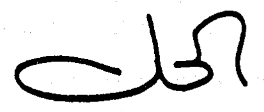




عمل







في اللحظات التي سمع فيها اسمه يذاع بين العشرة الأوائل من الناجحين في الشهادة التوجيهية ــ القسم العلمي ــ وحين كان قلبه يثب فرحا بتحقيق أمله في الابتعاث لدراسة الهندسة، كما ظل يحلم طوال سنوات المرحلة الثانوية، كانت عمّته (نفيسة) قد فرغت من صلاة العشاء.. وعلى غير عادتها، رآها تسرع في طيّ السجادة، دون ان تواصل ما اعتادت ان تهمس به من ادعيتها بعد كل صلاة.

والتفتت إليه لتقول، بصوت لا يجهل ما تعنيه نبرته من انفعال وأسى.. (معنى هذا يا رضوان انك ستسافر.. الف مبروك) وقبل ان يجيب بشيء اردفت تقول.. (وانت تريد ان تسافر إلى امريكا.. تلك البلاد البعيدة).. ولم تزد حرفا، اذ اختنق صوتها، وجالت في عينيها، وراء اهدابها الطويلة الوطفاء، دموع سرعان ما انهملت لتنحدر في بطء على وجنتين، ما يزال يتوهّج فيهما غدير من الق الشباب.

ولم يدر ماذا يقول.. اذ لم يعد يستطيع ان ينسى، منذ انتهى من المرحلة الاعدادية، وكلّما راوده حلم دراسة الهندسة في امريكا انّه مدين لهذه العمّة الشابة بكل شيء.. فهي المخلوق الوحيد الذي بقي له من اسرته واسرتها.. فقد كان ما يزال في السابعة من عمره، يوم اصطحبته لزيارة صديقة لها من لداتها، وحين عاد إلى البيت بعد الغروب، فوجئنا بالخادم الصغير يبكي و يولول و يقول:(عمّي ابو رضوان، وعمّتي، والطفلان في المستشفى.. وقع للسيارة التي يركبونها من مكة في طريق عودتهما إلى جدة حادث.. وقد اخبره بذلك أحد اصدقاء الأسرة قبيل الغروب).. فلمّا اسرع رضوان تسحبه عمته في يدها للاطمئنان عليهم، وجدا الكارثة في انتظارهما.. ماتوا كلّهم بعد اقل من ساعة من نقلهم إلى المستشفى.

وتتابعت فصول المأساة بعد هذا اليوم طوال اثنى عشر عاما . . ليست مأساته هو، وانما مأساة عمته الفتاة الشابة المدللة التي نشأت في احضان ابيه اذ سبق أن ماتت امّها بعد ولادتها ، ومات ابوها قبل ان تبلغ الخامسة من العمر، فحنا عليها اخوها واغدق عليها من حبّه وحنانه ما انساها مرارة اليتم ، وقد منّ الله عليه بالتوفيق في ممارسة عمل ابيه ، فعاش معها إلى ان تزوّج ام رضوان و بعد الزواج ايضا ، حياة مطمئنة وادعة ، فيها إلى جانب الحنان والحب الكثير من اليسر والرغد والرخاء .

لم يعد يستطيع ان ينسى انّها قد كرسّت كل حياتها لتر بيته ورعايته . . وحين تفتح صباها عن الجمال يبهر انظار من حولها من اصدقاء الأسرة القدامى ، و بدأت تتلاحق عليها عروض الزواج بالكثير من المغريات ، كانت تتخلّص من كل عرض وخطو بة بحجة رغبتها في اكمال دراستها ، فاذا خلت إلى لداتها وزميلا تها ، وهن يلمنها على تأبّيها الذي يبدو لهن سخيفا وغير معقول ، كانت تقول : (رضوان . . هذا الصغير، وديعة الانسان الذي كان ابي وامي ، بعد أن فقدت الأب والأم . . من الذي سيعنى به اذا تزوجت . . وكيف اطيق ان ارى الزوج يضيق به مهما بلغ من كرمه وانسانيته . . ثم اذا رزقت اطفالا ، كيف يمكن الاّ يفّرق الزوج بين ابنائه و بين رضوان . . كيف يهون عليّ ان يسمعه كلمة جارحة . . أو ربمّا يضر به اذا بدرت منه بادرة لا تستبعد وهو في سن لا بد ان تكثر فيها الأخطاء) .

ولم يكن رضوان في السنوات الأ ولى بعد الكارثة يعي ما تعانيه من متاعب وآلام . . لم يكن يدرك ان المال الذي تركه ابوه يذوب و يتلاشى يوما بعد يوم . . كان يراها حين يعود من المدرسة ذابلة شاحبة ، محمّرة الأجفان . . فيدرك انها كانت تبكي ، فيروعه ذلك ، و يسألها ، فما اسرع ان تضحك ، وتأخذه بين ذراعيها على صدرها ، وترفع خصلة الشعر المنسدلة على جبهته ، تمسح عنها قطرات العرق ، وهي تقول : (هو البصل الذي كنت اقشره . . هيّا اذهب واغسل وجهك و يديك ، فان الأكل جاهز وانت تكاد تموت جوعا دون شك) .

وإلى أن أتم المرحلة الاعدادية كانت هي ايضا تواصل دراستها إلى ان حصلت على التوجيهية من المنزل ، في نفس السنة التي نجح فيها هو في الكفاءة . . ولم يخطر له ، إلى ذلك اليوم ان يعرف شيئا عن المال الذي تنفقه عليه وعلى نفسها في كثير من اليسر ، فلم

تتغير الحال عمّا كانت عليه في حياة أبيه وأمه ، باستثناء انتقالها معه من الشقة الواسعة في العمارة الكبيرة الجديدة على الشارع العام . إلى شقة صغيرة مكوّنة من غرفتين وصالة ومنافعها في احد الشوارع الجانبية و بالقرب من مدرسته ، بحيث استغنى عن المواصلات ، كما استغنت هي عن الذهاب إلى المدرسة الخاصّة ، و بالدراسة من المنزل . . وحتى التليفزيون ، عندما دخل المملكة ، كانت هي من اوائل من اشتروه . . بل لقد اضافت إلى البيكاب الكبير الذي اشتراه اخوها قبل وفاته بعام ، مسجّلا ، واشرطة ، كما كانت تكتب له اسماء الجديد من الأغاني والمقطوعات الموسيقية الجديدة التي تسمع عنها من الصديقات والزميلات ، فيشتريها لها ، ولا يكاد يضعها بين يديها ، حتى تسرع إلى سماعها ، فاذا كانت من هذه المقطوعات الراقصة الصاخبة ، يستخفّها الطرب ، و يغلب على احزانها المرح ، فتنهض وهي تسحبه من يده ضاحكة ، ليثب معها وثباتها المرحة ، وقد تفتّحت اساريها عن ضحكة تتلصّص من غمّازتين ليس اجمل منهما في النهاية من تحدّر وجنتيها ، وتتهدّل خصلات من شعرها شلاّلات يطيب لها ان تتواثب على العنق حول الوجه ، وعلى الصدر الناهد الثائر ، فاذا ما استدارت رشيقة كعصفور ، فالشعر أفاع ظامئة ملهوفة تتزاحم لترتوى من صبيب دم تتفجّر به بلوزتها الحريرية الحمراء .

وخلال أيام العطلة المدرسية ، وقد نجحت هي في التوجيهية ، ونجح هو في الكفاءة ، بدأ يرى على قسماتها من الوجوم والقلق ما لم يسبق ان رأى مثله من قبل . . تعوّد أن يراها تبكي ، وكان تفسيره لبكائها انّه الحزن الذي يشتعل على اخيها الذي مات وتركهما معا تحت رحمة الأقدار . . ولكن هذا القلق والوجوم ، يبلغان حد الضيق باسئلته واحاديثه شيء جديد زاد من وقعه في نفسه انها ظلت تبذل جهدا طائلا لاخفائه دون جدوى . . ولم تمض أيام قلائل ، حتى رآها تذهب إلى خزانة ملابسها وتعود إليه وفي يدها ذلك العقد من اللؤلؤ الذي كثيرا ما رآها تحيط به جيدها وتقف امام المرآة لحظات تتأمله ، ثم تعيده إلى مكانه لتبتسم وهي تقول : (لم تخرج به امك ، رحمها الله إلا ثلاث مرات . . كان هدية أبيك في صبيحة ليلة زفافها . . وسوف يكون هديتك لعروسك ان شاء الله) .

وقفت امامه والعقد في يدها وقالت ، في كلمات تتعثّر وتكاد تتساقط : (هذا عقد امك يارضوان . . كل ما نملكه اليوم عشرة ريالات هي بقية قيمة سواري الذي باعه لي

زوج جارتنا منذ ثلا ثة شهور.. كنت اتمنّى الاّ امس حلي امك، ولكن لم يبق عندي ما ابيعه وهذا العقد اقل مصوغاتها ثمنا.. لعلّك تجد من ترهنه لديه بمبلغ طيب نسدد به اجرة الشقة التي تأخّرت في دفعها ثلا ثة أشهر.. وما يفيض بعد دفع اجرة البيت قد يكفينا إلى ان يصدر امر تعييني في احدى مدارس البنات.. فقد تقدّمت بالطلب و وعدوني خيرا منذ اكثر من شهر).

و يذكر انّه انطلق بالعقد ولم يعد الاّ بقيمته كما قدرّها عدد ممّن عرضه عليهم من الصاغة.. الف وستمئة وعشرون ريالا.. ولم يلق بالا إلى احتجاجها.. وحين كان يأوي إلى فراشه بعد أن فرغ من مذاكرة دروسه في تلك الليلة احسّ ــ ولأول مرةــ بما ظلّت تعانيه منذ نزلت بهما تلك الكارثة حتى اليوم.. ولم يملك ان يذرف دموعا بللّت الوسادة تحت رأسه، ليس حزنا على وفاة ابيه وامه، فتلك جروح أبرأها الزمن، وانما على هذه العمة الشابة التي ظلّت تواجه الحياة وحدها وتتحمل من اجله كل شقائها.. وتساءل.. ترى ما الذي كان يمنع ان تتزوج، وان تدخله دار الأيتام أو تبعث إلى احدى المدارس الداخلية في مصر أو لبنان.

وصدر أمر تعيينها مدرسة في احدى مدارس البنات التي افتتحتها الدولة في ذلك العام.. وخفّت بالراتب الذي تتقاضاه حدة الأزمة، وعاودها اشراقها ومرحها، وكثر عدد الزائرات من زميلاتها المدرّسات، ومع زياراتهن عادت عروض الزواج، ومعها الكثير من اللوم على رفضها غير المفهوم وهي الشابّة المتعلّمة الجميلة التي تستحق افضل زوج.. وكان يسمع ما يدور بينها و بين من يحاورنها في الموضوع.. و يسمعها تؤكد انها مخطوبة لا بن خالها الذي يعيش في الخارج وسيعود عما قريب.. وكان يعلم ان ابن الخال هذا مخلوق لا وجود له اطلاقا، ولكنّه العذر الذي يحسم و يبرر اصرارها على الرفض.. و يعلم بالطبع انه هو السبب في امتناعها عن الزواج، فلم يعد يجد حرجا في أن يقول لها: (لقد كبرت ياعمّتي، وليس من ضرر في أن اكمل دراستي في احدى المدارس الداخلية في الخارج.. وما بقي من حلي امي يكفيني للسنوات الثلاث الباقية للحصول على التوجيهية.) ولكن ما اشد ما تحتدم وتغتاظ وتنهي الموقف. قائلة: (لا اريد أن اتزوج.. هل فهمت؟).

والآن .. في هذه اللحظات وقد اصبح ابتعاثه ـــ ما دام اسمه بين العشرة الأوائل ـــ مسألة مفروغا منها . فهذا الرصيد الضخم من الشباب الذي اهدرته وما تزال تهدره في سبيله ، وذلك الروح الحنون الذي ظلّ يلفّه في اجواء الأمومة والأبوة منذ اللحظة التي نزلت فيها بهما تلك الكارثة حتى اليوم .. ثم شقاء الوحدة والحرمان يمزّق و ينهش مشاعر شبابها ومكنون قلبها من الآمال التي تذبل وتصفر وتتساقط لتسفيها الأيام ثم يلوكها ظلام اليأس والحسرة .. هذا الرصيد الذي ارتفع لها مع الأيام واصبح سورا شامخا من التزام و واجب لاسبيل إلى اجتيازه إلاّ بالسقوط في وحل من الخسّة والنذالة والضعة ونكران الجميل ، لن ينجيه من الاحساس بقذارته وعفنه ان يصبح ذلك المهندس الذي يحلم به ، أو حتى العالم العبقري من علماء العالم الأفذاذ .. هذا السور كيف يصح أن يكفّر ـــ حتى مجرّد تفكير ـــ ان يهدمه ليحقق امله المحموم .

ومرّ اسبوع ، استمر خلاله الصراع بينه و بينها ، ثم بينه و بين نفسه ، فهي تصر على ان يذهب إلى حيث يجد مستقبله ، وهو يصر على ان يظل إلى جانبها إلى الأبد .. واستيقظ ذات صباح وفي رأسه فكرة بدت له وكأنها هدية القدر .. فاسرع يطرق باب غرفتها ، وحين دخل رأى فناجين القهوة ، وسجّادة الصلاة ، كما رأى في عينيها بقايا السهر الطويل .. وتصنّع الجد وهو يطلب منها ان تسلّمه كل ما لديها من مصوغات امّه .. فهو سيبيعها كلّها وقد قرر ان يسافر ولا يستغني عن المزيد من المال ، فأمريكا بلد قالوا انّه كثير التكاليف ، والأسعار فيها نار .

وأخذ هذه المصوغات واستطاع أن يبيعها بمبلغ عاد به إليها ، وهو يقول : (وسأبيع كل موجودات الشقة أيضا) وقبل ان تستوعب شيئا وقد زلزلها هذا التغير المفاجيء في تصرّفه قال : (سنسافر معا ياعمّتي .. والتوجيهية التي في يدك تؤهلك للالتحاق بأي جامعة .) واذهلتها المفاجأة لحظات .. ثم استعادت رباطة جأشها وزحمها الضحك ، و بدت ، وكأن دفقة من الصبا قد سرت في وجهها .. وقالت : (ولكن هل يكفينا هذا المال انا وانت .. ؟) .. ولم يجب بشيء .. ومرّت ايام كان يغادر معها المملكة الى امريكا .

ومرّت سنوات ، تخرّجت هي قبله ببكالوريوس في الأدب الانجليزي ، واخذت

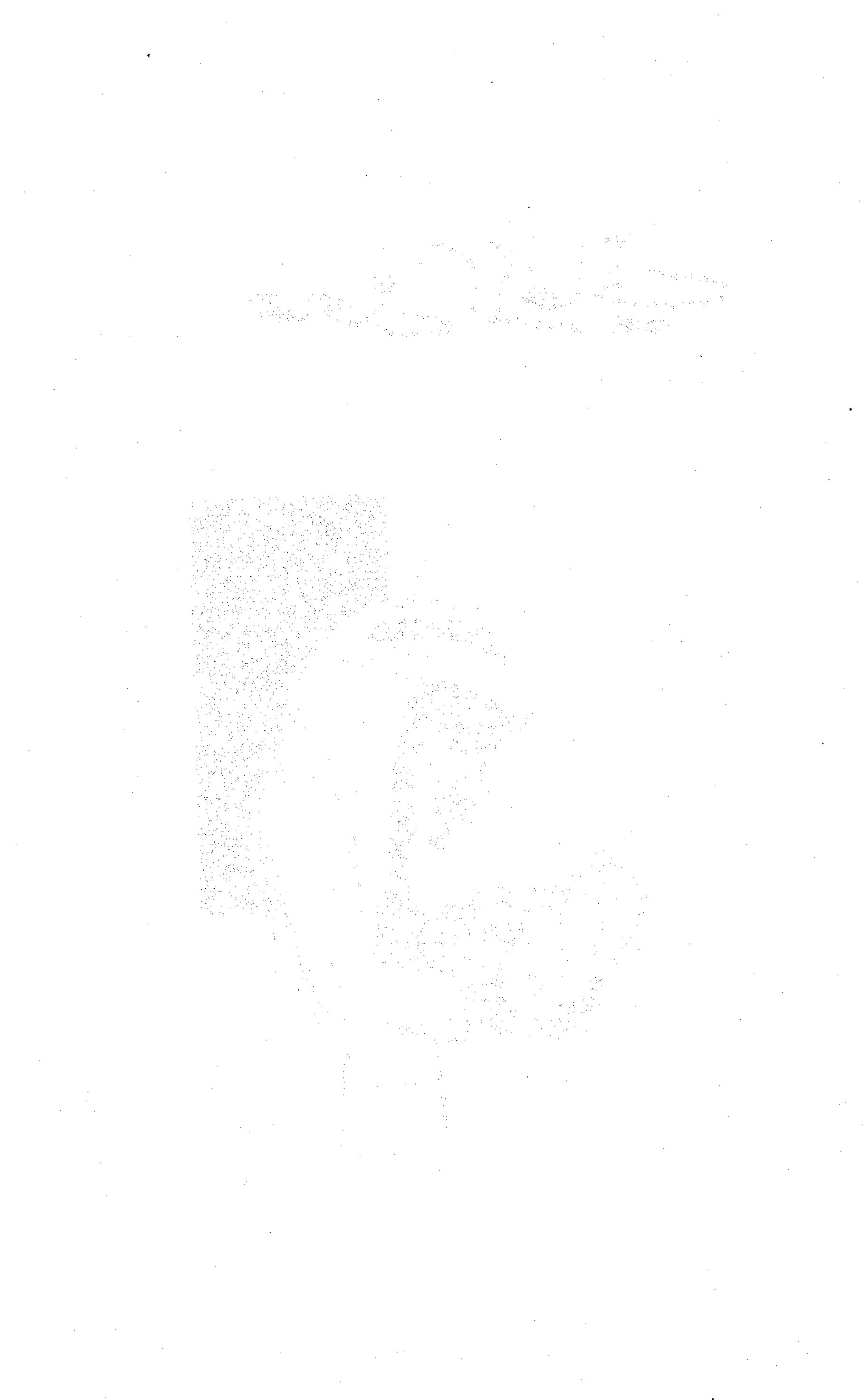
تتقدم للماجستير.. ولم تكن الحياة أصعب مما تصوّراها في البداية، ولكنّها لم تخل من متاعب، تغلّب هو عليها بالعمل في مختلف الأعمال التي رأى الكثيرين يمارسونها وساعدته هي بالعمل ايضا، في احدى المكتبات.

وحين عادا إلى المملكة كان يصحبهما زميل اتمّ دراسته.. وإذ لم يكن لهما منزل فقد نزلا احد الفنادق، ولم يطل انتظارهما اذ وجد كل منهما العمل في انتظارهما.. وفي اللحظات التي حمل اليها بشرى تعيينها معيدة في الجامعة.. قال لها: (زميلنا في الطائرة.. تقدّم لخطبتك.. فماذا ترين؟). ولأ ول مرة منذ زمن طو يل.. احسّا انهما يستقبلان الوجه المشرق من الحياة.



صَحن الأغاني





صحن كلأماني

يوم توفّى ابوه ، كان الهمس الذي يدور بين المعزّين ، وحتى بين الذين شيعوا الجثمان إلى مقره الأخير أن عبد الرووف قد أصبح منذ اليوم ، في عداد كبار الأثرياء ، لأنّه وحيد ابو يه ، وقد ترك الأب الراحل ثروة طائلة من المال والعقار والأراضي . . ثروة تضمن لعبد الرووف ، ان يحقّق الكثير من الأماني والآمال التي كان يتعذّر عليه تحقيقها في حياة أبيه ، الذي اشتهر رغم ثرائه الطائل ، بالشح والتقتير إلى حد جعل منه مثلا حيّا لكل ما عرف من قصص البخلاء واخبارهم ، واقرب الأمثلة التي تروى عن حرصه ، انّه طوال عمره كلّه ، وقد نيّف على السبعين عاما ، وشهد عصر الطائرات النفّاثة ، التي تنقله من المملكة إلى أي بقعة في العالم في بضع ساعات ، و بأجور لا ترهق من كان في مثل ثرائه لم يفكّر قط في أن يغادر جدة إلاّ إلى مكة للحج أو العمرة أو لصلاة الجمعة ، وفي النادر إلى الطائف أو المدينة المنوّرة ، وحتى حين يسافر هذه المسافات القصيرة ، كان يفضّل ان يستأجر سيّارة وان يركب مع من لا يعرفهم وان يترك سيّارته القديمة حيث هي في دكّان تحت العمارة الضخمة التي يسكن أحد مساكنها اتخذ منه مرأبا للسيارة وغرفة لنوم السائق ومعه الخادم الصغير إن وجد ، أو الكبير باجر لا يزيد ابدا عن مئة وخمسين ريالا في الشهر . . وحجّته في عدم ارتفاق سيّارته للأسفار انّها تتعرّض لأخطار لا يعلم بها الاّ الله وهذه الأخطار تكلّفه صيانة واصلاحا وذو بانا للاطارات . . وقد نجح بهذا الحرص في أن يحتفظ بسيارته الشيفروليه موديل ١٩٤٥ ، إلى عام ٦٥ ، جديدة ، وقو يّة ، كأنّها لم تستعمل قط . .

وكان عبد الرووف يعرف شح أبيه وتقتيره ، ولم يكن يتورّع أن يتحدّث عن هذا الشح إلى اصدقائه ، ولكنّه ظل مع ذلك حريصا من جانبه على ان يظل في خدمة أبيه ، وان يسلك السلوك الذي يرضيه ، وان يكتفي من الحياة بما يجود به عليه ابوه في حدود ضيّقة دون

شك ، ولكنّها افضل كثيرا ممّا كان يسمعه عن مدى هذا التقتير بالنسبة لأخو يه الذين توفيّا وتوفيّت امهما بعدهما ، فتزوج ابوه بعد الثامنة والأ ر بعين من عمره ، وانجبه من فتاة توخّى ان تكون كما يقال (مقطوعة من شجرة) وقد توفيّت هي أيضا عندما كان عبد الرووف ما يزال في العاشرة من عمره .

وما كاد يمضي الشهر على وفاة والده ، حتى بدأ عبد الرووف يدخل الحياة من اوسع ابوابها ، وكان اول هذه الأ بواب الزواج ، فتزوّج قبل ان ينتهي العام ، فتاة من اسرة كبيرة ، وغنية ، ولكنها محافظة على تقاليدها القديمة ومنها ، الاّ تتعلّم الفتاة أكثر من سور الصلاة ، والاّ تتهيأ لشيء سوى ان تكون زوجة صالحة وأمّا تعرف كيف تخدم زوجها واولادها . . ولم يستغرب احد من اصدقاء عبد الرووف اختياره لزوجة من اسرة محافظة ، اذ لم يكن هو اكثر منها حظا من التعليم . . لم يكن يحمل سوى الشهادة الابتدائية ، ولم يصل اليها الاّ بعد الرسوب في كل سنة من سنواتها الست ، بحيث كان قد بلغ السابعة عشرة يوم قرأ في الجريدة اسمه بين الناجحين . . ولكن ما ظلّ يثير الدهشة ، قبل الزواج و بعده ، أنّه لم يعد يعرف حدا للاسراف والبذخ ، مع جهل بأساليب الترف التي يمكن ان توفّر له اقصى حد من الحياة الناعمة الرغدة ، و بتكاليف اقل كثيرا من هذه التي يدفعها بسخاء على حياة متخمة بألوان من التبذير لا يشك من يسمع عنها ان عبدالرووف ليس اكثر من طفل كبير، وصلت يده إلى ثروة يبدّدها فيما يشبه عبث الأطفال . . ومن ذلك ، على سبيل المثال ، انّه كان يشتري السيارة الفارهة من احدث طراز ومن اغلى الأنواع ، وإلى جانبها سيارة جيب ، وسيارة نقل ، بل لقد كان مما جعل الكثيرين يستغرقون في الضحك منه ، انّه اشترى حافلة تتسع لأكثر من ار بعين راكبا وكل هذا دون أن يكون لديه من الأعمال أو العمال ما يحتاج إلى اكثر من السيارة التي يركبها هو وزوجته واخواتها او بعض اهلها ، اذ لم يكن لديه سواهم من الأقرباء ، ومع ان هذه السيارات لو بقيت ، يمكن ان تعتبر مالا محفوظا قد يخسر نسبة من قيمته ، ولكنه لا يعدم مردودا من اصل الثمن الذي اشتريت به ، فان صاحبنا ، كان لا يحتفظ بالسيارة الفارهة أو الحافلة الكبيرة اكثر من شهرين أو ثلاثة شهور، تذهب بعدها هدية لمن يطلبها من الأصدقاء الذين كثروا حوله بطبيعة الحياة التي يعيشها او من الأصهار الذين اعتادوا كلّما اشترى سيارة جديدة ، ان يتوقّعوا اهداءها إلى أحدهم بعد فترة من الزمن لن تطول

ومع ان الثروة التي تركها له ابوه كانت تمكّنه ان يمارس التجارة أو المقاولات ، وان ينمّي مداركه وعلاقاته بالناس على مستويات ضخمة كما حدث لكثيرين ، ممّن غامروا ونجحوا ، واستطاعوا أن يصلوا إلى ارفع المستويات رغم انهم بدأوا من الصفر، فان عبد الرؤوف لم يفكّر قط في شيء من هذا القبيل ، بل لم يفكّر حتى في ان يقدّر قيمة للثروة من العقار والأراضي ، بل لم يخطر له قط أن يستشير صديقا أو صهرا ، فيما يدفع له ثمنا لقطعة من الأرض .. كان لايبالي ان يبيع ما يمكن ان يساوي مئة الف أو مليون ، بأي مبلغ يدفعه الزبون .

والعجيب ان اصهاره اذ كانوا يرون تصرفاته لم يحاولوا قط أن ينصحوه ، ولم تكن زوجته من الادراك والوعي إلى الحد الذي ترى معه المصير الذي سوف ينتهي إليه هذا الذي لايمكن ان يسمّى الآ جنونا يستحق من اجله الحجر عليه .. وقد انجب من هذه الزوجة عددا من الأطفال ، بين ذكور واناث ، عاش بعضهم ومات آخرون ، وحين بلغ هو الخامسة والثلاثين من العمر، كان الذين عاشوا من اطفاله ثلاثة ابناء و بنتين يذهبون إلى المدارس ، كما يذهب جميع الأطفال في المملكة ، ولكن كان بعيدا عن ادراك الأم أو الأب ، أنّ ذهاب الأبناء والبنات إلى المدارس ، يعني بناء مستقبل او الاستعداد لحياة افضل .. وانما كل ما في الأمر انّه ما دام ابناء و بنات الناس جميعا يذهبون إلى المدارس ، فلابد لأبناء و بنات عبد الرووف ان يذهبوا هم أيضا إلى المدارس .. ومع ذلك فقد استطاع اثنان من الأبناء ان يكملوا الاعدادية ، واستطاع الأصغر ان يكمل المرحلة الابتدائية في الثانية عشرة من عمره دون ان يرسب في أي سنة .. أما البنتان فقد كانت الكبرى منهما في المرحلة الابتدائية ، والصغرى وهي — حتى ذلك الحين — آخر العنقود ، فقد كانت ما تزال في مرحلة الروضة وهي في السابعة من عمرها .

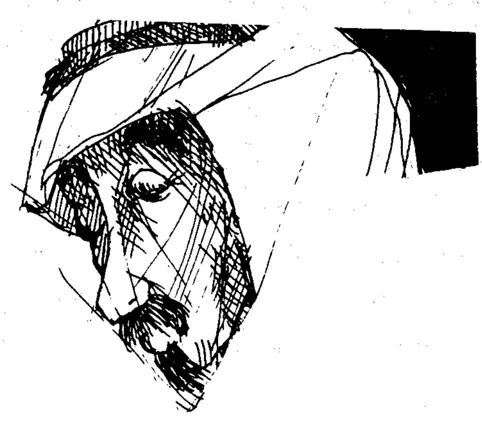
ولم تمض سنوات قلائل ، حتى فتح عبدالرؤوف عينيه على انّه يبيع آخر ما يملك من الأراضي ، وكان احد الموظفين في دائرة كاتب عدل ، هو الذي نبهه إلى هذه الحقيقة ، حين قال له : (حتى هذه الجوهرة — وهي آخر ما تملك تبيعها .. ماذا سوف يبقى لأولادك و بناتك ؟) واستلم المبلغ الكبير الذي باع به الأرض ، وأودعه البنك ، ولأول مرة منذ وفاة ابيه ، بدأ يسأل نفسه كم من الوف الريالات انفقها منذ بدأ يبيع هذه الأراضي والأملاك .. ووجد نفسه يجمع الحجج ، وصكوك البيع ، ويحصي ما استلم وما انفق ،

وحين انتهى قبيل الغروب ، وواجه ذلك الرقم الضخم ، سقط من يده القلم ، واحس بدوار، لم يستطع معه أن ينهض من مكانه .

وعرف الأصدقاء والأصهار، ان عبد الروؤف قد اصيب بلوثة و وسواس ، فهو لا يغادر البيت ، ولا يقابل احدا من المترددين على المنزل للاطمئنان عليه . . وكان لابد أن يسألوا الأ بناء أو الزوجة عن حقيقة حاله ، فيسمعون ، أنه بخير . . صحته جيدة . . يأكل و يشرب ، و ينام ، ولكنه يلتزم الصمت ، و يندران يفوه بكلمة واحدة مهما علا ضجيج الصغار من حوله . . كل ما يفعله ، وطوال أوقات صحوه ليلا أو نهارا هو أن يطيل النظر لفترة قد تمتد ساعات ، في صحن ابيض ، يحرص على تنظيفه عدة مرات في اليوم . . يغسله بالماء والصابون ، ثم يختار له منشفة نظيفة ، يجففه بها ، ليضعه تحت عينيه ، فاذا ذهب إلى فراشه لينام ، لابد ان يصطحبه معه و يظل ممسكا به بيديه كما لو كان يمسك كتابا وهو مضطجع . .

قالت زوجته : انها سمعته مرة واحدة فقط يقول لها فيما يشبه الهمس : (هل سمعت ما يقولونه هنا .) واشار إلى الصحن ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة ذابلة : (لقد انتهوا الآن من بناء العمارة الخامسة في الشارع الجديد . . وسينتهون من السابعة بعد اقل من شهر) .

وقال اخو زوجته لمن سأله عنه ذات مرة : (ما دام لايؤذي احدا . . وصحته جيدة ، فلا داعي للقلق . . وقد طرح الله في ابنه البركة ، فهو يدير اعمال المقاولات التي بدأها ، وخطواته تبشر بنجاح كبير) . ثم ضحك وهو يقول : (ربّما كان هذا هو ما يراه ابوه في صحن الأحلام)



الكلمة القاتلة





الكلمة القاتلة

كانت سامية من اوائل الفتيات اللائي اتاحت لهن ظروف اسرهن أن يتعلّمن في احد الأقطار العربية الشقيقة، بحيث كانت تحمل مؤهلا جامعيا عاليا، قبل ان تشهد المملكة هذه الوثبة الكبرى في تعليم الفتاة.. ومع ان التخصّص في علم النفس لم يكن من المؤهلات التي تحرص أي فتاة في ذلك العهد على التفرغ له، فانّ سامية، حين عادت إلى المملكة منذ اكثر من خمسة عشر عاما، كانت تحمل درجة الماجستير في علم النفس.. فكان هذا التخصّص مثار دهشة كل صديقاتها وكل سيدة من سيدات الأسرة، اذ لم تكن بينهن من يزيد تصورها لعلم كهذا عن انّه شيء أو نوع من المعرفة بطرق سمعن انها تمكّن العارف بها من تحضير الأرواح، وحل الطلاسم والألغاز، واكتشاف المجاهيل، وعلى الأخص منها تلك السرقات التي يظل مقترفها مجهولا لانعدام الآثار والأدلة ثم منها ايضا، كتابة (الأحجبة) و(الأحراز).

ولم يكن يدهش سامية أن تتقدّم اليها احدى زائرات اسرتها، لتهمس في اذنها بمشكلة من مشاكلها الخاصة بينها و بين زوجها الذي اخذ يهجرها منذ ولد لها آخر من انجبت من البنين.. وتطلب منها ان تضرب لها (تخت الرمل) لترى من هي تلك التي شغل بها عنها.. وتضحك سامية حتى لتدمع عيناها، ولكن السيدة، لا تأخذ من الضحكة والاستغراق فيها معنى السخرية أو الاستهجان، وانما هي ضحكة الاستبشار بحل المشكلة، والقدرة على تزو يدها بما يعيد اليها اهتمام زوجها بها وحبّه لها، فتميل إلى اذ نها وتقول لها انها تحمل اليها مئتي ريال مقدما للأتعاب، وبمجرّد نجاح علاجها ستدفع لها ما يكمل خمسمئة ريال.

وعلى ضوء هذه التجارب التي تكررت خلال الشهور الستة الأولى من حياتها مع اسرتها، ادركت سامية أن أي تفكير في افتتاح عيادة للعلاج النفسي، يمكن ان تدر عليها

ارباحا طائلة اذا سايرت هذا الوهم الشائع في اذهان كل من يسمع عن تخصصها، ولكنّها لن تكون اخصائية في علم النفس أو الطب النفسي كما هوواقعها، وانما ستكون اخصائية في الشعوذة والدجل واستغفال الناس واستغلال رواسب الخرافات التي ظل يعيشها الناس قرونا من الزمان.

ولذلك فقد استبعدت نهائيا التفكير في افتتاح عيادة الطب النفسي، والتفتت إلى مألوف حياة المرأة في ذلك العهد، وهوقضاء الأيام والليالي، في حياة لاهية تافهة، في انتظار من يتقدّم لخطبتها.. في انتظار الزوج الذي جرت العادة ان تنشق عنه هذه الأيام والليالي، كما تنشق الأرض عن كنز أو عن ينبوع من الماء، أو عن السنة من لهب ودخان.

ولم يطل انتظارها، اذ تقدّم الى ابيها احد الشباب الذين عادوا من امريكا ببكالوريوس الطب.. ومع ان الأب كان على جانب من سعة الأفق إلى ما يتمتّع به من يسر ورخاء عيش، فلم يكن لديه ما يمنع ان ترى سامية من تقدّم لخطبتها، وان يرى الشاب خطيبته قبل ان يوافق اويرفض، إلاّ أنّه ظل يتردد في قبول خطبة الشاب من حيث المبدأ، لأنّه يعرف ان أباه كان يمتهن غسل الثياب وكيّها، ولم يترك المهنة الاّ عندما انتشرت في البلاد مؤسسات التنظيف بالآلات والأجهزة الحديثة، فافتتح لنفسه محلاّ لبيع الأحذية بدأ صغيرا ثم أخذ يكبر و يتّسع و يتخصص في استيراد ما يصنع منها في المانيا وايطاليا وفرنسا، مما عاد عليه بالكثير من الرواج، والطائل من الثراء، ومع ذلك فان الكثيرين ممّن يعرفون المهنة التي كان يرتزق منها منذ اكثر من ربع قرن، لم يكونوا يذكرون اسمه الاّ و يردفونه بلقب (الغسّال).

وتكتّم الأب خطبة الشاب، وفضّل الاّ يفاتح ابنته بشيء عنه.. ولكنّ امّها سمعت من معارفها وصديقاتها عن الخطيب، وانه (دكتور في الطب) فتريّثت تنتظر ان تسمع من زوجها شيئا، ولكن طال انتظارها، وخالجها احساس بالقلق، فهي كجميع الأمّهات، لايسرّها شيء كما يسرّها ان ترى فرح ابنتها، خصوصا وان الفتاة قد اشرفت على نهاية العقد الثالث من عمرها.. وما دام الشاب (دكتورا) في الطب، وهوابن التاجر الشهير المعروف، فما الذي يمنع الأب ان يوافق، وان ينهي الموضوع وتنتهي هي من هذا القلق

على مصير ابنتها الكبرى ، لينفتح الباب إلى بنتيها الأخريين ، واحداهما في العشرين ، والأخرى في الرابعة والعشرين .

وضحكت الأم عندما سمعت زوجها يتحدّث عن مهنة والد الخطيب ، وكان لها منطقها المقنع اذ ما علاقة مهنة الأب أيا كانت ، بالشاب الذي أصبح طبيبا يتحدّث الناس عن براعته ونجاحه واستقامته وخلقه . . واردفت تقول : (يابوسامية ، على فكرة . . انت لك لقب لم افكّر ابدا في أن له علاقة بشخصك . . اليس لقبك « سحاحيري » ؟) وضحك هو أيضا ، اذ كثيرا ما خطر له أن هذا اللقب غريب فعلا . . وهو لا شك دليل على أن جدّه ، ان لم يكن أبوه ، كان صانعا للسحاحير، وهي جمع سحّارة . . والسحّارة نوع من الصناديق الخشبية ، ما يزال بعضهم يصنعها في مكة ، وقبل ان يقول لها شيئا عن الفرق بين صانع السحّارة أو السحاحير، و بين غسال الملابس ، قالت هي : (وما الفرق بين الاثنين ؟ ليس صانع السحّارة اشرف أو أكبر مقاما من الخيّاط وليس الخياط انبل من الغسّال . . كلّهم يمارسون عملا يختص بالثياب والملابس)

وكان رأى سامية عندما فاتحها ابوها فيمن تقدم لخطبتها ، وفي المهنة التي كان يرتزق منها والده قبل ان يصبح تاجرا كبيرا من تجار الأحذية ، انها تفضّل الزواج من شاب مثله ، عاش حياة متطوّرة ، وتلقى ثقافة علمية عالية على أن تتزوّج واحدا من اولئك الأقرباء وابناء العم الذين لايمتازون بشيء سوى انهم من ابناء الجاه والثراء .

وحين رأت سامية خطيبها لأول مرة ، أذهلها أنّه ضئيل هزيل ضامر وقصير القامة ، يضع على عينيه نظّارة سميكة وهو ما يزال في مثل سنّها ، ومع انّه حين أخذ يتحدّث استطاع أن يزيح الكثير من ضمور شخصيته ومظهره ، الاّ أن ما لفت نظرها فيه انّه قليل العناية بمظهره ونظافة ثيابه ، حتى لقد يشك من يراه في انّه هو الدكتور الذي يتحدثون عن براعته ونجاحه . . فقد كان إلى مظهر العامل في ورشة للحدادة اقرب منه إلى مظهر الطبيب . . واستطاعت ان تعللّ ذلك بأنّه عازب ، وليست وراءه امرأة تلاحقه بالعناية والاهتمام . . وكمن يزيح عن المرآة ما تراكم عليها من غبار، تخيلّت انها تستطيع اذا ما تم الزواج ان تجعله يبدوا اكثر عناية بهندامه ، مما سيخفّف من الأثر الساخر الذي يتركه هزاله وضآلة بنائه وقصر قامته .

وتم الزواج . . وكان بالنسبة لسامية نفسها انطلاقا من حياة فارغة تافهة ظلّت تضيق بها منذ عادت من الخارج بمؤهل الماجستير في علم النفس . . اذ بدالها انها تستطيع ان تمارس مهنتها بعيادة للطب النفسي إلى جانب عيادة زوجها . . كما كان بالنسبة إلى امها فرحة العمر، اذ فتح زواجها الأ بواب لزواج البنتين الأخريين ، وان كان الأب قد ظل على رأيه في الاشمئزاز من مهنة والد العريس ، فقد ردد بينه و بين نفسه ان رضى البنت بهذا الزوج ، هو القول الفصل الذي يجب الآ يتدخّل فيه بنقض اواعتراض .

و بعد مرور بضعة شهور، على زواج سامية من ابراهيم ، اومن الدكتورابراهيم محمد الزبيري ، اكتشفت سامية ان زوجها يمكن أن يكون موضوعا لعدد من التجارب في العلاج النفسي ، فهومفرط الحساسية ، سريع التأثّر من أي كلمة عابرة أو دعابة متوددة ، وكان اغرب ما في حالته ان حسّاسيته وسرعة تأثّره تنسرب إلى اعماق نفسه ، فلا يبدو عليه الغضب ومظاهر الانفعال المعتادة ، وانما يلتزم الصمت ، و يتقوقع ، و يبدو ذاهلا ساهما ، بحيث ، لولا ما يظهر من سرعة حركة جفنيه ودوران حملاقية في الفضاء ، لما أحس أحد بالعاصفة التي تعول في داخله .

وفرح ابراهيم كثيرا بالعيادة التي افتتحتهازوجته سامية للطب النفسي ، واستطاع ان يحيل اليها من عيادته اولئك الذين يراجعونه شاكين من امراض ، لايجد من الفحص السريري والمجهري أو حتى الشعاعي والتحليلي ، ما يؤكّد انهم مصابون بالأمراض التي يشكون منها . . و بذلك مشت الأمور على افضل ما يرام ، بالنسبة للزوجين ، وكان يمكن ان تستمر الحياة بينهما رخيّة رضية ، لولا هذه الحساسية المفرطة ، التي ينتج عنها دائما تقوقع الدكتور وانطواؤه على نفسه ، والتزامه الصمت المطبق ، فترة تمتد احيانا لأ يام وأسابيع .

واسعد سامية ان تجد في زوجها موضوعا للدراسة والبحث ومحاولة العلاج . . ولم تكن تجهل حكاية مهنة ابيه ، ولم تستبعد ان تكون هي عقدة الدكتور، رغم نجاحه وانتشار سمعته كطبيب ناجح موفق ، فصممّت على ان تعمل على حل هذه العقدة ، فكانت اذا ما عادا إلى المنزل من العيادة بعد الساعة التاسعة مساء وجلسا لتناول طعام العشاء ، والاصغاء إلى الراديو، تستدرجه إلى الحديث عن ايام طفولته وصباه ، وقصة دراسته وابتعاثه إلى امريكا ، ونجاحه كطبيب ، ولاحظت في كل ما كانت تسمع من قصصه

واخباره، انّه يتحاشى تماما التطرّق إلى المهنة التي كان يرتزق منها ابوه، بل لاحظت، انه يتجنّب بحرص بالغ ان يعترض على رداءة غسل ثيابه وغترته وكأنّه لايريد ذكرمكنة الغسيل، أواهمال الخادمة في تنظيف الياقة واطراف الأكمام .. فلم يعد لديها شك، في أن مهنة ابيه هي عقدته الكبرى .. وخطّطت على هذا الأساس طريقة علاجه .. فحرصت من جانبها على عدم اثارته وظلّت تتوخّى ارضاءه والتواؤم مع سجاياه وخلائقه .. لتجعل من محاولتها لحل العقدة ضاغط الانفجار العاطفي المكنون، وقد اعتقدت ان هذا الانفجار هو السبيل التي لاسبيل سواها لحل هذه العقدة، وتخليصه من اثرها في نفسه إلى الأ بد.

وعاد اليها ذات مساء من عيادة مريض بعد الساعة العاشرة مساء، وعلى غير عادته معها، رأته يسرع إلى غرفة النوم، و يستلقي على السرير، واضعا يده على قلبه، ثم يطلب منها ان تسرع اليه بعلبة علاج معين من الدولاب تناول منه قرصا أحمر وظل صامتا يتصبب العرق من جبهته رغم برودة الجو في الغرفة المكيّفة .. ولم تخف قلقها عليه، واستأذنته ان تطلب طبيبا من زملائه .. ولكنّه رفض باصرار، وأردف يقول: (غدا .. سأعرض نفسي على اخصّائي في امراض القلب) وحين جلست إلى جانبه في السرير، رجحّت انها حالة من حالات انفعاله وحسّاسيته، ولم تستبعد ان يكون قد سمع من احد عارفيه شيئا عن مهنة أبيه .. واستبعدت تماما ان يكون مصابا بمرض من امراض القلب كما توهّم.

وحين نهض من نومه في صبيحة اليوم التالي كان على خيرما يرام، ولكنّه فضّل ان يعتذر عن الذهاب إلى عمله في المستشفى، ليأخذ قسطا من الراحة .. ثم اقترح عليها ان يتناولا الشاي في الشرفة المطلّة على حديقة الفيلا التي يسكنانها منذ تم الزواج.

وحين كان يرشف فنجان الشاي امامها و يلقي نظرة على اشجار الحديقة وازهارها، وعلى وجهه ابتسامة عريضة نمّت عن ارتياحه، بدا لها ان هذه اللحظة بالذات هي فرصتها في الضغط على زر الانفجار الذي خطّطت له لحل هذه العقدة التي لم يكن يساورها شك في انها السبب في كل ما يعانيه من قلق وعذاب .. ولم تتردد، في انتهاز الفرصة حين رأت طرف ياقة قميصه مطوّقة بما يشبه خيطا رماديا غامقا وطرف كمّي قميصه، يدور حولهما هذا اللون الأصفر نتيجة لعدم عناية الخادمة بدعكهما كما يجب ..

وتظاهرت بأنها ترى كل ذلك لأ ول مرة وتسلّلت إلى الحديث عن الغسيل والخادمة والمكنة وادو ية الغسيل.. ثم فجرّت قنبلتها حين قالت.(لو رآك الوالد، بهذه الياقة المسودّة، وهذه الأكمام الصفراء، لما تردد في تنبيهنا كلّنا إلى ان الخادمة لا تؤدّي واجبها في الغسيل على ما يرام).

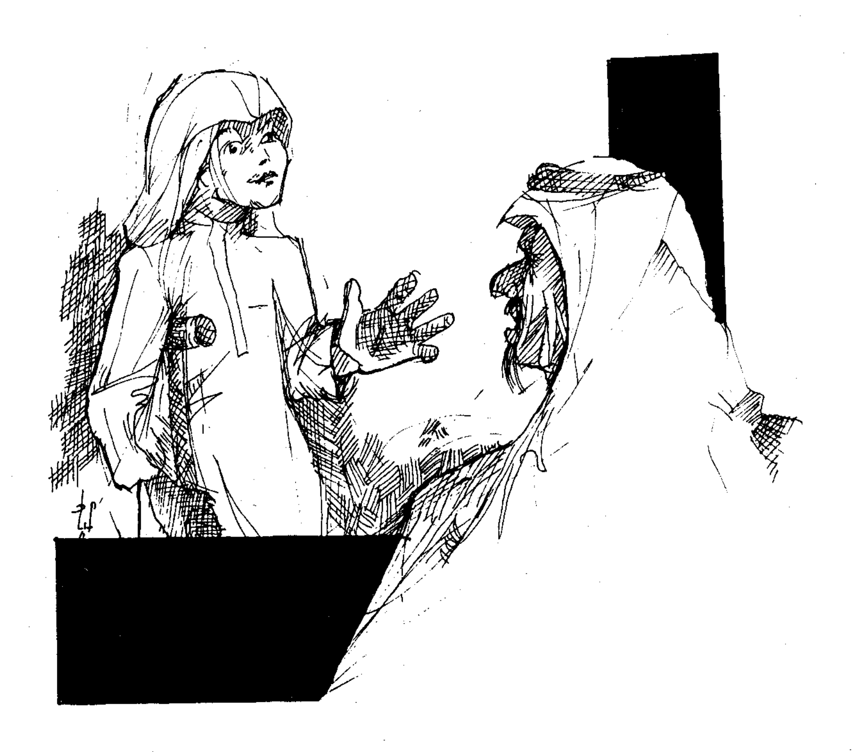
والتفت اليها منتفضا كالعصفور، واستعاد كلامها.. فاعادته.. فاجال في وجهها بصره وراء نظّارته السميكة.. ورأته يخفض عنقه، كأنّه ينظر إلى بطنه، ثم يلتزم الصمت.. وهو ما كانت تتوقّعه فعلا.. فهو حين ينفعل لا يتكلّم ولا يصرخ، ولا يرفع عينيه في وجهها.. فالتزمت الصمت بدورها لحظات.. وانتظرت ان يرفع عنقه.. وطال انتظارها.. كما طال صمته.. وادركت ان القنبلة تدوى في داخله، وتتفجّر في صدره، ولابد له ان يسألها بعد حين عن علاقة والده بالياقة المسودّة، والأكمام الصفراء.. فتريثت، وظلت تجيل بصرها في الحديقة.. وتذكر تلك الابتسامة العريضة التي كانت تملأ وجهه منذ لحظات، وكيف اختفت.. ولم تعد ترى امامها الآ رأسه المنخفض وصمته الطو يل.

ولكن.. فجأة.. وجدت نفسها تصرخ.. وتنهض من مجلسها مسرعة اليه.. ترفع رأسه، لترى وجهه وقد شحب، وغاضت منه كل قطرة من دم.. هزّته بعنف.. وتوالت صرخاتها.. وتجمّع الخدم، واسرعت هي إلى التليفون تستدعي اخصّائي القلب.. وحين عادت اليه وفي اذنيها سمّاعة ضربات القلب.. ووضعتها على قلبه.. انهارت، وسقطت مغمى عليها.. وآخر ما رددته انّه (ميّت.. ميّت).

ومات الدكتور ابراهيم محمد الز بيري، وعاشت زوجته سامية لتذكر طوال حياتها، انها هي التي قتلته.. وان كان كل عارفيه واصدقائه، يرّددون انه مات بالسكتة القلبية حين كان يشرب الشاي في الحديقة، ذات صباح.



سطام ونوير





سطّام ونوير

نشأ سطّام بين عدد من الإخوة والأخوات، يصعب عليه اليوم أن يذكر عددهم أو حتى اسماءهم باستثناء عالية التي لم ينس ابدا انّه كان يلعب معها أوهي التي كانت تلاعبه لأنها كانت تكبره قليلا وتصّر على أن تحمله بين ذراعيها الصغيرتين الهزيلتين، فاذا عجزت، وهي تعجز دائما، تتركه ينفلت و يقع على أم رأسه، مفجوعا صارخا، بحيث يتجمّع حولها الآخرون، وكل منهم يلطمها و يلكزها و يوسعها شتما ودعاء لله بأن يأخذ عمرها و يريح البيت منها.

و يصعب عليه أن يذكر عددهم أو حتى اسماءهم، لأنّه قد فقدهم جميعا عندما انقلبت سيارة النقل التي كان ابوه قد شحنهم فيها مع عدد من المعيز والضأن إلى حيث الأرض التي رأى في سمائها غيوما و برقا، لم يشك في انها قد امطرت، ونما فيها من العشب ما يمكّنه من الاحتفاظ بحلاله، بعد أن ظل الجدب في الوادي الذي يعيش فيه يهّدد مواشيه، بل و يهدّد حياته وحياة اسرته وجميع من يعيشون معه من ابناء قبيلته.

انقلبت سيارة النقل، فنجا العدد الكبير من المعيز والضأن، ولكن لم ينج من اخوانه وأخواته أحد.. أما هو فكل الذي حدث ان كسرت ساقه اليمني، التي حاول أبوه أن يضعها في جبيرة بمعرفته العريقة المتوارثة عن سلسلة طو يلة من الأجداد، و بعد أن أقام في الأرض التي توهّم أن فيها الكفاية من العشب، ودفن على سفح الجبل الموتى من فلذات كبده، وفقد الكثير من ماشيته، قرر أن يسافر إلى الرياض، حيث قال له أكثر من واحد من قبيلته ان فيها الكثير من العمل والكثير من الرزق، و يستطيع أن يجمع بعض المال بعد فترة من الوقت، ثم يعود بالمعيز والضأن إلى ارضه في الشمال إذا شاء، أو أن يستمر في العمل كما فعل الكثيرون، وقد عوّض الله عليهم بأكثر كثيرا مما كانوا يملكون..

و يذكر سطّام ، ان اباه قد اخذه إلى المستشفى ، ولا يدرى بعد ذلك ما الذي حصل ، سوى انّه وجد نفسه بساق واحدة ، وتحت ابطيه عكاّز، لا يستطيع أن يمشي الآ بهما . . وقد ظل ابوه يزرره في المستشفى وقتا ، ثم لم يعد يراه . . كما لم يعد يسمع عنه شيئا ، ولا يعرف له مصيرا أومكانا .

والشارع . . أو الشوارع الكثيرة في الرياض ، هي التي اصبح سطّام يعرفها واحدا واحدا . . فقد كانت سبيله الوحيدة إلى لقمة العيش أن يمشي على عكازيه ، وان يقف على ابواب الدكاكين ، وان يقنع بما يوضع في يده من قروش يشترى بها ما يسد رمقه . . وفي كل وقفة امام دكان ، أو مقهى ، أو باب عمارة ، كان يتساءل : (أين أجده ؟ انّه أبي . . وهؤلاء الرجال كلّهم آباء . . والآباء لهم ابناء . . والأ بناء يخرجون مع آبائهم ، وكثيرون يركبون الحافلات يذهبون إلى المدارس . . الاّ هو . . كيف يمكن الاّ يكون له أب وهو الذي جاء به إلى المستشفى ، وهو الذي ظل يعوده و يأتيه بحفنة من التمر ، أوينفحه بكمية من القروش . . لقد فهم منذ كان يلعب مع عالية ان امهم قد ماتت بعد ان ولدته مباشرة ، فلا يعنيه ان تكون له أم . . ولكن هذا الأب . . لم يمت كما مات كل اخوته والكثير من المعيز يوم انقلبت السيارة . . فلماذا لايظهر . . لماذا لايراه حتى مع العمّال الذين يراهم يشتغلون بالبناء ؟) .

وحين كان يرى الأطفال يركبون الحافلات ، و يذهبون إلى المدارس ، كان يقول في نفسه : (لكل منهم ساقان . . يقفزون بهما إلى الحافلة و يسرعون إلى مقاعدهم . . فلو كان من نصيبه ان يذهب هو ايضا إلى المدرسة . . كيف يستطيع ان يقفز بعكازيه الخشبيين الثقيلين . . وما الذي يرغم السائق على ان يساعده على الركوب ؟ والأ ولاد في عجلة من أمرهم ، ليس بينهم من يفكّر في مساعدته . . فالمدرسة اذن حلم بعيد المنال . . والبيت ايضا لا يمكن ان يكون له وجود . . وانما الشارع . . الشوارع هي وحدها ، وأحيانا الحدائق العامة ، هي التي يأوي اليها عندما تغلق الدكاكين والمعارض الكبيرة ، وتتراخى حركة المرور .

وفي الشوارع عرف الكثيرين من الأطفال . . بل لقد عرف اسماءهم . . وربّما سمح له بعضهم ان يتحدّث إليه وان يسأله عن مصيبته . . فيسرد حكايته عليهم منذ شحنه ابوه

مع اخوته ومع المعيز والضأن إلى أن انقلبت السيارة بهم واحترقت ، ولم يسلم من الحادث إلاّ هو وأبوه و بعض المعيز والخراف .. وقد يبدو على وجوههم الصغيرة الأسى ، كما قد يضحك آخرون .. و يضحك معهم على الخراف التي استطاعت ان تهرب .. ان تقفز إلى بعيد فلا تلتهمها النيران التي اشتعلت في السيارة وأتت عليها .

ومرّت به على هذه الحال ايام ازدادت خلالها معرفته بالشوارع ومداخلها والأ زقة الجانبية التي يتجمّع فيها الأطفال ايام الجمعة .. وازدادت معرفته بهؤلاء الأطفال من سنّه .. ونشأت بينه و بين بعضهم الفة ومودّة فلا يكاد الواحد منهم يراه حتى يسرع اليه بحفنة من التمر، أوبما في جيبه من القروش .. وكان ممّن تعرّف اليهم ، صبية صغيرة في سنّه .. هزيلة ، مصفرة الوجه ، خيل اليه انها عالية .. وزاد في تعلقه بها انها كانت قليلة الحركة تعجز عن الركض والقفز كما يفعل الصبية من جيرانها .. فلا بد لها ان تجلس وان يجلس هو إلى جانبها ، يلتزم الصمت احيانا و يتحدّث اذا سمعها تسأله أين قضى الليلة البارحة .. وهل ما زال يبحث عن أبيه ؟ فيتحدّث ، ويحكي ما يعن له من حكايات أمسه ، و ينتهي إلى ان أباه هذا لاشك ان سيارة قد احترقت به هو وما بقي له من المعيز والخراف .

وحين يرتفع صوت المؤذّن لصلاة الجمعة ، كان يرتفق عكازيه و يقف .. ثم ينطلق في اي اتجاه يطيب له ، وفي جيبه حفنة التمر، وربما بعض القروش .. وهكذا فعل ، عندما ارتفع صوت المؤذن ، ولكن قبل ان ينطلق .. سمع الصبية تناديه : (سطّام .. ياسطّام .. قف .. هذا ابي يريد ان يراك) .

و وقف .. ورأى اباها .. يتقدّم منه .. ثم يمسح وجهه بيده .. و يسأله : (إلى أين ؟) ولا يدرى سطاّم إلى أين يمكن ان ينتهي به التجوال .. فيلتزم الصمت لحظات ثم يقول (إلى .. إلى .. السوق ياعم) .. و يبتسم ابو نو يّر .. و يقول .. (ولماذا السوق ؟ تعال ادخل مع نو يّر .. ولا تذهب حتى أعود من الصلاة .) .

وذلك أول عهد سطّام بانسان يمسح وجهه بيده .. وتلك اول مرة يدخل فيها بيتا من هذه البيوت التي كثيرا ما اعجب بارتفاعها ، وابوابها ، و بالدهليز الذي يخرج منه الأطفال أو يتجمّعون فيه .. وحين دب بعكازيه إلى الدهليز .. سبقته (نو يّر) ونادت

امها ، واختها الكبرى ، وامرأة سوداء . . والتف الجميع حوله ، وحين قالت (نوّير) ان اباها امره بأن ينتظره إلى أن يعود من الصلاة . . رآهم يبتسمون . . و يرحبون به ، وامتدت يد المرأة السوداء ، تساعده على الجلوس على خشية مبسوطة على دكّة طويلة رأى سطّام في نهايتها دلال القهوة والمحماس وموقد النار .

وعاد ابو نوّير بعد الصلاة . . وتحت ابطه لفافة ، اخرج منها ثيابا نظيفة جديدة وقال للمرأة السوداء : (خذيه يغتسل ، وهذه الملابس لك ياسطّام) ثم دار بيده في اللفافة وأخرج نعلا صغيرا مزخرفا . . وأضاف يقول : (وهذا أيضا لك) .

وعاش سطّام في هذا البيت . . اسابيع . . وأوشك فصل الصيف أن ينتهي . . فاذا بالعم (حمود) يقول له غدا تذهب إلى المدرسة .

ومرّت أعوام . . انهى فيها سطّام دراسته الابتدائية ثم الكفاءة . . ثم الثانوية . . ولا يعرف له أهلا سوى العم حمود . . والخالة مزينة ، والأخت الكبرى لولوة ، التي تزّوجت في نفس السنة التي نال فيها شهادة الكفاءة . . ثم نوير . . التي حجبوها عنه فلم يعد يراها إلاّ حين تخرج للحاق بحافلة المدرسة يتسابق إليها بنات الحي .

كان العم حمود ، تاجرا صغيرا . . في سوق (القصمان) يبيع و يشترى الكثير من الأصناف التي يروج سوقها هناك و بعد أن اكمل سطّام المرحلة الثانوية من التعليم ، عرض عليه العم حمود أن يساعده في العمل في الدكان . . فلم يتردد ورأى اصدقاء العم حمود ، لأول مرة ، هذا الشاب بالعكازين تحت ابطيه ، يجلس في الدكان ، يبيع و يشترى ، ثم رأوه يجلس وحده ، فاذا سألوه عن العم حمود يقول . . (في الكويت . . أوفي البحرين) .

وتعددت رحلات العم حمود إلى الكويت والبحرين ، وبدأ دكانه يشهد تغييرا كبيرا ، ليس في السلع التي تعرض فحسب ، وإنما في المظهر وطريقة العرض . . ولم يمض عام أو عامان حتى كان العم حمود نموذجاً أغرى الآخرين من جيرانه بأن يغيروا المظهر وطريقة العرض . . وكان سطّام لايتردد في أن يبدي رأيه في الأخطاء ، وان ينصح بالاستعانة بالمهندس الخاص ، والنجار الذي يستطيع ان ما يتفّق مع نوع السلع

المعروضة .

وعاد العم حمود ذات مرة من احدى رحلا ته .. و بعد اسبوع من عودته ، علم جيرانه انّه سيزوّج سطّام من ابنته نو يّر .. وتسامع زملاء سطّام بالخبر، فتوافدوا اليه يهنئونه ، و يسألونه عن موعد الفرح .

وفي اليوم الذي حدّد للعرس ، كان سطّام في المحل ، ما يزال يمارس نشاطه كالمعتاد .. ولاحظ من مجلسه على مقعده في جانب من المحل ، ان طبقا من النحاس المصنوع في ايران ، ليس معروضا في الفترينة على ما يرام .. فارتفق عكازيه ونهض .. وفتح الفترينة ، وأخذ يعالج اصلاح وضع الطبق .. ولاحظ ان انسانا ، يقف امام المحل .. فالتفت .. رجلا طاعنا في السن ، وفي يده ورقة نقد بمئة ريال .. ومد الرجل يده بالورقة يرجو ابدالها باوراق نقد صغيرة .. وتناول سطّام الورقة ، واستدار على عكازيه إلى المكتب ، حين دخل أحد زملائه صاخبا .. يقول ..(وحتى اليوم ، لا تغلق المحل ياسطّام ؟) .

وهتف العجوز .. بصوت مرتعش : (سطّام .. انت اسمك سطّام .. وما اسم ابيك ؟) .. وضحك سطّام يقول .(ايوه .. انا سطّام بن ثامر) .

وصاح العجوز: (بن ثامر .. ولدي .. ولدي ياسطّام) .

وطالت قصة ثامر لابنه عن اسباب ضياعه كل هذا الزمن الطو يل .. وكانت خلاصتها انّه جاء المستشفى الذي كان يعالج فيه سطّام بعد أن غاب وراء معيزه وضأنه بضعة ايام .. فقال له أحد الموظفين .. ان ابنه قد مات .. فخرج يمسح دموعه ، و يردد .. الحمد لله .. ما تواكلّهم .. وهذا آخرهم .. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .. وعاد إلى واديه يرعى ماشيته .. وقد تزوج وانجب .. واخلف الله عليه الكثير من الرزق .

وحين جلس المأذون يعقد لسطام على نو يّر .. كان حمود وثامر .. يجلس كل منهما إلى جانب الآخر .. واحس سطّام لأ ول مرة .. ان له ان يقول .. انه ابن ثامر .. الذي يراه كل المدعو ين من كبار التجار والرجال .



صورة جدتي





صحوة جديدة

كانت فرحته بميلاد ابنه الأول مشهدا لم تر الممرّضة التي بشّرته به، وهو ينتظر عند باب المدخل إلى قسم العمليات في المستشفى، مثيلا له قط.. وحتى الممرضات والخدم الذين كانوا يروحون ويجيئون في الممر الطويل، وجدوا أنفسهم يلتفّون حوله لحظات، متسائلين عمّا اصابه إذ لم يسبق أن شهدوا من يضحك و يبكي و يقفز، و يصفّق دون أن يكون هناك سبب إلاّ أن الممرضة قد بشّرته بأن زوجته قد ولدت له غلاما، وأن حالة الأم طبيعية، وكل شيء على ما يرام.. وهو لن ينسى ابدا، هذه الفرحة الغامرة، التي جعلت منه اضحوكة لكل من لاحظه يواصل هذه الحركات حتى عندما خرجت زوجته مسجاة على الناقلة، في حالة غيبوبة تامة، تحت الأغطية البيضاء إلى سريرها في الغرفة التي حجزها لها منذ ثلاثة أيام.. وكان أشد ما استثار الضحك عليه انّه ما كاد يراها، حتى أسرع يزيح الغطاء الأبيض، متسائلا عن الطفل، اذ لم يكن قد خطر له ببال، انهم في المستشفيات يأخذون الطفل بعيدا عن أمّه و يتولوّن العناية به إلى أن تصبح الأم في حالة تمكنها من رؤيته أو احتضانه.

وهو يذكر الآن، وقد مر عام كامل، على ميلاد هذا الطفل، وعلى ما ظل يعانيه من التمزق والشقاء، منذ وقعت عيناه عليه كيف ظل ينتظر اللحظات التي يرى فيها ابنه طوال الفترة التي قضتها زوجته تحت تأثير المخدر الذي يتمنّى اليوم لو انها لم تصح منه إلى الأبد أو لو انّه هو، مات قبل أن يولد له طفل يكبر شقاؤه، وتشتد تعاسته كلّما كبر، وكلّما وقعت عليه انظار من يرونه أو يسمعون به.

لقد ظلّ إلى جانب سريرها ينتظر أن تصحو من غيبوبتها أكثر من ساعتين، واذا لم ير ما يدل على انها ستفيق أو حتى تتنبّه لوجوده، اضطر إلى أن يخرج من الغرفة إلى الممر، ثم إلى الاستعلامات، حائرا كيف يستطيع أن يقنع الممرضة أو الطبيب، أو المختص أيا

كان ، بأن يسمحوا له برؤية ابنه .. ولم يستطع أن يصل إلى نتيجة ، مع موظف الاستعلامات ، الذي اكتفى بأن قال له ان الطبيب والممرضات اللائي اشرفن على العملية معه ، قد ذهبن إلى غرفهن ولا سبيل إلى الا تصال بهن ، الآ بعد الخامسة مساء .. وأحسّ أن امعاءه تتمزّق جوعا ، فهو لم يتناول طعاما منذ وجبة غذاء يوم أمس ، ولم يغمض له جفن طوال هذه الفترة ، التي انقضت في انتظار المولود .

خرج إلى الشارع ، واستوقف احدى سيارات الأجرة ، إلى أحد المطاعم حيث ظل يتمهّل في تناول طعامه ، استهلا كا للوقت ، وقد بدا له ان لا فائدة من الذهاب إلى البيت ، حيث لن يستطيع أن ينام ما دام لم ير ابنه ، وهو لا بدّ أن يراه ، مؤمنا انّه يشبهه ، وليس مستبعدا أن يكون صورة طبق الأصل منه ، وهو الذي تقول امه انه صورة طبق الأصل لأ بيه الذي مات قبل أن يبلغ الخامسة من العمر .. وابتسم ، حين تذ كّر أن ز وجته كانت خلال شهور الحمل تكايده ، بأن ولدها ، سيأخذ منها بياض بشرتها ، ودعج عينيها ، واستقامة انفها ، فإذا حدث وأخذ منه هو شيئا ، فليس أكثر من قامته الفارعة وصدره العريض ، ور بّما شعره السبط ، اذ لم يكن يعجبها شعرها الجعد ، وهي ترى تهالك النساء في هذه الأ يام على الشعر السبط المسترسل الناعم ، وما يعانين من جهد لا رخاء أو ما يسمينه (فرد الشعر) .

وما كاد يفرغ من طعامه ، و يلقي نظرة على الساعة في معصمه حتى هبّ قافلا إلى المستشفى ، إذ وجد انها الرابعة ولم تبق إلاّ ساعة واحدة فقط ، ثم يرى ابنه .. اجل ابنه الذي كان قد قرر منذ شهور الحمل الأ ولى أن يسمّيه (رابح) وهو اسم أبيه الذي يزداد اعتزازا به ، كلّما سمع من عارفيه ، ما كان يتمتّع به من وجاهة ومكانة وسمعة طيبة ، يعتبرها رأس مال ، اضخم كثيرا من أي مال تركه الآباء لأ بنائهم من زملائه في المدرسة ثم في الدائرة التي يعمل فيها موظفا صغيرا ، يضطر إلى ركوب حافلة الخط ، بينما الكثيرون منهم يروحون و يغدون بسياراتهم الخاصّة ، على ضآلة رواتبهم ، لأن آباءهم اثرياء ، وليست الوظيفة بالنسبة لهم إلاّ نوعا من التشريف وتكامل الوجاهة وتحقيق ما يطمحون إليه من المراتب العالية التي لابد أن يصلوا إليها بما يتيسّر لهم من استمرار في الدراسة إلى أن يتخرّجوا بمؤهل الد كتوراة .

ولم يعن وهو يدخل الغرفة التي تنام فيها زوجته بأن يخفف وطء أقدامه، أو أن يتوخى الهدوء في اغلاق الباب بعد دخوله، لأنّه كان يفضل ان تستيقظ، وان ترى هي أيضا، طفلها حين يراه.. وان يعيشا معا أسعد لحظات العمر، وبين يديهما ثمرة زواجهما الذي يعترف أنه لم يكن ليتم، لولا أن خالها، حمل عنه، ليس المهر فقط، وانما تكاليف الزفاف، وقيمة الأثاث أيضا، لأنه يريد أن يراها في بيتها، وفي عصمة شاب يشهد له الجميع بالاستقامة والخلق الرضي، وطيب العنصر، وكان هو هذا الشاب، حين تقدّم يخطبها منه، وكل ما يملكه أربعة آلاف ريال، ظلّ يوفرها من راتبه المحدود طوال أكثر من سنتين بعد وفاة امّه.

وما كاد يستدير في الغرفة، و يلقى نظرة إليها حتى هتف، (الحمدلله.. كنت أتمنى أن أجدك مستيقظة وها أنا أرى عينيك مفتوحتين.. ولكن..).. وابتعد عنها قليلا، وفي عينيه دهشة من يرى شيئا لم يكن يتوقّعه الآن.

وكان يرى في عينيها دموعا، بل رأى الوسادة تحت رأسها مبلّلة بهذه الدموع.. وانتظر أن تقول شيئا. ولكنها لم تنبس بحرف.. بل لم تنظر إليه.. كانت نظرتها موجهّة إلى فراغ.. فانحنى على وجهها، يقبّلها، وقد دار في نفسه انها استكثرت الآ تجده إلى جانبها حين افاقت من غيبوبتها.. وقال: (أنا آسف.. لكن صدّقي انني ظللت على هذا الكرسي أكثر من ساعتين.. ثم لا ادرى كيف لم استطع الصبر على الجوع.. واضطررت ان اذهب إلى أحد المطاعم القريبة من هنا.. سامحيني) وقبّلها مرة أخرى.. فإذا بها تجهش بالبكاء.. وابرق في ذهنه ان ابنه قد مات.. فصاح.. (قولي.. هل.. هل مات رابح ؟).

وهزت رأسها دون أن تتكلّم.. فلم يسعه إلاّ أن يسرع إلى الممر، يستنجد بالممرضة.. فزوجته تعاني الما لا قبل لها باحتماله.. وقبل أن يخطو خطوتين رآها قادمة.. فاستوقفها ورجاها أن تدخل لترى ما بزوجته.. فهي تبكي.. منذ عاد إليها ولا تكف.. ولا تتكلّم.. ولا يدري ماذا بها.

وسبقته الممرضة إلى الغرفة.. وهي تقول..(لاتخف.. ولادتها طبيعية جدا.. وليس بها شيء..) وعجزت الممرضة، ان تسمع منها كلمة واحدة.. كانت الدموع

والنظرة المعلّقة في فضاء الغرفة، والنشيج المتواصل هي كل ما تقول به ما تريد أن تقول.. دون ان تنبس بحرف.. وكأنّما قد اكتشف السر في كل شيء يراه، حين التفت إلى الممرضة يقول.. (بالتأكيد.. لابد أن تبكي.. ما دمتم لم تسمحوا لها برؤية ولدها حتى الآن.. انها أم.. وأنا أب.. ولست أدرى لم تمنعوننا من رؤيته؟.).

وما كاد يتم كلمته حتى تكلّمت هي.. تكلّمت وكأنها تستغيث.. قالت: (لا..لا.. لقد رأيته قبل أن تصل.. ولا أريد أن أراه.. لا..لا أريد أن أراه أبدا..).

وبدا على الممرضة انها قد فهمت ما لم يستطع أن يفهمه ماجد.. وما بداله أكثر تعقيدا مما يطيق.. فهتف.. (ولكن أنا.. انا أبوه.. لم أره.. وأريد ان أراه.. ارجوك ياسيدتي.. اريد ان أراه).

وخرجت الممرضة مسرعة.. وزوجته ما تزال تردد: (لا..لا.. لاأريد ان أراه..).. ومرّت لحظات اعتقد خلالها ماجد أن زوجته مصابة بانهيار عصبي.. سمع ان بعض النساء يصبن به أثناء الحمل، أوبعد الولادة.. فالأمر بسيط.. ولابد أن الأطباء يعرفون كيف يعالجونه.. فلا بأس.. وانتظر.. وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا.. دون أن يلتفت إليها.

ودخلت الممرضة اخيرا.. وفي يدها الطفل.. فاسرع يأخذه منها بين ذراعيه.. ولكن.. ما كاد يراه حتى توقّف ذاهلا.. مشدوها.. زائغ العينين..

لم يكن الطفل الذي رأى وجهه يشبهه هو، ولا يشبه أمّه.. كان اسحم اللون، لايشك من يراه في انّه ابن أم وأب حالكي السواد.. وملامحه.. ليس فيها ذلك الأنف المستقيم الجميل الذي لأمه.. ولا العينان الدعجاوان.. وهذا شعر رأسه كث مفلفل، ليس فيه شعرة واحدة سبطة أومرسلة أو حتى جعدة..

وأخذ الطفل بين ذراعيه وقد عقدت الدهشة لسانه.. وزحفت على قلبه وصدره اثقال لا قبل له باحتمالها من الشكوك والريب والأفكار.. فلم يسعه.. وهو أيضا إلا أن يسلم ما ظلّ يمسكه من الدموع.

ولم يدر ماذا يقول.. وحين ابتعدت به الممرضة.. التفت إليها.. كانت ما تزال

تبكي . . وزحمته موجات من المشاعر واحسّ كأنّ المسافة بينه و بينها تتسع ، وتترامى . . بحيث بدا له كأنّها تختفي عن ناظريه وراء افق بعيد .

واسرع يخرج من الغرفة ومن المستشفى . . وانطلق يذرع الشارع على غير هدى . . مشى وقتا طو يلا قبل أن يجد نفسه امام أحد المقاهي في الشارع العام ، وأحس كأنّه يكاد يسقط اعياء . . فدخل المقهى وجلس و وضع رأسه بين ذراعيه . . وحين وقف امامه الخادم . . طلب شايا . . لم يشرب منه قطرة واحدة . . ولم يبرح مكانه إلا عندما أحس بيد صاحب المقهى على كتفه . . ينبّهه ، و يقول . . (طلبت لك سيارة اجرة . . قل لي أين يذهب بك ؟) .

ومرّ عام . . والطفل بين يديهما معا . . وقد التزم كل منهما الصمت . . ظلّ ، يأوى إلى بيته و ينفق على زوجته وعلى الطفل . . وظلّت هي تدير شؤون المنزل ، وتعنى بالطفل وتحنو عليه ، ولكن دون أن تحاول من جانبها ان تحطّم جدار الصمت بينها و بين زوجها . . إذ كانت تشعر أن هذا الجدار اِضخم وأشد متانة من أن تجرؤ على مسّه . .

وتلقّى ماجد برقية من خالها يخبره انّه قادم صباح اليوم التالي . . فلم يخبرها بشيء . . وخرج مبكرا لاستقباله . . وظلّ عاجزا عن أن يقول اية كلمة عن الطفل الذي أسرف الخال في السؤال عنه . . وحين فتح الباب وتقدّم يرحب به . . كان الطفل يدب في الردهة بمشيته المتعثرة في نهاية عامه الأ ول .

ورأى ماجد خال زوجته يحمل الطفل و يوسعه تقبيلا . . ولا يبدو عليه انّه يستنكر سواد لونه ولا بعد ملامحه عن ملامح ابيه وأمّه .

وحين دخلت رابعة تسلّم على خالها ، كان الطفل ما يزال على كتفه . . يداعبه و يلهيه . . فوقف واحتضنها وضحك يقول . . رابح . . صورة طبق الأصل من جدّتي أم أبي . . كأني اراها . . نفس اللون ، ونفس الملامح نفس الأنف والشفتين . . سبحان الله . . كيف أخذ الولد منها كل شيء . . ولم يأخذ منّا كلّنا شيئا .

ولم يعلّق ماجد بشيء . . ولكنّه استطاع لأ ول مرة ، منذ كان في غرفتها في

المستشفى، ان يراها .. وان يقول لها : (ما رأيك، في أن يتغذّى الخال سمكا .. أم تفضلّين الدجاج ؟؟) كما استطاع أن يحمل الطفل بين ذراعيه، وان يقبله وان يضمّه إلى صدره بحنان .



اسمي انسان





اسمي إنسان

كانت القضية التي تقدّم بها الادعاء إلى المحكمة، واحدة من تلك القضايا التي يندر أن تتكرر، ولكن لايندر ان تحدث، وان تتجمّع فيها حيثيات وعناصر يسطع بها حق المدّعي بحيث يتعذّر على القضاء ان يلتمس إلى تخفيف الحكم أي سبيل من هذه السبل التي تتوخى بباعث الرحمة والاحسان إلى جانب التزام العدل، اذ لا مكان في العدالة لغير العدل، ولا مكان في القضاء لغير الحكم بما تقضي به الأحكام، حين يتعذّر الصلح أو التماس العفو أو السماع أو الرضى، ولا مكان للحكم بالدية مع ثبوت التعمد، وانتفاء شبه العمد أو الخطأ ما دام المجني عليه مصرا على طلب الحكم بالقصاص.

وقد اصرّ المجني عليه في هذه القضية على طلب الحكم بالقصاص ولا شيء سواه، والحكم بالقصاص يقضي بقلع عين الجاني، اذ قد ثبت عليه ثبوتا قاطعا انّه قد قلع عين المجني عليه متعمّدا، كما ثبت ان عين المجني عليه التي قلعها الجاني كانت عينا سليمة، ليس فيها علة من بياض ينقص البصر، وليس من أمل في علاجها، ولم يقل احد من الأطباء المختصين انها يمكن ان تعالج في الداخل أو الخارج خلال فترة من الزمن تطول او تقصر مما يمكن ان يرتّب او يتيح للقضاء حكما بالتريث وانتظار نتيجة العلاج، و بالتالي تأجيل تنفيذ الحكم بالقصاص.

ثم، هذه العين التي قلعها الجاني، كانت عينا سليمة الجفنين، وفي الأهداب الوطف التي تحيط بالجفنين جمال ظاهر، والمجني عليه شاب في مقتبل العمر، مايزال في المراحل الأولى من دروب الحياة.. لايزال امامه ان يعمل، وان يكدح، وان يجمع ما يعينه على الزواج، على ان يكوّن اسرة، فيها البنون والبنات، وفيها نظرة هؤلاء اليه ودهشتهم او هو رثاؤهم لأن يروه بعين واحدة وكل الناس

بعينين،.. وحتى في هذه الدروب التي يسلكها إلى العمل وطلب الرزق، كيف يستطيع ان يطمئن، إلى ان الذين يتقدّم اليهم أو يزاملهم، لن يشيحوا وجوههم عنه، أو يقتحموه اقتحاما، وهو بهذه العاهة التي جرّب هو نفسه مشاعره وهو يلمح الذين ابتلوا بها.

واخته التي طالما حدّثته عن شعيلة، بنت العم صخر، عن جمالها، وعن وقفتها امام صورته كلّما زارتها.. صورته بعينيه السليمتين، بل اعجابها به، وبما تعبّر عنه عيناه من التوفّز، والحيوية، والطموح إلى جانب الدعة والسجو ونبل الطوية وصفاء القلب والوجدان.. اخته كيف يستطيع ان ينسى انهيارها وهي تستقبله بعد خروجه من المستشفى بعين واحدة، وقد اصبح مكان الأخرى اشبه بكهف غائر، فيه هذا الظلام الحزين، بعد التوهج والألق والاشراق، بل فيه ما يشبه افعى تلتهم، كل ما بقي في العين السليمة من جمال. انه يحمد الله على أن أمّه وأباه، قد الهما صبر الشهداء، اذ لم يسعهما وهما يريان وجهه بعد خروجه من المستشفى، إلاّ أن يرددا «لاحول ولا قوة إلاّ بالله» وان ينصرفا إلى الصلاة، يلتمسان بها العزاء والسلوى، وما حدث في منطقهما قدر مقدور، لايملكان حياله إلاّ الاتجاه إلى الله.

أشار بعض اصدقائه، على ما ظلوا يعانونه من الاشفاق والرثاء، انّه يستطيع ان يركّب عينا من الزجاج، فقد نمى إلى سمعهم ان طبيبا معروفا في اسبانيا يستطيع ان يزرع له عينا بدلا من التي قلعها الجاني، وكان يسمع الحديث الذي يرددونه كلّما زاروه في المستشفى او بعد خروجه منه، وكان لايتردد في ان يلتمس الرضى بشيء من الصبر والسلوان،الأمر كان يمكن ان ينتهي في نفسه ومشاعره بهذه السهولة واليسر، أو لو أن جناية الجاني، لم تكن بتلك الصورة الشرسة القاسية، التي انتفى معها الخطأ وعدم التعمّد، وثبت الامعان في التقصّد والاصرار عليه.. على قلع عينه، بحيث اجتثها كلّها اجتثاثا، انقطع معه حتى الأمل في الزرع الذي يستطيعه الطبيب المختص كما يحدثه الأصدقاء.

وفي المحكمة، حين ادخل الجاني، لم يملك المجني عليه، ان يستدير، فيراه

بعينه الواحدة.. رآه.. رأى خصمه يدخل بين حارسيه، يتهالك اعياء، لا تكاد تحمله قدماه، ومسحت وجهه صفرة وشحوب، ولكنه رأى أيضا عينيه.. رآهما ترمقانه لحظة، ثم تتجهان إلى القاضي، وإلى الكاتب بجانبه، رأى هاتين العينين سليمتين، تبرقان، و يشتعل فيهما الرعب، ووراء الأجفان والأهداب الوطف.. رآهما، ورأى فيهما وراء هذا الذي تعبّران عنه من الانكار والذل والرهبة في هذه اللحظة الحاسمة، ما كان فيهما عند اعتدائه عليه من التوحش والشراسة والحقد.. رأى ما كان يبرق فيهما من الاصرار على تنفيذ جريمته، ثم رأى كيف كان حملاقاهما يدوران تشفيا، وانفاسه تتلاحق لهاثا، وكأنّه قد فرغ من مهمّة فرض عليه اداؤها على ما فيها من مشقة ورهق وعناء.

وتلاحق إلى قاعة المحكمة، ابو الجاني وعصبة من اهله وقرابته، وكل منهم يعلن استعداده لدفع الدية نقدا ودون ابطاء، بل وجد من عرض الدية الكاملة عن عينين لا واحدة، ولم يتردد بعضهم في ان يقترب من المجني عليه، وان يأخذ رأسه بين يديه يقبّله، و يستعطفه، ان يقبل ما يعرضونه عليه. ولاذ المجني عليه بالصمت لحظات طو يلة، ومرة أخرى، القى نظرة على خصمه.. ومرة اخرى رأى عينيه.. رآهما تبرقان بالأمل في ان يرضى بما يعرض عليه.. رأى فيهما الق الفرحة المتوقّعة بأن الأمر لن ينتهي إلى القصاص. وأنّه سيخرج من المحكمة ليعيش عمره كلّه بعينين سليمتين.. بوجه ليس فيه هذه العاهة التي يشيح الناس بوجوههم عنها.. ليس فيه ما ينفّر الزوجة، وما يثير اسئلة الصبية، كيف ذهبت عينه، وكيف اصبح مكانها كالكهف يحيط به الظلام، الراثي الحزين بعد التوهّج والاشراق، ليس فيه هذه الأفعى التي تكمن في الكهف الغائر، لتلتهم كل ما بقى في العين السليمة من جمال.

وسأله الحاكم اخيرا: اجب، ياسالم.. ماذا تقول؟

ومن عينه السليمة طفرت دمعة ظلّت تنحدر في بطء على خدّه.. واحس بها.. احس انها من عينه السليمة.. حتى الدموع،.. حتى الدموع لم تعد تنهل إلاّ من عين واحدة.. اما الأخرى.. التي قلعها خصمه، فقد عجزت.. عجزت ان تسعفه بالدمعة، وهي كل ما كان يظن انّه بقي له منها.

وتكلّم سالم اخيرا.. قال: لا أطلب شيئا.

وغار صوته في صدره.. وتصايح اقارب الجاني يهللون.. يظنون انّه قد عفا.. وتلاحقت تلاوة: (وما تقدّموا لأنفسِكُم من خيرٍ تجدوه عندَ اللهِ هو خيراً واعظَمَ اجرا)، و(لئن صبرتم لهو خير للصابرين) وتناهضوا إليه وسمع سالم القاضي يردد: (فمن عفا وأصلح فأجره على الله).

ولكنّه وقف وقال: لااطلب من مولانا الحاكم، الاّ القصاص.

وساد قاعة المحكمة صمت مطبق.. واطرق الحضور.. و بدا كاتب الجلسة وكأنّه قد صعق، فلم يملك بعد لحظة شرود وذهول إلاّ ان يلتفت إلى القاضي ينتظر ما يؤمر به.

وصدر الحكم بالقصاص.. وظل الصمت يسود قاعة المحكمة والقاضي يملي على كاتب الجلسة صيغة الحكم. احس الجميع بهذه الرهبة الخاشعة التي يفرضها العدل، و بالقوة الرادعة التي تكمن في شريعة الله. ولم يستطع سالم ان يلقى بعد الحكم نظرة على خصمه.. بل لم يستطع ان يرفع بصره في احد من اهله.. كان في هذه اللحظة لايرى شيئا، ولا يحس بشيء.. كان في جوف نفق عميق طو يل، أوغلت فيه نفسه ومشاعره ودنياه.

ولم يتنبه إلى ان خصمه قد اقتيد مع حارسه إلى السجن، وان اهله قد خرجوا وراءه صامتين.. ظلّ مطرقا لاينبس بكلمة.. إلى ان قال له القاضي.. سيأخذ الحكم مجراه إلى التنفيذ خلال أيام.

واجتمع في الساحة التي ينفّذ فيها الحكم مئات من الناس.. فهذه اول مرة يشهدون فيها تنفيذ حكم كهذا.. قلع عين.. لأن الجاني قلع عين المجني عليه.. كثيرون كانوا من غير السعوديين، الذين لم يسمعوا قط بحكم كهذا في حياتهم، أو فيما قرأوا من قصص الجنايات والأحكام.. كانوا يتساءلون مندهشين: (كيف.. كيف يحكم على انسان بقلع عينه..؟ هذا ما لم يسمع به احد قط.. فاذا قال له أحد من المواطنين ان المحكوم عليه قد قلع عين المجني عليه عامدا وان هذا هو حكم الشرع.. عاد يقول: ولكن.. لماذا لايغرّم؟ لماذا لايسجن؟ لماذا

لايدفع اهله أي مبلغ يريده المجني عليه؟

وسمع الحوار واللغط كثيرون، كما سمعه شيخ هرم، لاحظ بعضهم انّه كان يتمتم هامسا، بآيات من القرآن ثم رأوه يتقدّم من أحد الذين اسرفوا في الكلام من غير المواطنين وقال: قال الله سبحانه: (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن، والسن بالسن والجروح قصاص، فمن تصدّق به فهو كفّارة له، ومن لم يحكم بما انزل الله، فاولئك هم الظالمون).. ثم رفع صوته جهيرا مرتعشا وهو يقول: (ولكم في القصاص حياة ياأُولي الألباب لعلّكم تتقون).

وتلامحت حافلة الاسعاف، وهبط منها من قال الناس انّه الطبيب، أو انّه الرجل الذي سينفّذ الحكم ثم وجد من قال: بلى.. هو الطبيب. ولكنّه ليس الذي ينفّذ الحكم.. ليس هو الذي سيقلع العين.. انّه سيحقن ما حول العين بحقنة بنج، تخّفف عليه الاحساس بالتنفيذ.

وغاصت قلوب الناس في صدورهم.. واحتبست انفاسهم.. وهم يرون الجاني يكاد لايستطيع الوقوف على قدميه وهو يمشي إلى الساحة بين حرّاسه.. وتزاحموا بحيث كادوا يتداهسون، ليروا كيف يتم تنفيذ الحكم.. و بدأ من ظنّوه طبيبا، يستعد بحقنته لمباشرة عمله.. كثيرون اغمضوا عيونهم اذ بدالهم انهم لايطيقون أن يروا هذا المنظر الرهيب.. وتساءل بعضهم.. أين المجني عليه؟ أتراه سيشهد تنفيذ الحكم؟

ووجد من أشار بسبابته، يقول: هو ذاك.. اما ترى ذلك الشاب الذي يعصب عينه اليسرى.. انّه هو. هو الذي قلع الجاني عينه.. وهو الذي اصرّ على طلب القصاص.

ووقف الضابط المختص، يقرأ على الناس حكم المحكمة، والأمر السامي بتنفيذه.. واشرأبّت الأعناق ترى وتسمع، وتترقب.. وجمدت الأ بصار على الجاني، وأمامه الطبيب بحقنة البنج في يده.. وإلى جانبه هناك المجني عليه واقفا معصوب العين.

وفجأة، شق الصفوف، ومزّق الصمت الرهيب، صوت يصيح: دعوني.. دعوني اصل إلى سالم إلى.. والتفتوا يرون رجلا حافيا، يلفح رأسه بشماخ حائل اللون، وعلى كتفه عباءة قديمة بالية.. لف ذيلها وحمله باحدى يديه يركض إلى المجني عليه.. و يتهالك على الأ رض امامه.. وهو يقول: (اسمع.. هذه خمسون الف ريال.. خمسون الف ريال هي كل ما استطعت ان اجمعه إلى أن بلغت هذا العمر.. عمر ابيك ياولدي.. و والله، والله اني لا اعرف خصمك، ولا تجمعني به صلة.. ولا عرق.. ولا جوار.. ولا رحم.. ابدا.. عمري لم ار وجهه إلاّ حين رأيتهم يسحبونه إلى الساحة.. خذها ياولدي.. حلالا.. خذها واعتق هذا الخصم لوجه الله.

ولم يملك سالم إلاّ ان يجلس امام الرجل العجوز.. وان يرى رزم النقد.. وان يسمع العجوز يعدّها.. الف.. الفان.. ثلاثة.. عشرة.. عشرون. اربعون وهذه خمسون.. ثم يقول عدّها ياولدي. ولله انها خمسون الفا بالتمام والكمال.. والله لااملك غيرها.

وتقدّم إليه الضابط يسأله: ولكن..من؟ من انت؟

وقال العجوز: انا.. من انا؟ ياالله.. ما اعجب سؤالك؟ اما تعرفني؟

وقال الضابط مندهشا: والله ما رأيتك قط.. قل لي.. ذكّرني.. ما اسمك.. وضحك العجوز ضحكة صاخبة.. ثم احتبس صوته واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول: اسمي.. اسمي ياوليدي.. اسمي.. انسان.

ورأى الناس سالماً، يقف ذاهلا.. ورأى القريبون من موقفه الدموع تنهل من عينه السليمة.. وسمعوه يقول في صوت يختنق.. وانا ياعم.. انا أيضا انسان.

ورأى الناس الطبيب.. يهرع إلى حافلة الاسعاف، و يعود بحقيبة، و ينحنى على الجاني، الذي سقط مغمى عليه وكما شق العجوز الزحام، في دخوله.. رأوه يشقه خارجا.. يسحب عباءته البالية و يصلح شماخه الحائل ويمشي خطوات إلى سيارة نقل قديمة، أدار محركها، واستدار بها، بين الزحام.. وهو يسمع هتافات المئات يصيحون.. انسان.. والله انسان.

الوحش الصغير





الوحش الصغير

طوال الأيّام التي قضتها (عبير) في انتظار يوم زفافها بعد ان عقدوا لها على الشاب الذي ارتضته بعد ان سمح ابوها بأن يراها وان تراه، كانت ـــ مع شعورها بالفرحة الغامرة والتوقعات السعيدة ـــ لا تملك إلاّ أن ترتعد فرقا، كلّما خطرت لها فكرة الحمل والولادة.. كان يصعب على ذهنها ان تتصوّر كيف يمكن لفتاة ـــ أي فتاة ـــ ان تلد طفلا بعد تسعة شهور من الحمل، بتلك الطريقة التي طالما سمعت امّها تحدّثها عنها يوم ولدتها هي بالذات.. اذ تعسّرت ولادتها فاضطر الطبيب المختص إلى اجراء تلك العملية التي يسمّونها (القيصيرية).. وهي شق البطن واخراج الجنين، ثم البقاء في المستشفى اياما إلى أن يلتئم الجرح.. فاذا استبد بها القلق واشتد فزعها من مثل هذا المصير اذا ما قدّر لها أن تحمل، تلجأ إلى المصحف، حيث تقرأ احدى السور، ثم ترفع يديها وتدعو الله في كثير من التضرع والخشوع، ان يرحمها فيجنّبها الحمل والولادة كلّيا.. وتسمعها خالتها وهي ترفع صوتها بضراعتها، فتضحك ساخرة بأفكارها وأوهامها ثم تردف قائلة: (ومن هو الزوج الذي يرضى ان يعيش مع زوجة لا تنجب له من يحيى ذكره من الأولاد والبنات؟).. ولا تجد عبير ما تجيب به سوى: (يستطيع ياخالتي ان يطلّقني، وان يتزوّج اخرى.. أو أن يتزوّج اخرى، وأظل أنا معه.. وعليّ خدمة البيت، وحتى خدمة اطفاله منها اذا شاء).

ومع مطلع شهر رجب، اقيمت حفلة الزفاف، وما كاد الحجاج يبدأون في شد رحالهم إلى بلادهم بعد النزول من عرفات حتى كانت عبير حاملا.. وكان زوجها لايكاد يعود من المدرسة التي يدرّس فيها اللغة العربية، حتى يسرع اليها حيث تكون في المطبخ، أو غرفة النوم، وعلى وجهه اشراقة الفرحة الغامرة بأنّه سيصبح ابا، و يتمنّى أن يرزق غلاما، يسمّيه (أمجد).. فهو منذ اليوم (ابو

أمجد) .. وهي (أم أمجد) .. ثم يأخذ في تدليلها ومداعبتها، ثم، بعد أن يخلع ثيابه و يرتدي ثوب البيت، يستلقي على السرير العريض و يقول: (ياأم أمجد.. أكاد أموت جوعا.) فتنهض مسرعة وهي تردد في نفسها.(اما أنا.. فأكاد اموت خوفا من هذا الأمجد) فاذا جلسا إلى المائدة يتناولان وجبة الظهر، وسمعته يتحدّث عن اليوم الذي يرى فيه أمجد جالسا على الكرسي يتناول طعامه معهما، تلتزم هي الصمت، وفي ذهنها ان أمجد، سيكون هو الوحيد الذي يجلس في مكانها امام أبيه.. اما هي، فليس لديها شك، في انها ستكون هيكلا عظميا تحت التراب.

وبمرور الأيام، وتكامل الحمل، كانت مخاوف عبير تتزايد، بحيث لم تعد تطيق ان تسمع كلمة واحدة من زوجها او حتى من امها أو خالتها عن يوم الولادة المرتقب.. فاذا حدث ان زارتها احدى لداتها من الفتيات اللائي لم يتزوّجن بعد، و بدأت تتحدّث عن المولود المنتظر، متمنّية لها السلامة والعافية.. كانت عيناها تحتقنان، ثم ينهمل الدمع على وجنتيها، لتقول في صوت مختنق: (أي سلامة وأي عافية..؟ وهو لن يجيء إلاّ لأذهب أنا إلى القبر)... وقد تسمع صديقتها تستعيذ بالله من هذه الأفكار السوداء والفأل السيء.. وتنصحها بألاّ تكرر مثل هذه الكلمات ولكنّها لاتملك إلاّ ان تجهش باكية، وان تضع وجهها بين يديها، ثم بعد ان تبكي طو يلا..تتنهّد وهي تقول: (ليتني لم افكّر..ليتني لم اوافق على هذا الزواج..).

و باقتراب شهر شعبان، وهو الشهر المقدّر أن تلد فيه، لم يعد أحد من أهلها، بما فيهم زوجها وأبوها يجهل ما تعانيه عبير من المخاوف والأ وهام التي بلغت حدا استلزم عرضها على الطبيب، ولم يجد الطبيب تفسيرا للحالة إلاّ انها صغيرة السن، ولابد لمثلها ان تعاني من هذه المخاوف، ولكنّها لا تلبث ان تزول بمجرد ان تضع حملها وترى الطفل بين يديها..

واستيقظت ذات صباح في اواخر شهر شعبان، على آلام المخاض، فأسرع زوجها بالخروج ليعود بأمّها وخالتها، ولكن ما كانت تعانيه عبير من هذه الالآم بدا لها وكأنّه تمزيق لاحشائها.. ولم يعد يساورها شك في أن هذا الجنين وحش

رهيب، لن يغادر أو يخرج من بطنها حتى يكون قد التهم آخر مزقة من احشائها.. ولم تعد تستطيع ان تخفي مشاعرها، فكانت تردد باكية وفي صوت يستغيث و يستنجد: (لا..لايأمّي.. ليس هذا طفلا.. انّه وحش.. وحش.. ينهش بأسنانه ومخالبه كل شيء.. وحش يكرهني.. يريد أن يقتلني.. وحتى اذا خرج إلى الدنيا لابد.. لابد أن يقتلني.).

وحتى عندما كان زوجها يقود السيارة إلى المستشفى، كان يسمعها تصرخ: (وحش.. وحش يأمّي.. يريد أن يقتلني..) ثم تسترسل في بكاء تتخلّله نفس الكلمات، تلاحقها بالضراعة إلى الله أن يرحمها من هذا الوحش. فلا يسعه إلاّ أن يزيد من سرعة السيارة ولا يسع الأم والخالة إلاّ أن يضرعا إلى الله هما ايضا ان (يمتعها بالسلامة) قائلتين: (كلّها ساعة أو ساعتان، و ينتهي الأمر).

وأكد الطبيب مرة أخرى ان الحالة التي تعانيها عبير ليست اكثر من مخاوف تنتاب الزوجات الصغيرات امثالها، وان الأمر كلّه سينتهي إلى خير بمجرّد ان تضع.. واضاف:(لقد أحسنتم باحضارها الآن.. ولو تأخّرتم قليلا. لوضعت في المنزل أو ربما في السيارة ايضا).

وصدق تقدير الطبيب.. فقد وضعت عبير غلاما بعد اقل من ساعة من ادخالها إلى المستشفى.. ولم يحتج الوضع إلى عملية قيصرية، ولا إلى جهد خاص بالالآت اكثر من استقبال الجنين.. ولكن عبير ظلّت تردد:(انه يكرهني يأمّي.. انه وحش.. وان كان قد جاء إلى الدنيا، فهو لن يتركني أعيش.. سيظل يلاحقني إلى ان يقتلني في يوم قريب أو بعيد).

وسمع الطبيب اقوالها فضحك.. وغمز مَنْ حولها بعينه، ليخرجوا من الغرفة.. وهناك قال لهم (كلامها خطرفة نتيجة للقليل من التخدير الذي كان لابد ان نخفف به من الآمها..) ثم ارسلهم مع الممرضة ليروا الطفل الذي هتفت هذه وهي تدخل بهم عليه: (انظروا.. انه جميل كالقمر.. كأمه..) وضحكت. ثم اضافت: (ولا اظنك تغضب ياسيد ماجد اذا لم اقل انّه كأبيه).

وحين ارادوا نقلها إلى المنزل بعد ثلا ثة ايام من ولادتها، وقفت عبير من طفلها

موقفا غريبا.. فقد اصرّت على الاّ تركب معه في سيارة واحدة.. فهي تخاف منه.. تخاف ان يفعل أي شيء ليقتلها.. ولم يغيّر من موقفها غضب والدتها أو أبيها أو خالتها.. وحسم زوجها ماجد الموقف، بأن اصطحب خالتها ومعه الطفل، وترك عبيراً ووالدها وأمّها يستقلون سيارة أخرى.

وحين رأت السرير الذي جهّزوه للطفل في غرفة نومها رفضت، باصرار بلغ حد البكاء مرة أخرى أن تنام معه في الغرفة، فاضطروا إلى نقله إلى غرفة اخرى، حيث ينام مع والدتها.

ومن طبيعة الأشياء ان يجوع الطفل وأن يبكي طلبا للرضاع.. وكانت تسمع بكاءه يخترق جدارا يفصل بين غرفتها والغرفة التي ينام فيها.. فظلت ترفض ان ترضعه، ولكنّه استمر في البكاء، فجاؤوه بها وظلّوا يتوسلون اليها ان ترضعه مرة واحدة فقط إلى أن يتاح لهم شراء رضّاعة ولبن في الصباح، اذ يتعذّر ذلك في الليل.. فأدنته من صدرها، وأرضعته، دون أن تلقي نظرة على وجهه.. ظلّت طوال الفترة مشيحة بوجهها عنه.. لا تريد أن تراه.. وأخذوه عنها إلى سريره..ورأوها تستغرق في نوم عميق.. فخرجوا من الغرفة على رؤوس أصابعهم عملا بنصيحة الطبيب الذي اوصى بأن يحاولوا تهدئة اعصابها بقدر ما يستطيعون.

وقالت لزوجها..(قلت لك الف مرة انّه عدو.. وانه يريد ان يقتلني حتما.. وحين خرجت البارحة سمعته؟..

قالت: (وهل كنت انا نائمة كل الوقت؟ الم اتحدث اليك؟ الم تتحدّث انت بشيء؟)).

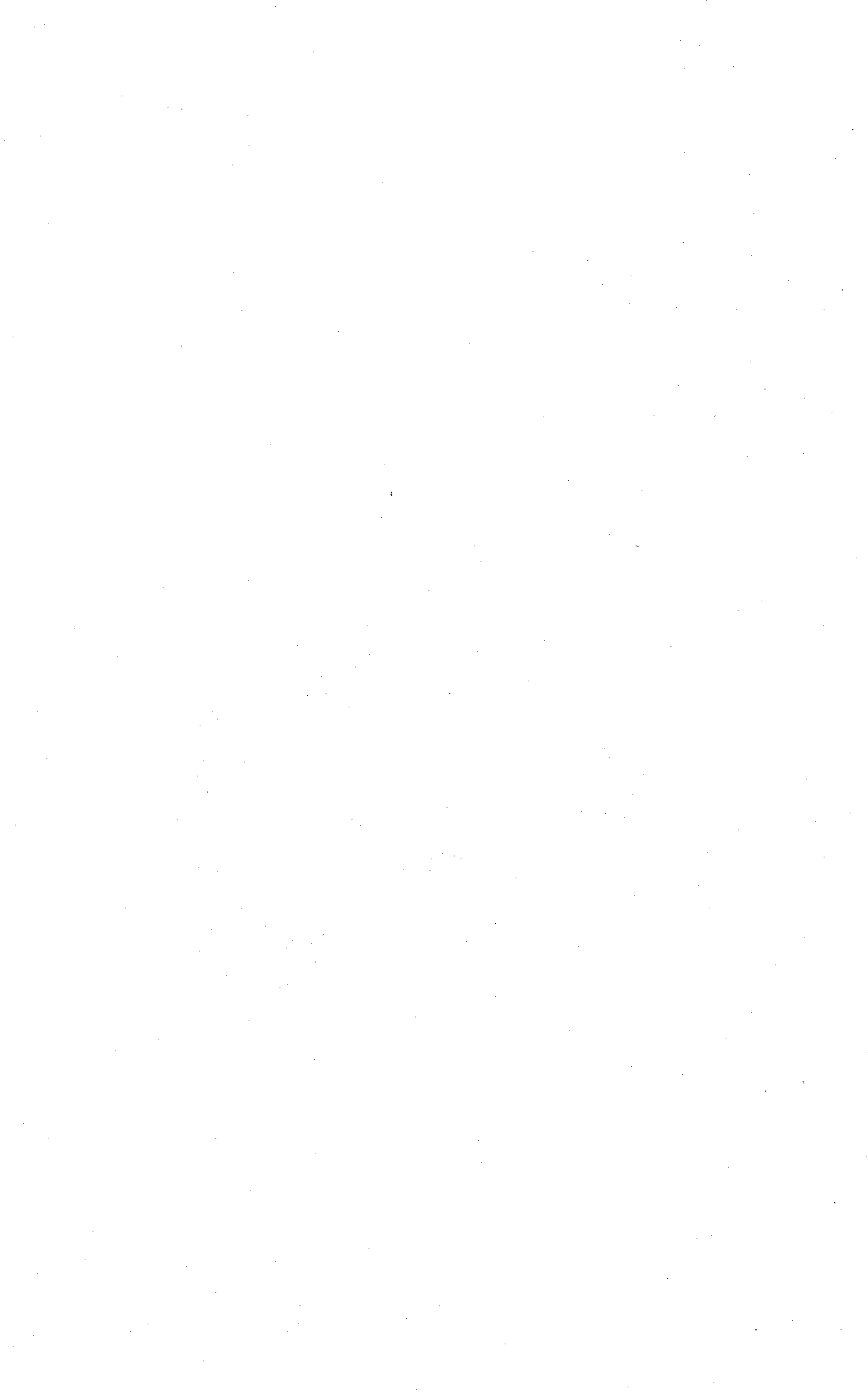
قال وهو يضحك:(تتحدّثين وانت مستغرقة في النوم مستحيل بالطبع.. منذ تزوجنا حتى اليوم لم اسمعك تتحدثين في نومك.. وانا.. ما الذي يجعلني اعكّر صفو منامك؟

قالت: (وأمجد.. طفلي.. ولدي.. لماذا اخذتموه بعيدا عنّي؟).

قال: (هذا امرك ياحبيبتي.. منذ ولد وانت لا تريدين ان تريه.. ولذلك فقد وضعنا له سريره في الغرفة المجاورة.

قالت: (وهو يبكي الآن.. أليس كذلك؟).
قال: (لأنّه جائع.. لأنه يريد أن تضميه إلى صدرك الحنون.)
قالت: (مسكين.. لقد ظلمته.. كنت.. كنت في عالم غريب.. من يصدّق اني رأيت مثل هذا الحلم الرهيب).





مبروك ياماما





مبروك ياماما

كان حديث الشابات والعجائز من جيران ربيعة، في سهراتهن أو في أي لقاء عابر، هو موافقة ابيها على زواجها رغم انها لم تتخطّ الرابعة عشرة من عمرها بعد، وحين يحتدم الحوار بينهن، عن الأسباب وعن موقف امّها ـ وقد ظلت أكثر سخطا من كل مخلوق على هذا الزواج ـ كان ينتهي بأن والد ربيعة لم يكن في وسعه أن يرفض رجلا ليس في البلد من يعرف أنّه واسع الثراء، اذ كان الوارث الوحيد لثروة ابيه الطائلة ولأعماله الناجحة، واقلّها ذلك المعرض الكبير لبيع الأثاث الفخم، الذي ندر أن تتزوّج فتاة دون أن تحلم بأن يكون اثاث منزلها منه.

وقد تقول احداهن: ان هذا الزوج الثري، قد تزوّج وطلّق مرتين، فتجد من يقول لها: (وهل هو الوحيد الذي يتزوّج ويطلّق مرة أو مرتين أو حتى ثلاث مرات.. عنده المال، ومعرض الأثاث وحده كاف لاغراء أي فتاة بالزواج منه لتجد نفسها في غرفة نوم لا تحلم لو عاشت في بيت ابيها طول العمر).

وتمّ زواج ربيعة من الثري الوجيه ـ كما سمّته الصحف ـ «صالح عبدالقادر محمود»، وكانت حفلة الزفاف رائعة، يمكن ان ترضي غرور كل فتاة، وما كادت الحفلة تنتهي حتى كان والد ربيعة وامها وصويحباتها يلحقن بها إلى المطار، حيث طار صالح عبدالقادر محمود ومعه عروسه ربيعة، لقضاء شهر العسل في الريفيرا الايطالية، حيث قيل، انّه ـ منذ حياة ابيه ـ تعوّد ان يقضي فيها جانبا من فصل الصيف.

ولم يمض شهر على عودتهما من رحلة شهر العسل، حتى ظهرت بوادر الحمل على ربيعة، ومنذ وضعت أول اطفالها صبيا، لم تنقطع عن الحمل والولادة كل عام، إلى أن بلغ عدد من انجبه الزوجان ثلاثة ذكور وبنتين.

ولم تكن ام ربيعة، تتجنّب التدخل بالتساؤل عن احوال ربيعة، ما لم تكن ربيعة تخفي عن أمها الكثير مما يقع بينها وبين زوجها، ولكن كان من المتعذّر أن تفضي بكل ما ينغّص حياتها، لأنها بغريزة الأمومة، وبمشاعر خوفها على مصيرها وهي أم لخمسة أطفال، وهي تعلم رقة حال اسرتها، ظلّت تفضّل أن تنطوي على ما في واقعها من مرارة وألم، وفي نفسها ان زوجها، لابد ان يعود إلى صوابه وان يدرك مسؤوليته عن بيته واسرته ومستقبل أطفاله، ان لم يكن اليوم وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، فبعد بضع سنوات.. والصبر مفتاح الفرج.

وحين بلغت ربيعة السابعة والعشرين من العمر كان ابنها البكر قد بلغ الثانية عشرة من عمره وابنتها الصغرى في الخامسة.. وكان زوجها يدب في اوائل العقد الخامس من عمره.. وخطه الشيب، وتجمعت حول عينيه خطوط التجاعيد، ولكنه ظلّ ـ كما عرفته ربيعة منذ ايام زواجهما الأولى، المخلوق الذي لايعرف حدا للانفلات، واعطاء النفس هواها مع مجموعة من اصدقائه، ومنهم من لايختلف عنه في سيرته وقد ظلّوا يلازمونه منذ كان ابوه على قيد الحياة، ومنهم من قد يميل إلى شيء من الاعتدال ولكنّه لايجد بدا من مسايرة المجموعة، لأن له هدفا لا سبيل له إلى تحقيقه إلاّ بهذه المسايرة.. فاذا وصل إلى هدفه ابتعد، أو عاد إلى بلاده، اذا كان ممّن تجتذبهم إلى المملكة حالة الازدهار والرغد وفرص العمل والاستثمار.

وكان يسع ربيعة ان تلتزم الصبر، وحين يطول غيابه عن المنزل في رحلاته المتوالية إلى الخارج، التي ظلّت تصدّق ربيعة انها لأعمال تجارية، وللتفاوض مع الشركات.. ولكن هذا الغياب، يوما واحيانا إلى ثلاثة أيام ـ كان يتوالى حين يكون مقيما في البلد، ولم يكن يتعذّر عليها ان تعرف الكثير من الخدم الذين لايقولون كل الحقيقة، ولكن ما يقولونه، على غموضه ومحاولة التظاهر بجهل تفاصيله كان يكفيها لتدرك ان زوجها: (أبا صلاح) كما كانت تسميه منذ رزقت منه ابنها البكر، ما يزال على ما كان عليه، حتى يوم اصطحبها لقضاء شهر العسل في الريفيرا.. اذ لم تستطع ان تنسى انّه تركها في الفندق، وغاب يومين كاملين دون ان تعلم عنه شيئا، ولم تستطع ان تفهم من الاستعلامات في الفندق

أي شيء، لأنها كانت تجهل اللغة، بل تجهل حتى كيف تطلب نوعا معينًا من الطعام.

كان ابنها صلاح يوشك ان يتم مرحلة الدراسة الابتدائية.. فهو في العمر الذي يتنبه فيه إلى ما يقع حوله في الأسرة، أو في الحياة. ورغم ميله إلى التزام الصمت، فقد كان لايخفي استغرابه من أن اباه يغيب عن البيت كثيرا، و يسافر كثيرا، وحين يذهب إليه في المكتب ـــبعض الأحيانـــ يعود ليقول: (قال لي الحاجب: ان عنده اجتماعا ولا ينتهي الاجتماع إلاّفي الساعة العاشرة) ثم يضيف قائلا:

(وعلى الباب ياماما ضوء احمر، تعلمّت من رؤيته مضاء ان الدخول ممنوع) وقد تسمع ام ربيعة ما يقوله حفيدها، فتطلق لسانها بما يناسب ما تسمع، ولكن ربيعة تدير الدقّة إلى حيث تتوفّر الأعذار والمبررات، التي تعلم انها محض اختلاق، تلتمس به الخلاص من الحاح امها عليها بأن تضع حدا لهذا الصبر الذي يأكل شبابها، ثم لاتملك ان تسلّم ـــبينها و بين نفسهاـــ وهي تقف امام المرآة بأن امّها على حق، فهي ما تزال في عنفوان شبابها، ولكن ما قيمة هذا الشباب، وزوجها لا يراه ولا يشعر به.. وتمر بذهنها صور وذكريات عن حياة من تعرف ومن تزوّجن من صويحباتها.. انهن يخرجن مع ازواجهن في سياراتهن إلى البحر كل اسبوع، و يقمن حفلات لذكريات ميلادهن أو ميلاد ابنائهن، يحييها ازواجهن بالمرح والصخب و يقلن لها انها تستمر حتى الفجر.. اما هي.. وتتنهّد و يتطاير من عينيها بريق الاحتدام، وقد تنذرف منهما عبرة تملأهما، وتستقر عند اهدابهما.. اما هي، فتحت تصرفها سيارة فخمة، وكثيرا ما تضطر ان تصطحب الأولاد إلى البحر، ولعلّها تقيم لكل منهم حفلة بذكرى ميلاده.. ولكن ما اندر المرات التي يحضرها ابو صلاح.. فاذا تساءل بعض المدعوات عنه تعوّدت ان تبتسم، لتقول: (اضطره العمل للسفر إلى بيروت، يحتمل ان يصل بعد منتصف الليل).

وفي ذات ليلة، من هذه الليالي التي تقضيها امام التليفزيون بعد ان يذهب الأولاد إلى فراشهم، رن جرس التليفون وسمعت صوته يقول:

ـــربيعة.. انا صالح.

ــ اهلا.. متى وصلت؟
ــ بعد الظهر.
ــ والعمل حال دون أن تتصل؟
ــ العمل من جهة ياربيعة.. وسبب آخر.. ستعرفينه في الرسالة التي تصلك الآن مع السائق.
ــ خير ان شاء الله.
ــ الخير فيما يختاره الله.. سامحيني ياربيعة.
ــ أسامحك!
ــ في امان الله.. قبّلي لي الأولاد.

واغلق الاتصال.. وعصف بها الارتباك، وظلّت كلماته..(سامحيني.. وقبلي لي الأولاد تدوي في اعماقها..(وسبب ستعرفه في رسالة).. ماذا ينوي أن يفعل؟ ماذا حدث؟ هل ينوي الانتحار؟ مستحيل.. الأرجح انه يعتزم القيام برحلة طويلة.. ربمّا إلى هونج كونج.. فقد سمعت منه منذ شهور انه يتطلّع إلى الحصول على توكيل.

ولم يطل انتظارها، فقد جاءت الرسالة اسرع ممّا قدرت لمسافة الطريق بين الدار التي تسكنها وبين مكتبه في الشارع الكبير.. ارسلها قبل ان يحدّثها.

ولم تكن رسالة بالمعنى المألوف.. كانت ورقة موقّعة بتوقيعه، وفيها شاهدان من اصدقائه القدامى، تنص على انّه قد طلقّها طلاقا بائنا لا رجعة فيه.. ولم تحتج ان تقرأها مرة أخرى.. ولكن ما ادهشها انّها لم تشعر بهذا الزلزال الذي تشعر به أي امرأة تفاجأ بالطلاق.. غرقت في صمت طويل والرسالة في يدها.. ووجدت نفسها تردد في ضحكة ساخرة: الخير فيما يختاره الله.

وفي اليوم التالي، تلقّت منه ما يمكن ان يسمّى رسالة في هذه المرة.. خلاصتها انّه افرغ لها الدار التي تسكنها، ونقل ملكية السيارة إليها، وسوف يستمر على دفع كل ما تحتاجه ويحتاجه الأولاد دون أي نقص.

وكان من الطبيعي ان تخبر والدها ووالدتها، وان يسمع بالخبر الكثيرات من

صديقاتها، وان يسمع به ابنها صلاح و بقية الأ ولاد.. وردّد والدها: كلمة (الخير فيما يختاره الله) امّا امّها فلم يمنعها ان تزغرد إلا تحسّبها لمشاعر الصغار.. ومع ما ابدته الصديقات من الأسف لها، فقد وجدن الفرصة سانحة، ليقلن انها ما تزال في ميعة الصبا، وانّها لا تكاد تخرج من (العدّة) حتى يتقدّم لخطوبتها الكثيرون.

ابنها صلاح وحده، بكى.. ولكنّه لم يملك ان يقول: (ياماما.. انا موجود..) ثم أخذ يعانقها و يكرّر: (انا موجود ياماما.. لاتخافي ابدا).

وانقضت شهور العدة، ثم مضت شهور اخرى، والحياة في بيت ربيعة على ما هي عليه، لم ينقص من رغدها شيء.. وطلاقها من زوجها لم يحدث الفراغ الذي تشعر به هي أو أحد من الصغار.. فقد مضت سنوات طويلة، وهم لايرون اباهم إلاّ لحظات،وقد تمر أيام وأسابيع لا يعرفون عنه شيئا إلاّ انّه يتصل من هذا البلد أو ذاك من البلدان التي يسافر اليها، ليقول لهم انّه بخير.. وعلى ما جرت به عادة كثير من السيدات اللائي يطلقن من ازواجهن، ومعهن عدد من الأطفال، كان لابد لربيعة ان تستبعد تماما فكرة الزواج، وان تكرّس حياتها لتربية الصغار، خصوصا وأن أباهم لم يحرمهم من شيء.. وقد تقدّم لخطوبتها عدد ممّن تعرف انهم اصدقاء زوجها، و بعضهم أكّد ان صلاحاً نفسه رشحّها لهم، ولكنّها ظلّت ترفض، فاذا اخذت امّها تلومها وتذكّرها بشبابها وجمالها وانّه لايجوز ان تحرم نفسها من الزواج.. كانت تقول: (صلاح موجود.. وهو مع اخوانه يستحقون ان اضحّي بكل شيء من اجلهم).

ومرّت شهور.. يوم جاءها ابنها صلاح باكيا يقول انّه ذهب إلى مكتب ابيه، ورأى عنده صبيا في السابعة من عمره، قال له الخدم انّه اخوه.. وقد وصل مع امّه واخته منذ اسبوع.

وتوالت بعد ذلك الأخبار التي ازاحت الستار عن الحقيقة.. وادركت معها ربيعة ان ابا صلاح كان متزوّجا من هذه التي آن له ان يجيء بها إلى المملكة، ولم يكن في وسعه ان يقنعها بالمجيء الاّ بطلاقها.. وهكذا كان.

وانتصرت فكرة ام ربيعة، ومعها صديقاتها، فهي ما تزال في عزّ شبابها

وجمالها، وليس ما يمنع ان تتزوّج فعلا.. ولكن من الذي تطيب له الحياة معها وهي ام لخمسة اطفال؟ ثم ـــ وهو في تقديرها أهمّ ما يشغلها ـــ كيف يمكن ان تنسى صلاحاً وانّه موجود كما قال يوم طلاقها من أبيه.. كيف يمكن ان يستقبل هذا الفتى اليافع خبر زواجها وهو الذي سمع منها مئات المرّات انها ستعيش له ولاخوته طوال العمر.

ومرة أخرى تقدّم لخطبتها أحد اصدقاء زوجها.. لم يسبق له الزواج قط، وان كان قد تخطى الأربعين من العمر.. ليس من رجال الأعمال كزوجها السابق، ولكنّه محام معروف، و يتمتّع بمركز اجتماعي مرموق.

ووافقت على الزواج، وفي ذهنها ان ما يتم اليوم كان يجب ان يتم منذ سنوات، لو انها كانت تعلم الحقيقة التي ظلّت خافية عنها كل هذا الوقت الطويل.. وتسامع الناس بخبر موافقتها، وظلّ رنين جرس الهاتف يتوالى مستفسرا عن صحة النبأ.. فتردّد (الخير فيما يختاره الله.) واخيرا جاء صلاح من مدرسته، ووقف امامها صامتا لحظات، كانت خلالها تتوقّع ان تسمع ثورته وان ترى عينيه تمتلئان بالدموع.. ولكن.. ما أشد ما ادهشها انّه ارتمى على صدرها يعانقها و يقول:

(سمعت من ابي كل شيء.. قال انّه اخطأ عليك كثيرا.. ولابد ان تتزوّجي.. والعم شوقي رجل طيّب.. يحبّنا كلّنا، وانا.. انا ياماما سيرسلني ابي إلى امريكا.) ورفع إليها وجهه وعيناه مغرورقتان بالدموع.. وقال هامسا: (الف مبروك ياماما..).



أمل





أمل

انقضت سنتان منذ تزوّج وليس في جو حياته ما يبشّر بأنّه سيصبح أبا. ومع أن ذلك لم يكن يشغل باله في قليل أو كثير، ولعلّه كان يحمد الله عليه، اذ كان يجد من ظروف حياته ما يجعله يفضّل تأجيل قدوم الأطفال إلى فترة من الوقت، يتاح له خلالها أن يتماسك فيقف على قدميه، وعلى ارض ثابتة مستقرة، فان أمّه، واحيانا والده، لم يكفا عن التساؤل عن السبب في ما بدا لهم وكأنّه ظاهرة لابد أن تنال حظّها من الدهشة والاستغراب والتفكير. ولم يكن في وسعه بالطبع، أن يعلّل لهذه الظاهرة بشيء سوى أن الله سيرزقه ولدا أو بنتا عندما يشاء، وهو سبحانه على ما يشاء قدير.

وكاد ينطوي العام الثالث من حياته الزوجية، والحال على ماهو عليه، وفي منتصف هذا العام احسّ انّه اقرب إلى التماسك، وانّه يقف على قدميه واصبح اقلّ اعتمادا على والده، وان طريقه إلى مستقبل معقول بدا واضحا ما دام قادرا على ان يساير طبيعة الحياة الوظيفية، وان يندمج في الهيئة التي يعايشها باسلوبها رغم ما بداله من صعوبة الأمر في أول عهده بالعمل والكد في سبيل الرزق، ولكن حتى مع هذا الظرف المواتي والملائم في تقديره، لمجيء الطفل المنتظر، والذي كثر التساؤل عن اسباب اصراره على البقاء في علم الغيب، فان علاقته بزوجته لم يطرأ عليها أي تغيّر، فهو يحبّها، وما يزال قلبه يزدحم بالشوق إليها والحنين إلى لقائها عندما يحدث ان يسافر منتدبا إلى الرياض، و يضطر إلى الاقامة اكثر من يوم أو يومين. ومع انه لم يخطر له ان يتساءل، عن باعث هذا الشوق والحنين، حين يسمع أحاديث الشباب من اصدقائه عن فتور علاقاتهم بزوجاتهم بعد السنة الأولى ومجيء الطفل الأول وبشائر قدوم الطفل الثاني، إلاّ أنّه كلّما عاد من رحلاته، ورآها تقف لاستقباله، وعلى قسماتها تلك الابتسامة التي تملأ وجهها صباحة

و بشرا، لايسعه إلاّ أن يسلّم بانها جميلة، بل وفاتنة، وان مثل هذا الجمال الذي يزداد تفتحا واشراقا، مع ما اغدقه الله عليها من رقّة احساس، ورهف مشاعر، وطلاقة روح.. كل هذا، لابد أن تكون له القدرة على استثارة لواعج الشوق والحنين، في قلب أي زوج مستقيم السيرة مثله.. يحبّها.. هكذا استقرت الأمور في نفسه، فكيف يستطيع أن يصغي إلى تلميحات امّه بأن من حقه أن يتزوّج أخرى، وان ابنة خالته قد نهدت، واشرق لها جمال أخّاذ بعد ان تخطت الخامسة عشرة ولو رآها اليوم حين تزورها مع خالته، لأدهشه أن تصبح تلك الصبية ذات الوجه الممصوص والعينين الغائرتين والتي كان يضيق بعبثها بأوراقه وكتبه واقلامه حين كان ما يزال في المرحلة الثانوية، هذه الغادة التي التفّ قوامها، واكتنزت قسماتها، وشاع فيها ضوء الشفق، وفي عينيها ومضة الذكاء والمرح.. ثم، والأهم من كل ذلك انها قد ورثت كل الثروة التي تركها ابوها، ومنها تلك العمارة المكوّنة من ستة ادوار، وفي كل دور اربع شقق.. كيف يهون عليه ان تذهب لمن يتزوّجها بعد وقت لن يطول.

كلاّ.. لن يستطيع ان يصغي إلى شيء من هذا، ولا سبيل إلى أن يتزوّج أخرى، وان يحطّم قلب زوجته التي يعلم كيف تحبه، وتتفانى في ارضائه، وليس ذنبها انها لم تنجب، فهذه الأمور مرهونة بارادة الله، ومن يدري، فقد يكون هو عقيما كالعم طه الذي تزوّج اربع مرات، آخرها منذ سبع سنوات، وقد نيّف على الستين، ومَنْ تزوجها فتاة في الخامسة والعشرين، ومع ذلك لم يرزقه الله مولودا، رغم كل ما انفق من مال لعلاج حالته منذ كان شابا حتى اليوم. اما الثروة والعمارة المكوّنة من ستة ادوار، فلا ينكر بينه و بين نفسه انّه يتمنّى لو ان له شقة واحدة منها، فقد ارهقته اجرة السكن، وحرمته من أن يشتري الكثير مما يراه في بيوت زملائه من الموظفين، وعلى الأخص ذلك المسجّل الضخم، بسمّاعتيه الكبيرتين.. ولم يعد مما يتفّق مع سنّه في السابعة والعشرين، أن يتقبّل المزيد من مساعدات أبيه، خصوصا وهو يرى تكاليف الحياة قد ارتفعت ومسؤوليات ابيه نحو أخو يه، واخته قد اصبحت تطالبه بالمزيد من الانفاق، اذ لابد له أن يحوّل مالا يقل عن نصف راتبه إلى امريكا اليهما حيث يدرسان على حسابه هنـــاك ، اذ

لم يستطيعا أن يكونا من اصحاب المجاميع التي تخولهما حق الابتعاث، وهذا إلى أن والده لم يكن ممّن يستطيعون الادخار، أو ممن يستطيعون أن يزيدوا دخلهم بهذه الطريقة أو تلك من الطرق التي يسمع عنها، و يسمع أباه يستعيذ بالله منها.

ومرّت الأ يام، واعتاد أن يطوّح بكل ما يسمع من امّه عن موضوع الأطفال، وأن يتجاهل جميع التلميحات عن ابنة خالته وعن الذين يتقدّمون لخطبتها وما سوف يخسره حين تتزوّج سواه.. وظلّت حياته مع زوجته تسير في دعة واستقرار، وظل تعشّقه لها لا يفتر بل يزداد، فهو يكاد لايطيق أن يطيل غيابه عنها، واذا احتوتهما الشقّة، وانقطعت علاقته بمتاعب النهار، لم يكن امتع عنده ولا اجمل من ان يستلقي على فراشه، وهي إلى جانبه تترجم له القصة التي تقرأها بالانجليزية التي لم يستطع أن يتقنها، إلاّ في حدود بكالوريوس التجارة من احدى الجامعات العربية، بينما كانت هي تتكلمها وتقرأها افضل مما تقرأ العربية، لأنها تلقّت تعليمها في مدرسة انجليزية، وفي القسم الداخلي، منذ الخامسة من عمرها.. فاذا اجهدتها القراءة، وتوقفت نسمات الصيف من البحر، فما اسرع ما ينتقلان إلى الشرفة الصغيرة المطلّة على الشارع الطو يل، وقد ساده السكون، ولم يبق من معارضه الكبيرة مفتوحا، سوى محل لبيع المرطّبات وعصير الفاكهة، اعتاد ان يستقبل عملاءه إلى منتصف الليل، وما اقدرها على اختيار الموسيقى والأغاني التي يحبّها، فهي تضع في المسجل الصغير، هذا الشريط أو ذاك، وفي اللحظات التي يمتلىء فيها جو الغرفة المظلمة بالأنغام، تذهب هي لاعداد فنجان من الشاي، تدخل به الشرفة، يسبقها وقع خطواتها الرشيقة، وصوتها الأغن الرقيق، تصاحب النغم الذي تسمعه، وتضفي عليه من رقتها ونضرة شبابها ما يجعله ينسى المسجّل، ليصغى اليها، في اعجاب يبلغ أحيانا حد النشوة الطافرة، فلا يملك إلاّ أن يلقي نظرة على الشارع، واضوائه الخافتة، والعمارات المشرئبة امامه، و يتساءل بينه و بين نفسه، كيف يمكن ان يحطّم هذا المخلوق الملائكي، وهذا الفردوس بر بيعه الدائم، من اجل اطفال، لم يرد الله ان يرزق بهم.. ثم ما أهمّية أن يكون له طفل ؟ صحيح انّه كثيرا ما يغبط زملاءه وهو يرى اطفالهم يدرجون بين ايديهم، ولكن ماذا يمنع أن يشبع حنينه للأطفال بطريقة كثيرا ما اعتزم أن يقدم عليها،

فقد لجأ اليها كثيرون ممّن حرموا نعمة الانجاب.. ماذا يمنع أن يتبنّى ولدا أو بنتا، حين يسافر لقضاء اجازته في الخارج كما اعتاد ان يفعل منذ سنتين.

وفاتحها ذات مساء، حين كانت تعد حقائبهما للسفر إلى الخارج، صباح اليوم التالي،.. قال لها انّه لايرى ما يمنع أن يتبنّيا طفلا، اذا كانت لا تضيق بتربيته والعناية به.. وكانت هذه اول مرّة، يتحدّث فيها عن الأطفال اذ كان يحرص على أن يتجنّب حتى مجرد الاشارة إلى هذا الموضوع، وعلى الأخص بعد ان مرّت سنتان على زواجهما دون ان يظهر أن هناك أملا في ان يرزقا هذا المخلوق الذي يمن الله به على كثير ممن يتزوّجون، في نهاية السنة الأولى من الزواج.. وكان يتكلّم، وظهرها إليه، فرأى كيف جمدت حركة يديها لحظة طويلة، كانت كافية ليدرك انّه لم يحسن اختيار الظرف لمثل هذا الكلام، وكاد ينتقل إلى موضوع آخر، حين قالت: (ولكن ما الذي يمنع ان نعرض انفسنا على طبيب مختص في الخارج، لنعرف السبب، فاذا كان مرضا، فانه لايعدم علاجا، وان كان قدرا محتوما، فلكل حادث حديث).. ثم اضافت: (أعلم انّك تتمنّى الأطفال.. وما اظنّك تشك في اني انا ايضا اتمنّاهم.. وقد طال انتظارنا لهم، ولولا أنك سبقتني إلى الكلام، لكنت انا التي تقترح عليك مراجعة الطبيب، عندما نصل بيروت).. ولم يسعه وهو يسمع منها ما تقول، إلاّ أن يقفز إليها، وأن يأخذها بين ذراعيه وحين رفعت بصرها إليه رأى عينيها وقد جالت فيهما دموع، وترقرق فيهما هذا الاحمرار الذي يذكر انّه رآه مرّة وهي تعالج تقشير البصل، فلم ينس ما اضفاه على البريق الساحر الأخاذ من معنى التوقّد والاشتعال.

وحين كان يدخل معها عيادة الطبيب المختص في الخارج، كان يدور في نفسه، انّه على حظ لا يحسد عليه من الغباء، اذ ما الذي كان يمنع ان يعرض نفسه وزوجته على الطبيب، منذ بدأت امّه تعزف لحن زواجه من ابنة خالته.. وتذكّر انّه لم يفعل، لأنّه كان يخشى ان تكون نتيجة الكشف انها عقيم، مما قد يعطي امّه واباه فرصة الالحاح عليه بطلاقها، والزواج من غيرها.. ولا يدري لم لم يخطر له على بال انّه هو الذي يمكن ان يظهر الكشف انّه عقيم.. ومط شفتيه وهو يفترض ان هذا محتمل، وعندئذ..

وانقطع حبل تفكيره.. حين دعتهما الممرضة للدخول على الطبيب.. و بعد ان فرغ من قصّته، وقصتها معه، كان لابد ان ينتظرا نتيجة الفحوص اكثر من يومين، قضياها في المألوف من هذه النزهات التي اعتادا أن يقوما بها في هذا البلد، ولكن ما تعذّر عليهما أن ينسياه هو انتظار نتيجة الفحوص.. فقد اشتد ما يساورهما من قلق، حتى لقد كان يسود بينهما صمت طو يل، يشتغل خلاله كل منهما بالتفكير فيما يمكن ان ينتهي إليه هذا الأمر.. وهو على الأخص.. كان قد انتهى به التفكير إلى انّه قد يضطر إلى طلاقها اذا ظهر انّه هو العقيم، اذ كيف يجوز له ان يحرمها من امومتها وهي المتمتعة بهذا الفيض من الأنوثة والحيو ية والجمال والشباب.. بلى.. ليس عليه إلاّ أن يطلّقها، وان يعيش هو.. ولا يطيق ان يتصور ان يعيش بعيدا عنها.. فيحاول ان يطرد كل فكرة، وان يرجو خيرا، و ينهض من فراشه وهو يراها تعالج زينتها امام المرآة، فيقف خلفها و يغتصب ابتسامة وهو يقول: (هيّا.. علينا ان نكون امام شبّاك التذاكر، قبل السادسة..) وتضحك هي لتقول: (لا تقلق.. فقد حجزت، وعندي ارقام المقاعد).

و بانتهاء اليومين، حان موعد النتيجة، التي ظلا ينتظرانها على أحر من الجمر.. وكان ينبغي أن يسرعا إلى عيادة الطبيب في الموعد الذي حدّده لهما.. ولكن كيف؟ كيف يستطيع أن يواجه الحقيقة بالنسبة له و بالنسبة لها.. اذا كان هو العقيم، فما أشد بؤسه وعذابه بفراقها، كأن هذا الفراق مسألة مفروغ منها لاسبيل إلى العدول عنها.. واذا كانت هي العقيم.. ووجد نفسه يقول: (هذا أهون.. عقيم عقيم.. سأعيش معها ولا حاجة بي إلى الاطفال.. وأمي وأبي يستطيعان أن يريا احفادهما من اخوى واختي).

واستطاع هو أن يوافق على أن يذهب وحده لأخذ نتيجة الفحص من الطبيب.. فقد اعتذرت عن مرافقته بأن احدى زميلاتها في الكلية التي درست فيها ستزورها.. وذهب.. وخلال الدقائق القليلة التي كان عليه أن ينتظرها لأخذ التقارير، أحس انّه يجتاز أشد لحظات حياته حرجا.. وكان يردد: (ابدا.. هي العقيم، ولن افارقها إلى الأ بد).

وتناول التقارير، وحاول أن يفهم شيئا، فلم يستطع أن يتذكّر معاني الكلمات الانجليزية، بل اعتقد انها مما لم يسبق أن مرّت عليه قط.. واضطر ان يرجو الممرضة ان تسمح لها بمقابلة الطبيب.. وعاد إلى الانتظار لحظات بدت له كأنها عمر كامل.. وحين دخل على الطبيب، ورآه يبتسم ابتسامة عريضة، داخله احساس بالاطمئنان والأمل.. واصغى بكل جوارحه، إلى كل كلمة فاه بها الطبيب.. وفهم ما زاده دهشة إلى حد الذهول.. أكّد له الطبيب، ان حالته وحالة زوجته طبيعية جدا.. وليس هناك ما يمنع الانجاب اطلاقا.. ومع أن ما يقرب من اربع سنوات على الزوجية دون أن ينجبا، أمر موجب للتساؤل فعلا، إلاّ انّه يحدث كثيرا.. هناك من تمر عشر سنوات دون أن يفرحا بطفل، ثم ــ وعلى غير انتظار ــ يتوافد الأطفال واحدا بعد الآخر دون انقطاع.

وعاد إلى زوجته في الفندق والدنيا لا تسعه فرحا، وقص عليها ما أخبره به الطبيب وهو يقفز كالأطفال، ثم اضاف: (انتهينا.. لاحاجة بنا الى التفكير في هذا الأمر.. سيجيء الأطفال في يوم ما.. هيّا فقد حجزت للسفر إلى تركيا.. قالوا ان فيها مصايف كالجنان).

ولم يطل انتظارهما.. فقد كانا يستقلان الطائرة، بعد عامين، في رحلتهما المعتادة إلى الخارج، وعلى كتفها (أمل) وهو يتقدّمها، وفي يديه حقيبة الطفل، ورضاعته والشخشيخة التي القاها الطفل من يده، واضطر أن يلتقطها في الطريق.



أمنية زوج عاقل





أمنية زوج عاقل

كانت فرحة أم رجب، بما وفّقت إليه في العثور على الفتاة التي تصلح لابنها حديث المنزل والجيران في العمارة كلّها، وذلك لأنّها ظلّت طوال أكثر من عام منذ تخرّج ابنها من الجامعة بدرجة بكالوريوس، تتحدّث عن هذا البكالوريوس، الذي ناله ابنها بالرغم من ان والده ما يزال يمارس مهنته التي رفض ان يهجرها، بعد ان اصبح رجب موظّفا واشترى سيارة، وسكن هذه الشّقة واثثها على الطراز الحديث، وزوّد غرفة نومه بمكيّف تقول ام رجب انّه (يكيّف الدماغ) بما يشيعه في الغرفة من الجو الذي يذكّرها بجو الطائف أيام زمان.

وما دام ابنها قد نال البكالوريوس وتوظّف، وسكن شقة اثثها على الطراز الحديث، وفيها هذا الجهاز الذي يكّيف الدماغ فلا بد من العروس، ولابد ان تكون هذه العروس متعلّمة كابنها، وان تكون جميلة، وان يتوفّر في جمالها اللون الأ بيض،.. ان تكون بيضاء كالفل أو الياسمين أو القمر ليلة (اربعتاش).. اما عن اسرة العروس، فأم رجب لا تنسى أن زوجها ما يزال سروجيا، يصنع هذه الأحزمة التي يشتريها الحجاج يمنطقون بها الفوطة، ثم الأحزمة التي يشتريها الفرسان ورجال البادية، يرصفون فيها طلقات الرصاص، ومنها ما يتمنطقون به، ومنها ما يرتفق كوشاح على الكتف والصدر، وهذا إلى جانب محافظ المسدّسات، واجربة البنادق.. وهي مهنة يصر ابو رجب على الا يتخلّى عن ممارستها، بل يصر على الا يغادر دكانه في الجودرية بمكة، وهي نفس الدكان التي تعلّم فيها المهنة من رجل سوري قدّر الله أن يموت، وان يبيع ورثته الدكان للعم محمود بما يسمّى اليوم (تراب الفلوس) اذ لم يزد ما دفعه ثمنا للجلد والأدوات عن سبعة جنيهات ذهبا.

وما دام زوج ام رجب، سروجيا ـــ وهي لا تنسى هذا على كثرة ما احسّت

بالضيق منه ـ فلا مجال لاشتراط ان تكون العروس من بنات الأسر الكبيرة ولكن لو اراد الله أن تجد من يتوفّر فيها هذا الشرط ايضا فتلك نعمة كبرى، يستحقها ولدها الذي نال هذا البكالوريوس، وبنواله، فاز بالوظيفة في جدة، وبراتب الوظيفة اشترى السيارة، واثث المنزل، وحقق الحلم الذي ظلّت تتطلّع إليه منذ اخذت معالم الحياة في مكة تتغيّر، واخذت البيوت تتطوّر، والأثاث في كل بيت لم يعد مما يصنعه (المنجّد) كالمساند والطواويل والحشايا المكسوّة بالدومسك أو القطيفة، وانما هو المقاعد وما اليها مما تعلّمت أم رجب ان اسمه (الصالون) و(الكنب).

والعم محمود ابو رجب، كما رفض ان يهجر مهنته، رفض ان يغادر مكة، وقرر البقاء في المنزل الذي تحت السقيفة من مقار الأوقاف، اذ هو المنزل الذي ظل يسكنه منذ تزوّج قبل اكثر من ربع قرن، ومع أن سعاد ابنته كانت تتمنّى ان تنتقل مع امها واخيها إلى جدة، وان تعيش في هذه الشقّة التي اصبح الناس كلّهم يسكنون مثلها حتى في مكة فان العم محمود، هدّد بأنّه سيضطر للزواج اذا لم تبق معه سعاد، اذ من الذي سيطهو له طعامه، و يقوم على شؤون المنزل، خصوصا وانّه قد حرّم استخدام خادم كبير في المنزل منذ بلغت سعاد السابعة من العمر.

ومع ان ام رجب، ظلّت لا تمل الحديث عن الفتاة التي وفقت إلى العثور عليها عروسا لابنها، ولم تبق جارة من جاراتها في العمارة، إلاّ وقد سمعت عن البيضاء الجميلة المتعلّمة التي تقول للقمر غيب، وانا مكانك، فان رجب نفسه لم يسمع من امّه عن هذه الفتاة اكثر من انها وجدت له الفتاة التي تصلح له، فاذا سألها عن تفاصيل معينّة.. عن مستوى تعليمها، وعن اسرتها، أو عن قامتها، فان امّه لا تزيد على ان تضحك، وهي تقول: (بأقول لك، ما في أحسن من كده ابدا.. كل شيء فيها تمام، بس شد حيلك واجمع المهر، وخلّي الباقي عليّ) وهذا الباقي الذي عليها شيء لايدري رجب، كيف تستطيع امّه ان تضمنه.. فهو يتمنّى ان تكون عروسه جميلة بالطبع، ولكن ليس ضروريا ان تكون بيضاء، وان تكون متعلّمة، ولكن ليس إلى حد (فك الحرف فقط) اذ ما يزال يذكر ان صديقه عبدالباسط، قد تزوّج من قالوا له انها متعلّمة، فاذا بكل ما اتضح انه نصيبها من

التعليم انها تقرأ الأسماء وتعرف الأ رقام، وخاب امل عبدالباسط في ان تكون زوجته قادرة على ان تقف إلى جانبه بعملها كمدّرسة تضيف إلى دخله المحدود، ما يساعدهما على أن يعيشا في مستوى أفضل.. ولم يكن مما يفيد رجب أن يلجأ إلى أبيه في مثل هذه الأمور، فهو مازال يؤكّد انّه تزوّج ام رجب دون أن يراها، ومنذ تزوّجها لم يفكّر في غيرها، وليس في منطقه أن تساعده الزوجة بما تملك، أو بما قد يكون لها من دخل.. الرجل في منطق العم محمود هو المسؤول عن كل شيء، وليس على الزوجة إلاّ ان تربّي العيال، وتدير شؤون المنزل، فاذا استطاعت ان تضطلع بمسؤولياتها على هذا النحو، فذلك كل ما ينتظره منها.. وتعليم الفتاة أو الزواج من فتاة متعلّمة مسألة طرأت على حياتنا، قد تكون لها فوائدها كما يسمع في الراديو، وكما يحدّثه عنها اصدقاؤه الذين ادخلوا بناتهم المدارس منذ افتتاحها، ولكنّها بالنسبة له لا تقدّم ولا تؤخّر، بل ولا لزوم لها ابدا.. وابنته سعاد، في العشرين من عمرها، تحفظ سور الصلاة، وعريسها المقبل ابن عمّها، وقد عقد له عليها منذ كانت في العاشرة من عمرها، ولا يؤجل زفافها إليه إلاّ لأنّه لم يفرغ بعد من دراسة الطب، ولكنّه سينتهي و ينال الشهادة خلال سنتين، فاذا عاد وتوظّف، فان سعاد ستزف اليه، و ينتهي الأمر على ما يحب.

ومع ان رجب لم تكن لديه فكرة عن مقدار المهر المطلوب، فقد جلس إلى والدته بعد الغروب، ووضع بين يديها خمسة آلاف ريال، وقال: (هذا هو المهر ياأمّي.. هيّا قوليلي عاد، مين هي العروسة، ومتى يمكن ان اراها؟

وخفقت ام رجب صدرها بيدها، وهي تقول تراهـــا قبـــل الملكة)؟ هادي ياولدي عمرها ما تسير) ثم اضافت: (وهذا المهر.. خمسة آلاف.. ما اظنّه يكفي) وقال رجب: (بسيطة اقدر ادبّر الفين كمان.. بس لازم اشوفها، واعرف مين هيّه).

وعادت ام رجب، بعد ايام، من زيارة قامت بها لأهل العروس، يملأ وجهها الاشراق والبشر، فقد وافق ابو العروس على ان يرى رجب خطيبته، ولكن على شرط الاّيخرج إلاّ بعد قراءة الفاتحة، وشرط آخر هام جدا، وهو ان يراها بحضور والده، وحضورها هي، بالطبع بحضور والدها ووالدتها واخوانها.

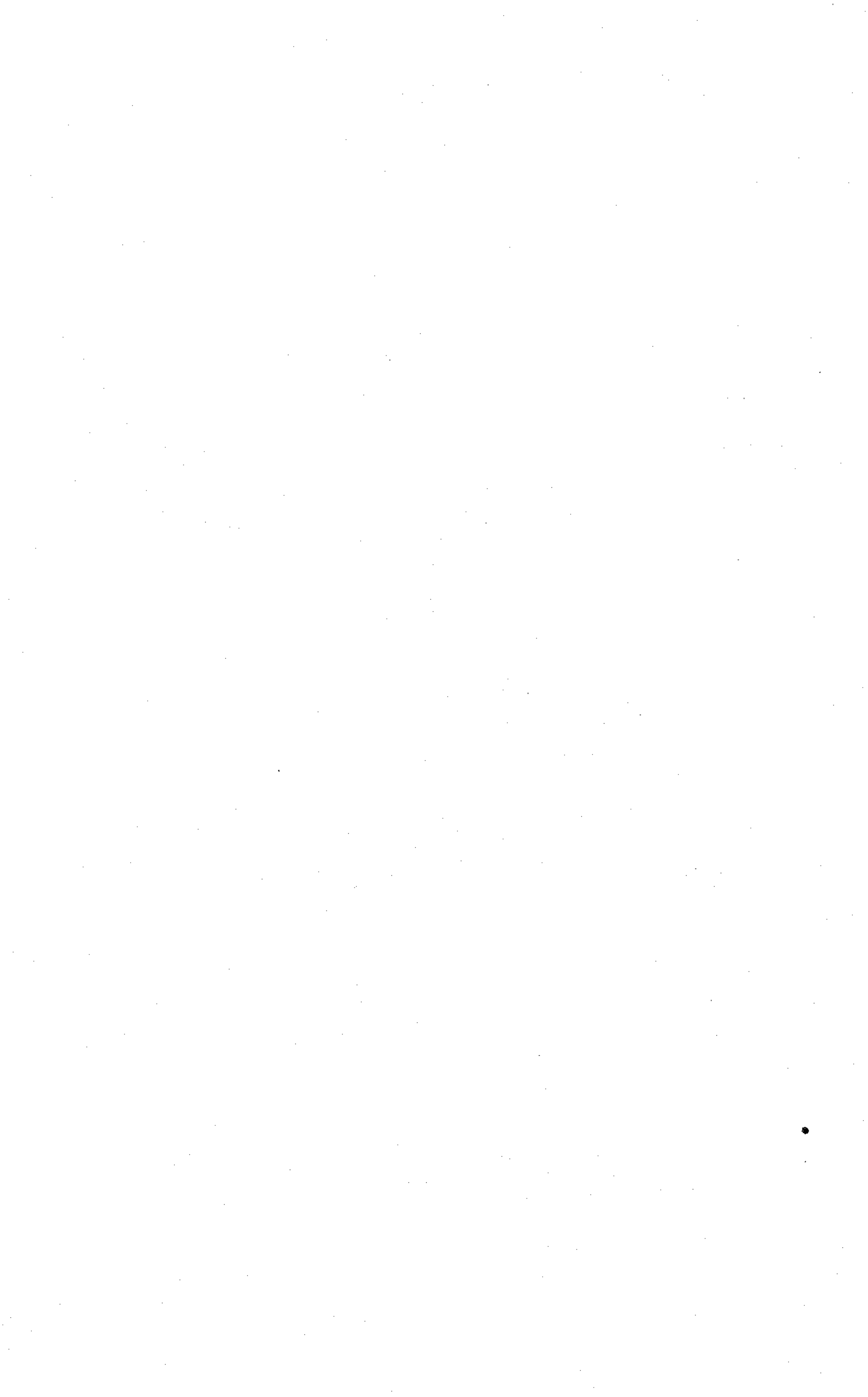
وتم الأمر كما أراد أهل العروس.. رأى رجب عروسه (مها) كما رآها ابوه.. دخلت بفناجين القهوة و بعد أن قدمتها لكل الجالسين، جلست على كرسي بجانب الباب.. واعترف رجب بينه و بين نفسه، بأنها جميلة فعلا، و بيضاء، ورشيقة، وفي عينيها سجو وذبول، ولها اطراقة خفر وحياء يضفيان عليها فتنة وسحرا أخاذا.. ولكنها على شيء من الانكسار والضمور، يتعذر ان يتوقع المرء ان يراها مرحة منطلقة، ثم لم ياترى لم تنبس بكلمة واحدة.. وحتى حين همّ بالخروج مع امه وابيه، ونهضت مع بقية افراد الأسرة، تودّعه الى الباب لم تقل كلمة (في امان الله) التي قالها الجميع.. ولقد قرأوا الفاتحة فعلا.. فهي منذ الليلة خطيبته، ولعلّها زوجته ايضا، اذ ليست قراءة الفاتحة كما تمّت بمحضر الجميع، إلاّ صورة من العقد.

وحين كان يقود سيارته وإلى جانبه ابوه، وفي المقعد الخلفي امّه واخته سعاد، كانت صورتها تتألق في ذهنه.. وردّدها هامساً جميلة.. جميلة فعلا.. ولعلّ التزامها الصمت، كان تصرفاً لامندوحة عنه في مثل هذه المناسبة.. وخطرت له حكاية تعليمها، فقد قال ابوها، انها اتمّت المرحلة الثانو ية، وقال اخوها الصغير انها كانت دائما من الأوائل في مدرستها.. ورجب لايطمع في ان تكون عروسه جامعية.. يمكنها ان تواصل تعليمها بعد الزواج.. كثيرات تزوجن واتممن تعليمهن الجامعي.. فلا بأس.

وتم الزفاف، في موسم الأفراح المعتاد.. في الأسبوع الأول من شهر ربيع الأول.. ودخلت العروس الشقّة واشعة الفجر الأولى تتلصص عبر الستائر في غرفة النوم.. وحتى هذه اللحظة، لم يسمع رجب عروسه تتحدّث او تقول شيئا.. واخيرا.. كان لابد ان يجتاز هذا الجدار من الصمت.. تحدّث اليها.. سألها عن رأيها في الغرفة. ولون الستائر، ولم يدر كيف يفسّر، لِمَ امتقع لونها، ثم تلاحق ارتعاش اجفانها، إلى ان سمع صوتها، وهي تضغط ما بين اسنانها، ثم تهتز شفتاها إلى ان استطاعت ان تقول في النهاية، و بكثير من الجهد: (حـ..ح ح..حلوة..جـ..ج ج..جدا).

كانت صدمة لرجب دون شك، وحتى ام رجب، لم تملك ان تضرب كفا بكف، وهي تكتشف ان الفتاة لا تستطيع ان تتحدّث إلاّ بهذه الطريقة.. وكان يمكن ان يقضى على أمل الجميع باستمرار الزوجية بين الشابين ولكن رجب.. لم يطل به التفكير، ليدرك انّه قد تزوّج المرأة التي يتمنّاها كل رجل عاقل.. اذ ما اعظم واجمل من ان تسلم امرأة من خصيصتها الأ ولى.. وهي كثرة الكلام.

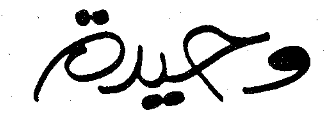




وحيدة







استيقظت من نومها لتدرك في لحظات ان ما بدا لها حلما كان حقيقة.. كانت السماء تمطر، وتصفع زجاج النوافذ المغلقة في عنف كأنها، وقد رأتها نائمة على فراشها الوثير، تريد أن تقتحم الحواجز والسدود لتوقظها ولتقول لها: «هذه هي اللحظات التي طالما أحببتها بكل ما تبعثه في النفوس من مشاعر الحنين الغامض والأشواق التائهة.. فكيف يصح لك أن تنامي».

وعلى أضواء البرق التي كانت تتلامح وتتلاحق كضحكات غادة مرحة، رأت «نامية» فروع شجرة النبق الكبيرة وهي تتلوّى وترتعش أمام رياح الشمال، وقطرات المطر المنهمر تنحدر وهي تتسابق على زجاج النافذة، وكأنها الدموع يذرفها احساس قلب برّحت به الأشواق إلى لقاء حبيب.

وكان صخب الرياح والرعد والمطر المنهمر هو كل ما تسمعه «نامية» في هذه الغرفة التي ظلت غرفة نومها منذ بلغت الرابعة عشرة من عمرها.

وانها لتذكر كيف كانت فرحتها بالغرفة وبكل مافيها من أثاث.. بالسرير الوثير ذي الغطاء الأحمر، وبالدولاب الكبير الذي نقلت اليه فساتينها ولوازمها الصغيرة، ثم بالمرآة، التي نثرت على قاعدتها زجاجات العطور، والأمشاط والمشابك، والأشرطة الحريرية الملونة التي تذيّل بها ضفائر شعرها الطويل.

وقفت يومها أمام المرآة وإلى جانبها أمها وأبوها، وهما يضحكان ويقول أحدهما للآخر: هذه «نامية» قد نمت فعلا، ليس بين كتفها وكتف أمها إلاّ أربع أصابع، لقد أصبحت «عروسا».

وحين خرجا من الغرفة وظلت هي، لأول مرة، وحدها، وقفت مرة أخرى

أمام المرآة، تتأمّل غمّازتي الحسن اللتين طالما سمعت من لداتها أنهما تقعان في أجمل موقعين من وجنتيها. ثم تستدير نصف استدارة لترى شعرها الطويل الذي ظلّت أمها ترفض أن يقص وهي تقول: هذا الشلال من الذهب، يجب الاّتمسّه يد الماشطة.. انه أغلى كنوز الجمال.

وظلت كلمة «عروس» بكل ما يكتنفها من صور وأحلام، تتردد على ذهنها كلما لمحت صورتها وقوامها، واستدارات جسمها في هذه المرآة، التي تلاحقها أينما تحركت على السرير أو حوله، أو أمام الدولاب الكبير.

كان ذلك منذ أربعة عشر عاما.. وهي الآن في الثامنة والعشرين.. ما تزال هنا في هذه الغرفة التي ضاقت بأحلامها طوال هذه المدة، حتى ليخيّل إليها أحيانا انها تدوس في كل شبر منها جثث هذه الأحلام الجامدة.. حتى زجاجات العطور، وحتى الأمشاط، بل وحتى مشابك الشعر أصبحت مجرّد أحلام جامدة. لا حركة فيها ولا حياة ولا قدرة على ايقاظ المشاعر وبعث الأماني والآمال.. كم كانت كل زجاجة من زجاجات العطور المختلفة قادرة على أن تهمس في أذنها بأمل أن توقظ في قلبها أحاسيس ومشاعر.. وهذه المشابك كيف كان كل منها، كلما عقصت به خصلة من شعرها، يحدثها عن احتمالات ومفاجآت تظل تنتظرها يوما بعد يوم. ثم حين مضت كل هذه السنين دون أن يجدّ جديد، أصيبت كغيرها بالبكم، لا تستطيع أن تفعل شيئا أكثر من أن تربض في المكان الذي توضع فيه من نهر الذهب، وهو ما يزال نهرا رائعا يخطف بأمواجه، شهقات الاعجاب كلّما رأتها عيون لم يسبق ان رأتها من قبل.

واستمر صخب الريح، وقصف الرعد، وهطول المطر، و«نامية» في فراشها، ترنو الى فروع شجرة النبق وهي تتلوى، وقطرات المطر وهي تتسابق منسابة على زجاج النافذة، وأضواء البرق وقد أخذت تفقد وهجها الخاطف، امام طلائع الفجر.

وأحسّت «نامية» أن عينيها لم تعودا تريان الكثير، وان دموعها وقد بللت الوسادة تحت رأسها، قد بردت تحت خدها، وأن صدرها يهتز بما يزدحم فيه من

مشاعر الأسى والشقاء.. ولم تستطع أن تقاوم زحمة الانفعالات وهي تصطرع في اعماقها، فأسلمت نفسها لعاصفة من نحيب خنقته بوسادة وضعتها على رأسها واحاطتها بذراعيها وخنقت معه صخب الريح والرعد والمطر، ومنظر شجرة النبق وراء زجاج النافذة، وكأنها تخفي، عن الف عين تحيط بها، وجودها الذي بدا لها تافها لايستحق أن يشعر به مخلوق.. في هذا الكون الكبير.

ولا تدري كم مضى من الوقت ووجهها بين الوسادتين وأصابعها متشنجة وهي تمسك بأطراف الوسادة الرابضة على رأسها.. وسمعت الطرقات الحذرة الرقيقة نفسها التي تسبق دخول أبيها إلى غرفتها ليوقظها كل صباح.. ومع ذلك لم تستطع أن تخف إلى لقائه كما هي عادتها أن تفعل.. ظلت حيث هي، ولا رجاء لها إلا أن يظنّها ما تزال نائمة فيتركها بعد أن يردد الكلمات نفسها التي ما زال يدلّلها بها كلما جاء لايقاظها في الصباح.

وسمعته يقول في صوته الدافيء الحنون.. وبنبرة لاتخلو من دهشة ضاحكة: الرعد والمطر وما تزالين نائمة!؟ نامية.. نامية.. هيّا انهضي واستمتعي بأجمل يوم.

ولم يغادر الغرفة كما يفعل أحيانا.. انتظر قليلا، وحين لم يسمع منها اجابة، ولم يرها تتحرّك، اقبل عليها وهو يقول بلهفة وقلق: نامية.. نامية.. هل أنت بخير يابنيّتي..؟

وحين جاء يرفع الوسادة عن وجهها، رأى الدموع التي ظلت تذرفها دون انقطاع، منذ أيقظها صخب المطر المنهمر حتى هذه اللحظات من الصباح.

وكان أبوها من أرق خلق الله شعورا، لايطيق أن يرى عيونا باكية، ولا يحتمل أن يشهد مخلوقا يتعذب، وهي تعرف كيف يقع من نفسه بكاؤها.. يبلغ به الأمر أن يأخذها بين ذراعيه ورأسها على صدره، فاذا رفعت إليه وجهها انهمرت الدموع من عينيه، فاذا لم تكف عن البكاء ظل يدللها و يبتكر ألف حركة وحركة، ليحملها على الضحك، فلا تكاد تضحك حتى يعاوده البكاء فرحا، بضحكتها و بقدرته على تبديد أحزانها.

ولم يساورها شك في أنه يعرف لماذا تبكي في هذا الصباح.. ومع ذلك فقد كان لابد أن يسألها عما يبكيها.. وكان لابد لها أن تجيب.

ولكنّه لم يسألها شيئا هذه المرّة.. كأنما قد أدرك أن أحزانها أكبر من أن يستطيع تبديدها بمألوف الأسئلة، ومألوف كلمات التسرية والتدليل..التزم الصمت وحين جلس على المقعد رأت عينيه تمتلئان بالدموع.

ولأول مرة وجد الجرأة على أن يقول لها انه هو أيضا لايدري ما الذي يصدّ الشباب عن التقدم لخطبتها وزواجها. وفي صوته الدافيء الحنون، والعبرات تخنقه كلّما همّ بالانطلاق في الكلام. قال: كلما راجت اشاعة عن خطيب يهم بطلب يدك، نفرح ونقضي أياما ننتظر ونرقب، ثم تذوب الاشاعة وتمضي الأيام، و يتزوج الشاب فتاة أين هي منك جمالا ونسبا ومكانة وثقافة وأخلاقا.. ترى هل صحيح ما تردده جدتك من أن هناك «شعوذة» تصدّ عنك كل من يفكّر في طلب يدك.

ولم تجب «نامية» بشيء، فقد أدركت لأول مرة أن ما يحمله أبوها من همّها، وما تعانيه أمها من القلق عليها لايقل بحال عما تعانيه هي، وأدهشها الاّ يجد أبوها حرجا في أن يتكلّم معها بصراحة في هذا الموضوع الحساس الذي لم يتحدّث فيه معها قط.

والشعوذة التي تتحدث عنها جدتها.. كيف يمكن أن يتقبّلها عقل ابيها وهو الرجل الذي نجح دائما في تعليل كل ظاهرة غامضة أو مشكلة مستغلقة على ضوء العقل والمنطق؟ أدركت نامية عمق المعضلة التي تعيشها الأسرة كلها بسببها فقد بلغ بها الأمر الاّ تجد تعليلا لصدوف الخطاب عنها إلا في الشعوذة التي يتقبلها عقل جدتها.

وطال صمتها، ولم يجد أبوها ما يقوله بعد الذي قال.. فالتزم الصمت، وان كان في وجهه المحتقن وعينيه الدامعتين ما يغني عن الكثير مما يريد أن يقول.

وقالت في النهاية: كلا.. ليست المسألة مسألة شعوذة ياأبي..

وكمن يفيق من اغماء طويل تنبّه إلى ما قالت: فتساءل.. فما هي اذن؟

قالت: المسألة هي أني وحيدتكما.

قال: وحيدتنا؟.. وماذا في أن تكوني وحيدة أبو يك؟

قالت: كل الناس يعلمون أني أعيش في مستوى من الدلال والرفاه والرغد، لايمكن أن يوفره لي أي زوج. كلهم يعتقدون أني لا أصلح زوجة لأي شاب كادح متوسط الحال، لأنه لايستطيع أن يوفّر لي مستوى الحياة الرغدة التي أعيشها في بيتي.

وقال أبوها: ولكنّهم يعلمون أني لست أكثر من رجل كادح متوسط الحال، لست غنيا، وليس في حياتي أكثر مما في حياة أمثالي من متوسطي الحال.

قالت: فعلا.. ولكنك تنفق معظم دخلك عليّ.. انك تنفق عليّ مالا ينفقه غيرك على سبع بنات.

قال: وما دخل الناس في هذا؟

قالت: انهم لايستطيعون‌ان ينفقوا على الزوجة ما تنفق انت على الابنة.

قال: ومن الذي طالبهم بأن ينفقوا على الزوجة ما ينفق الأب على ابنته.

قالت: لم يطالبهم أحد، ولكنّهم يخشون أن يكون هذا هو ما أطلبه أنا من الزوج.

قال محتدما: ولكن كيف.. كيف نفهمهم انك لن تطالبي الزوج بما تعوّدت من الأب؟

قالت: فعلا.. هذه هي المشكلة.. كيف يفهم الناس أن حياتي في كنف أبي مرحلة من العمر، وان حياتي زوجة وأماً هي كل العمر.

قال: حسنا.. لقد استطعنا ـــ أنت وأنا ـــ أن نواجه الحقيقة، وأن نضع أيدينا على العقدة التي طال خفاؤها علينا ـــ أقصد عليّ أنا كل هذه السنين.. ونستطيع بعد هذا أن نحاول العلاج.. دعي الأمر لي، وانهضي الآن.. انهضي واستمتعي بأجمل يوم.. انظري. ما تزال السماء غائمة، وما يزال في السحب ما يعد بيوم مطير.

ودخلت أمها تسبقها ضجتها المألوفة مع الخدم. وما كادت عيناها تقعان على

«نامية» وأبيها، حتى شهقت مفجوعة طائرة القلب. لم ترهما قط يبكيان كما تراهما الآن، وخطر في نفسها أن أمرا رهيبا قد وقع.. وكادت توالي الشهقة بشهقات، لولا أن نهض اليها أبو نامية وهو يقول: «ليس هناك شيء.. كل ما في الأمر انها قصّت عليّ رواية محزنة قرأتها البارحة وقد بكت، وبكيت معها»، فأفرخ روعها وأقبلت على ابنتها تقبلها وتدللها، ثم نهضت وهي تذكر بأن المائدة تنتظر.. وانها في هذا اليوم المطير ستطهو لهم أرزا وعدسا، وعلى أبي نامية أن يبعث الولد لشراء سمك مجفف، فليس ألذ منه مع الأرز والعدس في هذا اليوم.

ومرّت أيام وأبو نامية يدير ما سمع من ابنته في ذهنه ويقلبه على وجوهه الكثيرة، ويتلمّس بين كل وجه وآخر حلا من هذه الحلول التي لا تكاد تظهر متماسكة مقبولة حتى تنهار لهذا السبب أو ذاك.

ولم يطل به الأمر على أي حال، فقد جاء ذات يوم قبيل موعد عودته في الظهر، والبشر يملأ وجهه والفرحة تطفر من عينيه.. وما كاد يرى زوجته حتى أخذها من يدها وانطلق بها إلى غرفة نومهما وهو يقول: اسمعي.. ستتزوج نامية في نهاية هذا الشهر.. اياك أن تزغردي، واحذري أن تقولي لها شيئا قبل أن أتحدث إليها أنا.

وقبل أن تسأله عن العريس بادرها هو قائلا: وهل تعرفين من هو العريس؟ ولكن من أين لك أن تعرفي؟ أنا اقول لك انه ابراهيم ظافر، هل عرفته؟ كان يدرس في الخارج وقد عاد منذ اسبوع. وقد زارني اليوم وقضينا بعض الوقت.. وخطب نامية. فما رأيك؟

فقالت: ولكن.. ولكن كيف يستطيع ابراهيم أن يتزوّج وهو لم يجد عملا بعد.. ومن أين له تكاليف الزواج؟

قال: لقد وجد العمل.. وأكّد لي أنه مستعد بجميع ما يطلب منه.. يظهر انه ورث بعض المال من أبيه.

قالت: غريبة.. ان أمه ظلت طوال السنوات الثلاث الماضية، تؤكد أن

المرحوم زوجها لم يترك لها شيئا.

قال: على كل حال، ما لنا وما تقول.. ابراهيم يؤكد انه مستعد للقيام بكل ما يترتب على الزوج.. والمهم الآن أن توافق نامية.

وافقت نامية، وتم زواجها في نهاية الشهر من ابراهيم في حفل بهيج لم تـر المدينة أجمل منه ولا أروع وقدّم ابراهيم «تصبيحة» غالية أدهشت كل من رآها.

ومرت سنوات، وابراهيم يتدرّج في وظائف الدولة، و يتمتع بثقة رؤسائه وثنائهم على عمله، و ينعم بحياة زوجية سعيدة رخيّة و بأطفال ثلاثة أكبرهم على أبواب المدرسة الابتدائية.

وكان في منزله ذات مساء يتأهب للخروج مع زوجته في سيارته لنزهة قصيرة، حين جاء أبو نامية على غير موعد سابق، وفي يده ورقة من هذه الأوراق التي تكتب عليها الأحكام والصكوك في المحاكم. وأدركت نامية أن والدها يريد أن يتحدث إلى ابراهيم حديثا خاصا لعلّه لايحب أن تسمعه، فغادرت الغرفة مستأذنة لقضاء بعض شؤونها.

وما كادت تخرج: حتى قال أبو نامية: جئتك في أمر ياابراهيم.. هذه حجة البيت.. وهو كل ما بقي لي وأنا مدين بمبلغ كبير.. أريد أن تتوسط لي في قرض لدى أحد البنوك، فانك على صلة بالكثيرين ممن لاأعرفهم. فاذا لم أسدّد المبلغ خلال سنتين فلهم أن يبيعوا البيت، وقد دفع فيه أحد التجار منذ أسبوع مائة وخمسين ألف ريال.

وامتلأت عينا ابراهيم بالدموع.. ونهض يعانق أبا نامية و يطبع قبلة على جبهته، ثم قال: لقد ادخرت ياعم مبلغ ثلاثين الف ريال كنت أريد أن اشتري به أرضا وأبني عليها منزلا.. ولكني أعرف اني مدين لك بعد الله بكل شيء.. بالعمل الذي وجدته بواسطتك، و بالزوجة الصالحة و بالأولاد. و بجميع التكاليف التي دفعتها أنت، ولم يدر عنها أحد حتى اليوم. لقد أقسمت لك الاّ أقول شيئا عن الواقع لأحد، وقد التزمت بما أقسمت عليه.. وان كنت أتمنّى أن

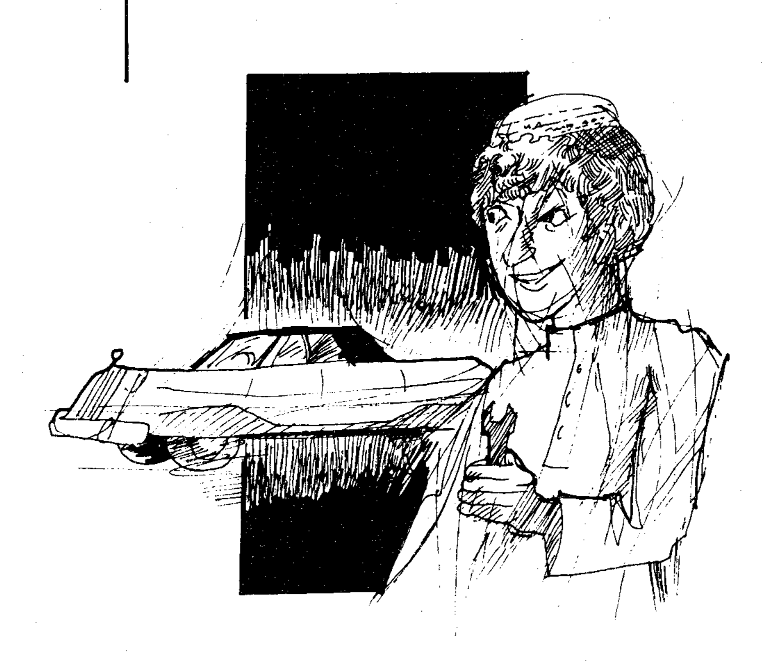
يعلم كل مخلوق في هذه الدنيا . اني مدين لك بكل شيء .

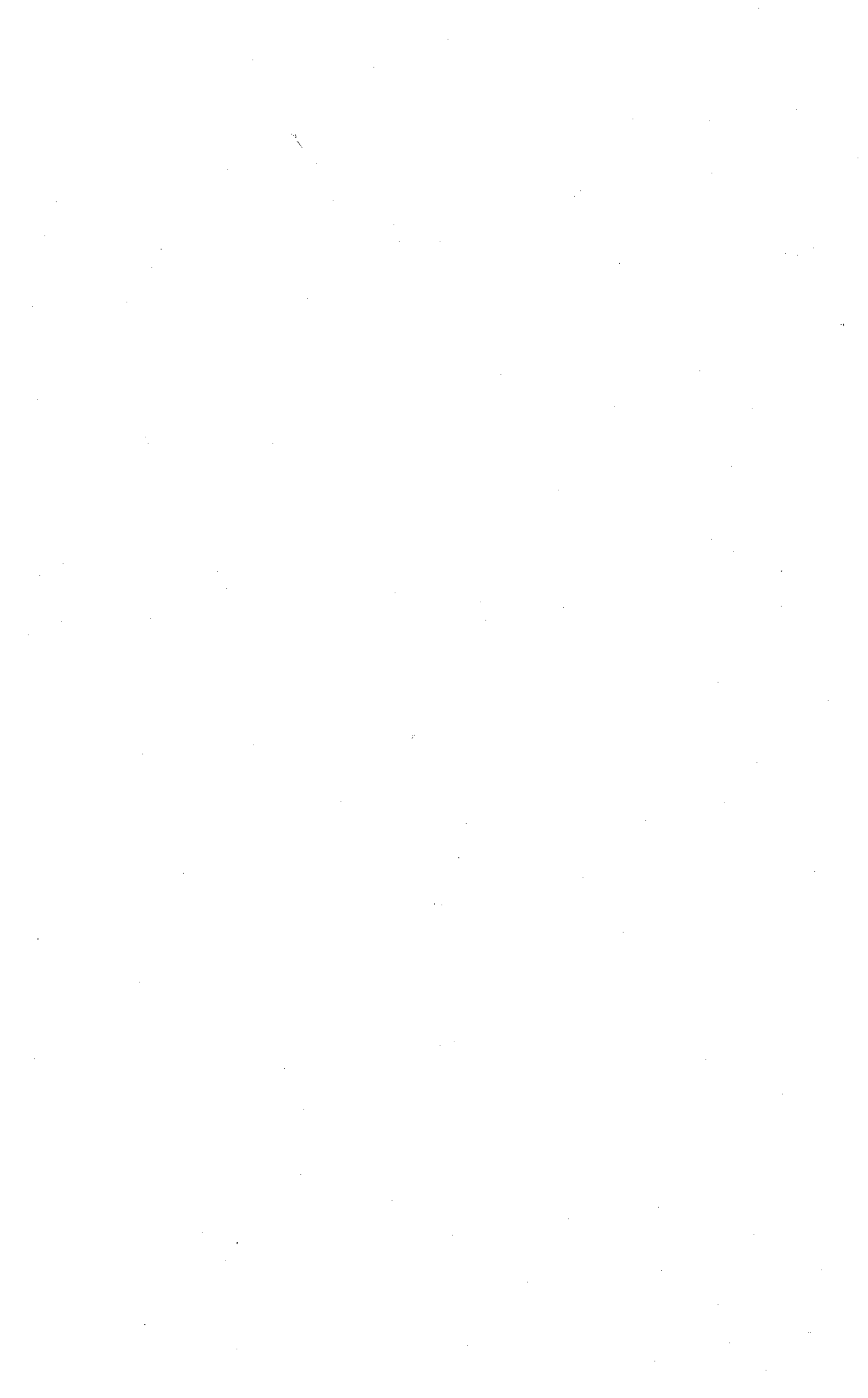
وهتف أبو نامية هامسا : حذار أن تسمع نامية أو أمها أو أي مخلوق بذلك . . وخذ الحجة الآن فاذا لم توفق إلى قرض من أحد البنوك ، فاني لا أحتاج إلى أكثر من خمسة عشر الف ريال .

ودخلت نامية بعد قليل وبين يديها الأولاد ونهض الجميع إلى السيارة ، وأصغر الأطفال بين ذراعي جده يصرّ على أن يصحبهم في نزهة إلى شاطىء البحر.



السيارة





السيارة

ما يزال هزّاع يذكر كيف كان يقف على رصيف الشارع حيث تمر به هذه السيارات التي لم يكن قد ركب واحدة منها قط، حتى ولا على سبيل المجاملة من صديق سائق، أو على سبيل التجربة المختلسة، حين يقف بها أصحابها و يتركونها أمام المعارض الكبرى في الشارع العام.

ومع ما كان يعانيه من شظف العيش، وتعاقب أيام التعطل عن العمل، فقد كان لا يتمنى شيئا، كما ظل يتمنّى أن يركب ـــ ولو لدقائق ـــ سيارة من هذه السيارات الفارهة التي تتزاحم على المرور، وتتفنّن في أصوات الأبواق، ورشاقة الحركة في الوقوف والانطلاق، ثم فيما تشع من أضواء كاشفة في مقدماتها وأضواء حمراء كقطع من الياقوت في مؤخراتها وهو يرى بعينيه الزائغتين الذابلتين ما يتلامع وراء زجاج النوافذ من وثارة المقاعد بألوانها الزاهية، والجالسين فيها كأنهم، في تقديره، مخلوقات من عالم آخر، لا صلة له بأمثاله من البشر على الرصيف.

وكان يردد في حرقة ولهفة: كيف؟ كيف أستطيع أن أجلس في مقعد من هذه المقاعد الوثيرة.. حتى ولو في الحلم؟!

وحين يسمع من أعماق نفسه من يقول له: ألم تجيء على السيارة، يوم جئت من القرية إلى المدينة؟ كان ينتفض كالملسوع ليقول: لم تكن تلك سيارة.. كانت أي شيء إلا ما يسمى سيارة كما يراها و يرى المئات منها تتلاحق أمام عينيه وهو في مكانه من الرصيف. لقد انتقل من قريته على سيارة ناقلة للمياه، ولم يجد له السائق مكانا بجانبه فأركبه على خزّان الماء نفسه، وهو ما يزال يذكر كيف رأى الموت وجها لوجه في كل مرة كانت السيارة فيها تتعرّض لمطب يتعرض هو معه لخطر السقوط والدهس لولا ما ظل يبذله من جهد المستميت للبقاء في مكانه فوق

الخزّان، وقد تنفس الصعداء حين وقفت ناقلة المياه أخيرا عند مشارف المدينة وصاح به السائق أن (يتوكّل على الله ..) فهبط وهو يحمد الله على السلامة، ودفع للسائق الريالات العشرة، وقد كانت كل ما معه من المال، وهي كل ما استطاعت أن تمنحه اياه والدته من ثمن البيض الذي كان يبيعه على المارين بقريته من ركاب السيارات.

وليس يدري لم ظلت نفسه لا تتمنى شيئا كما تتمنى أن يركب سيارة من هذه السيارات، منذ اللحظة التي أخذ يمشي فيها إلى المدينة و يبحث عن عمل من الأعمال التي قيل له في القرية انه سيجدها كما وجدها الكثيرون من ابناء قريته الذين سبق أن تركوا قريتهم طلبا للعمل والرزق الشريف.. لم يفكر قط في أن يغشى مطعما أو أن يسكن بيتا من البيوت ذات الأدوار العديدة، أو أن ينعم بالنوم على فراش وثير.. كان لايجد بأسا في أن يتناول وجباته على قارعة الطريق، وأن ينام مع من عرف من أبناء قريته في ممر احدى العمارات الكبرى على نفس الوسادة المحشوة بالأعشاب الجافة، وعلى نفس الخلق البالية التي اصطحبها من القرية، وحرص على الآ يفقدها وهو يتدحرج و يكاد يسقط من مركبه على خزّان المياه.. ولكنه كان دائما يشهق بأمنيته الغالية التي ظلت تلح عليه، وهي أن يركب أي سيارة من هذه السيارات الفارهة التي لايمل النظر اليها، و يتتبع مروقها واحدة بعد الأخرى، و يتأمل هذه الألوان الخاطفة، وعلى الأخص حين يهبط الليل وتأخذ هذه المئات من الأضواء الحمراء والخضراء والزرقاء تتراقص على المعارض الكبيرة التي تتقابل وتتلاحق على امتداد الجانبين من الشارع الكبير..

وقال له أحد رفاقه ذات ليلة: انه سيترك عمله في نقل (البلك) لأنه وجد عملا في ورشة لتصليح السيارات، وان صاحب الورشة يبحث عن آخر، وعرض عليه أن يصطحبه إليه حين يكون الغد اذا شاء.

ولم يتردد هزّاع، وان كان الأجر أقل من عمله في نقل (البلك)، وهتف في نفسه: لقد حانت فعلا الفرصة لأن يلمس بيده سيارة من هذه السيارات، وربما استطاع أن يدخل فيها، وان يجلس على المقعد الوثير. ومن يدري فلعلّ الحظ يسعده

بأن ينطلق به سائق احداها في الشارع الكبير، لأي سبب من الأسباب.

ومنذ اللحظة التي دخل فيها الورشة واتفق مع صاحبها على العمل والأجر، قرر هزّاع الاّ يغادرها بأي ثمن. فقد وجد فيها كل ما كان يحلم به.. وجدها مزدحمة بالسيارات الفارهة التي أخذ بمرور الأيام يستطيع النطق بأسمائها الغريبة، و يعرف ما تمتاز به الواحدة منها عن الأخرى، وقد بدأت مهمته بأن يناول هؤلاء الذين يسمونهم «المهندسين» ما يطلبونه منه حين يعالجون اصلاح ما في السيارة من خراب.. وكانت مشاكله معهم في بادىء الأمر، أن يقول أحدهم (هات واحد ونص) و(البوكس) و(أبو جلمبو)، فلم يجد بأسا في أن يتقبّل صرخاتهم وأوامرهم القاسية، فقد أكد له رفيقه ان هذا هو الطريق الوحيد ليتعلّم هو أيضا، وليصبح في يوم ما مهندسا من المهندسين و يصبح آمرا: هات كذا، وكذا.

وانقضى عام، ترك رفيقه خلاله الورشة بحثا عن عمل آخر، و بقي هو على قراره الذي لم يغيره قط، وهو الاّ يغادر ورشة اصلاح السيارات ابدا، قانعا بالراتب الذي يتقاضاه في آخر الشهر، أحيانا وفي آخر كل شهرين و بعد ثلاثة أشهر أحيانا أخرى.. سعيدا في الوقت نفسه بأنه مقيم على مقربة من هذه السيارات الفارهة التي لم يكن يسره شيء كما يسره أن يأمره المهندس بتنظيف احداها واعدادها لتسليمها للعميل، فينتهزها فرصة ليحلم وهو ينظف مقاعدها، ويجلو قطع النيكل فيها، بأنه يقودها وهي تنهب به الأرض وتنطلق في شوارع المدينة ثم تخرج منها ثم لا يكاد يمتد أمامه الطريق حتى يطير بها إلى القرية.. إلى أمه، في عشتها وحولها الدجاج والمعزة، وأمامها (البرمة) التي تطهو عليها وجبة العشاء.. ترى هل تسعها العشة حين تراه في سيارة الأحلام؟

وبمرور الأيام انتهت مشاكله مع المهندسين، فقد أصبح الوحيد بين العمّال الذي لايكاد يرى المهندس يمسك بقطعة في السيارة حتى يسرع فيجيئه بالمفتاح الذي يريده قبل أن يطلبه، فيسمع منهم صيحات الثناء والاعجاب.. ومع انه ظل يتمنّى أن يمارس ادارة هذه المفاتيح بيده وفتح هذه الأجزاء المعقدة كما رآهم يفتحونها و يعالجونها فقد حرص على الاّ يفعل إلا ما يطلب منه، لأنه فهم من روح

العمل في الورشة ان الصبر وحده هو الطريق لكل ما يريد.

ولم يطل انتظاره فقد وضعوا بين يديه ذات يوم محرّكا قديما صدئا أخرجوه من سيارة هالكة وطلب منه أحدهم أن يعالج فتحه.. ولم يلبث أن تطوّر عمله وأخذ يشعر أنه أكثر من مجرد انسان يؤمر فيطيع، وجد نفسه هو أيضا يصيح و يطلب من شاب يقف بجانبه أن يجيئه بهذا المفتاح أو ذاك من المفاتيح التي يتطلبها فتح المحركات أو قطع منها كلّما دخلت سيارة للتصليح.

وتفتحت عيناه على أسرار العمل، عرف مهمة هذه الأجهزة الدقيقة التي كانت تبدو له وكأنها أعجوبة الأعاجيب وعرف كيف يصلحون هذا الخراب أو ذاك من السيارات «الأوتوماتيك»، على الأخص.فقد كان صاحب الورشة معروفا بأنه مختص باصلاح هذا النوع من السيارات التي تتطلب مهارة خاصة لا تتوفر في الكثيرين. وتنبّه ذات يوم، إلى أن الكثيرين من المهندسين (والمعاونين) الذين كانوا في الورشة لم يبق منهم أحد.. لقد تركوا العمل وجاء غيرهم، مرات ومرات، وبقي هو إلى جانب صاحب الورشة، وقد أصبح له المركز الثاني فيها بحيث لم يكن أحد من العملاء يشك في أن هزّاع يستطيع أن ينوب عن صاحب العمل، فيسلمونه سياراتهم، بعد أن يشرحوا له ما يعانونه من مشاكلها، فاذا حدّد لهم موعدا للتسليم، يذهبون، ليعودوا في الموعد والسيارات جاهزة على أحسن ما يرام.

ولم يفكّر هزّاع في أن يضايق صاحب الورشة بمطالبه، كان قانعا بالنوم في غرفة بالورشة استطاع أن يصنع لها مروحة تخفف عنه شدة الحر حين ينام في الليل، وبالراتب الضئيل الذي كان يزداد عاما بعد عام، حتى أصبح خمسمائة ريال كاملة. كان يبعث بثلاثمائة وخمسين ريالا منها إلى امه. و يكتفي هو بمائة وخمسين. وكان الرفاق الذين يقدمون من القرية يبشرونه ان أمه على خير حال، وقد استطاعت أن تبني بيتا وعندها أكثر من خمسين دجاجة، وقطيع من الماشية وخير كثير.. ولكنّها تتساءل لم لايزورها كما يزورون هم عوائلهم في أيام العطل والأعياد..

ويخفي هزّاع عن رفاقه أمنيته التي ظلّت تلح عليه طوال السنوات.. وهي أن يذهب إلى أمه بسيّارته الخاصة وأن يرى كيف ستفرح به وهي تراه وراء عجلة القيادة، حين يدعوها للركوب معه، والانطلاق معها لأداء فريضة الحج ثم لزيارة المدينة المنورة: فاذا ألحّو عليه بالأسئلة، يقول لهم «سأزورها في العيد القادم ان شاء الله»

واستيقظ ذات صباح على صراخ طفل عند باب الورشة يناديه.. وما كاد يفتح الباب حتى رأى أصغر أبناء صاحب الورشة يقول له ان والده محتاج إلى طبيب.

ولم يضع لحظة واحدة، ارتفق السيارة الجيب التي وجدها أمامه، وأحضر طبيبا تعرفه الأسرة، وحين انتهى الطبيب من الفحص، همس في أذن هزّاع ان الرجل في حالة خطرة، فاذا نجا من الموت، فقد لا يستطيع أن يعمل لشهور طويلة أو حتى لمدة أعوام.

ومضت شهور وصاحب الورشة طريح الفراش، وهزّاع يدير الورشة، و يعنى بصحة المريض التي أخذت تزداد سوءا يوما بعد يوم.. وأطفال الرجل وأسرته يتعلّقون به و يرون فيه الانسان الوحيد الذي يحنو عليهم بعد الله.

وأقبل شهر رمضان المبارك. وتكاثر عمل الورشة، وتضاعف دخلها، اضعافا، وكان من عادته أن يحمل إلى صاحب الورشة كل ما يدفعه العملاء يوما بيوم. فاذا انتهى الشهر، وقدّم غلة اليوم الأخير، أخذ من صاحب الورشة راتبه المقرر وهو يؤكد له أنه يستطيع أن يؤجل الدفع اذا كانت به حاجة إلى المال.

وفي اليوم الخامس والعشرين من رمضان، كانت حصيلة الورشة من العملاء الذين استلموا سياراتهم خمسة آلاف ريال استلمها هزّاع وحملها إلى صاحب الورشة وهو على فراش مرضه، وأخذ يعدها له كما هي عادته، مائة مائة، إلى أن تبلغ ألفا، ثم مائة مائة إلى الألف الثانية وظل هزّاع يعد النقود، وصاحب الورشة لاينبس ببنت شفة، فلما فرغ، وأخذ يتهيأ للخروج، قال له صاحب الورشة: «اصبر ياهزّاع.. خذ هذه النقود معك ولك عندي ثلاثة أمثالها.

ولم يفهم هزّاع شيئا في بادىء الأمر، وخطر له ان الرجل يهذي، ولكن قبل أن يفتح فمه بكلمة قال صاحب الورشة المريض! «مضى على مرضي وقت طويل، أكثر من عشرة شهور، وقبل المرض، كنت أنت الوحيد الذي اعتمد عليه بعد الله، وتقديراً لاخلاصك وأمانتك، قررت منذ سنتين تخصيص مكافأة لك. وهذا الدفتر، انظر، انك لا تقرأ. لقد ظللت أرصد لك مكافأة، في كل شهر، منذ شهر صفر من عام.. كنت أعطيك راتبك، خصما من مكافآتك وقد بلغ ما تستحقه عشرين ألف ريال..».

ولأول مرة امتلأت عينا هزّاع بالدموع ولم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول.. ووجد نفسه ينهض دون أن يتناول ريالا واحدا من هذا المبلغ الكبير، ولكن قبل أن يخرج من باب الغرفة، كان أكبر أولاد المريض يدخل الغرفة وفي يده رزم النقود. وكان المريض يهتف به «.. خذ مالك ياهزّاع.. فاني لا أدري هل أعيش أم أموت، ولا أحب أن يبقى بذمتي حق لانسان».

وحين خرج من البيت، وفي يده عشرون ألف ريال، وافق أن يضعها في البنك، كنصيحة صحبه، وقف على رصيف الشارع الكبير،.. نفس الرصيف الذي كان يقف فيه، ليرى السيارات تمر به وهو يتهلّف على أن يجلس في مقعدها الوثير حتى ولو في الحلم.

وفي ليلة العيد، كان هزّاع في سيارته الجديدة، أمام بيته في القرية، وأمه تتهيأ، لتركب معه، بعد أن أوكلت بالدجاج والقطيع جارتها أم جابر، لتقضي العيد في المدينة المنورة، وإلى جانبها حقيبة من الجلد، فيها الثياب الجديدة التي قال هزّاع انه اشتراها لنفسه ولها، من أحد المعارض في الشارع الكبير.



الطفل





الطفل

لا يذكر شيئا عن أبيه، الا ما تحدثه به أمه، كلما رأى أمثاله من الأطفال يمشون صحبة آبائهم إلى المدرسة أو إلى الأسواق في الصباح. ولم يستطع أن يتخيل وجه هذا الأب قط، وان كانت والدته تؤكد انه يشبه أباه في كل قسمة من قسماته، بل حتى في حركة يديه حين يتكلم، وفي مشيته حين يمشي، وفي ارتفاع جبهته واشراقها على الأخص.

ومع ان امه كثيرا ما كانت تضيق بأسئلته المتلاحقة الملحة، فقد ظل يتلهف على سماع أي حديث عن أبيه، فيبتكر الوسائل ويحتال الحيل لاغرائها بالتحدث عنه، خصوصا حين يتناول عشاءه معها بعد الغروب، أو حين تأخذ في تهيئة فراشه للنوم.

وكان مما سمعه واستقر في أغوار نفسه، ان أباه كان يحفظ القرآن الكريم، و يصلي في رمضان صلاة التراو يح اماماً، يقرأ فيها أجزاء كثيرة من المصحف. فاذا انتهى من الصلاة احتفل به المصلون، ومنهم من يقدم له الهدايا يعود بها إلى منزله قبل مدفع السحور.

و بقدر ما كان معجبا بهذه الصورة عن أبيه، كان تشوقه لرؤياه. ولم يحدث أن قالت له أمه انه مات، كما يموت كثير من الناس.. كانت تؤكد له انه قد سافر منذ زمن طو يل. فاذا سألها متى يعود؟ تكتفي بأن تقول له انه سيعود عندما يفرغ من عمله في المكان البعيد.

ولم تقل له أين هذا المكان، فاذا اشتد في الحاحه عليها بالسؤال، تكتفي بأن تشير بيدها اشارة لا يفهم منها إلا انّه مكان بعيد جدا، لا سبيل إلى أن يعرف عنه شيئا على الاطلاق.

وفي ذات صباح باكر، سمع باب البيت يطرق، وكانت أمه ماتزال نائمة، فركض لاهثا، وفي قلبه الصغير أمل محموم بأن الذي يطرق الباب في هذا الصباح هو أبوه.. سيراه حين يفتح الباب، وسيقذف نفسه بين ذراعيه، وسيحمله أبوه على كتفه كما يفعل جميع الآباء مع أبنائهم حين يطيلون الغياب في مكة أو في الطائف، أو غيرها من هذه المدن التي يسمع أن الآباء يسافرون إليها بين الحين والحين.

وفتح الباب لاهثا ليجد أمامه رجلا يحمل حقيبة معلقة على كتفه وفي يده ظرف، يسأله عن بيت أحد الجيران، وابتلع ابراهيم أمله الضائع، وتطوع فمشى مع ساعي البريد إلى بيت الجيران، ونادى أحد الصبية من لداته، ورأى بعينين ذاهلتين، كيف استلم الصبي البرقية وكيف طار بها إلى داخل المنزل، وهو يهتف: ماما.. ياماما.. برقية من أبي..

وعاد ابراهيم إلى بيته، وفي ذهنه أن الآباء يرسلون هذه التي يسمونها برقية تخبر ابناءهم بما يريدون، وقفز إلى ذهنه سؤال: ترى لم لايرسل أبوه برقية، كما يفعل جميع الآباء..؟ وعاد بذاكرته إلى السنين التي مضت من عمره، ليجد انه لم يسمع قط أن أباه قد أرسل برقية، أو أن أمه حدثته عن شيء من هذا النوع.. منذ وعى الحياة حتى اليوم.

ولايدري لم تهيّب أن يوقظ أمه في هذا الصباح وأن يسألها السؤال الوحيد الذي لم يسبق له أن فكر في توجيهه إليها قط. وارتمى في فراشه بجانبها، ولم يستطع أن يمسك دموعا ظلت تتلاحق على وجنتيه الشاحبتين في صمت.

وعلى مر الأيام أخذ ابراهيم يدرك من حقائق الحياة ما لم يكن يدركه من قبل، وكان أهم ما أصبح يعيه ولا يستطيع له تفسيراً، هو ان أمه تعمل، وان الزائرات الكثيرات اللائي يغشين البيت، يأتين بالأقمشة تخيطها لهن ثم تأخذ على كل فستان أجرا. ومن هذه الأجور التي تبعثه لمطالبتهن بدفعها مرات ومرات، تؤمن ما تنفق به على نفسها وعليه، وانها كثيرا ما تورطت في نزاع مع اللائي لاتعجبهن حياكتها و يبلغ النزاع حد الشجار. فيقذفن في وجهها الأقمشة،

و يسمعنها كلاما قاسيا. فإذا ذهبن عن البيت، استسلمت للبكاء في صمت، ورددت في تأوه عميق حزين كلمة واحدة لم يسمع منها غيرها قط، وهي: (يارب.. يارب.. يارب) فلا يسعه هنا إلا أن يرتمي على ذراعيها باكيا إلى أن يهدأ جأشها وتنهض لتبدأ عملها الرتيب.

ومن الحقائق التي أدركها أيضا، ان حكاية عودة أبيه حكاية خيالية، تخترعها أمه اختراعاً كالكثير من هذه الحكايات التي يسمعها من السيدات العجائز اللائي يزرن أمه بين الحين والحين. وأخذ يدور بذهنه في متاهات لا حصر لها، ألف أن يضيع في حواشيها، واستطاع أن يخرس كل محاولة للخروج منها، حين رأى كيف تترقرق الدموع في عيني أمه كلما دار الحديث بينه و بينها عن الغائب الذي لا يريد أن يعود.

وفي ذات يوم، قالت له أمه: بعد غد السبت سأذهب بك إلى المدرسة، وسنذهب اليوم إلى السوق، لأشتري لك حقيبة، وأقلاما ودفاتر وأشياء كثيرة أخرى.

وحين وقفت به أمه أمام مدير المدرسة، وقالت انها زوجة «عبدالرحمن توفيق»، وان هذا ابنه ابراهيم، رأى في وجه المدير اهتماما وحفاوة وترحيباً. وحين ذهبت أمه، وتركته في غرفة المدير، سمع هذا يقول لكاتب بجانبه: «كان أبوه رجلا فاضلا، سافر من البلد، وهذا الولد في بطن أمه، والعجيب أن أحداً لا يعلم أين هو، منذ غادر البلد حتى اليوم.. لم يبعث حتى برقية الوصول. يقال انه في الهند، ولكن الهند كبيرة كما تعرف، والله يعلم أين يعيش ان كان ما يزال حيا». ثم التفت إلى ابراهيم وسأله: «ألم تصلكم أخبار من أبيك ياابراهيم؟».. وطأطأ ابراهيم رأسه لا يحير جوابا، وشغل المدير بما أمامه من العمل. ثم قام الكاتب، وأخذه معه إلى أحد الفصول.

وطوى ابراهيم أربع سنوات من المرحلة الابتدائية بنجاح، وحين استطاع أن يقرأ و يكتب تفتح ذهنه على كثير من حقائق الحياة، وكان أهمها أنه يعيش على شقاء أمه وسهرها الليالي الطو يلة وراء آلة الخياطة، ولا بد له أن يفعل شيئا

ليخفف من عنائها ان لم يستطع أن يريحها من العمل تماما، وشرع يتتبع اعلانات الوظائف الشاغرة في الصحف، و يقرأ هذه الشروط التي تنشر إلى جانب كل وظيفة. وعجز أن يجد بينها وظيفة واحدة، يمكنه أن يلتحق بها دون أن يحمل الشهادة الابتدائية. وكان بينه و بين السنة النهائية سنتان بكاملهما.. كان في أول السنة الخامسة، ولا سبيل إلى الشهادة إلا بعد سنتين. وفهم من زملائه انه يستطيع أن يتقدم لها من المنزل، فينالها بعد عام. وصمم على أن يخطو هذه الخطوة حين كان في الحصة الأخيرة من يومه الدراسي، وما كاد يخرج من باب المدرسة، حتى أسرع خطاه إلى البيت.

طرق الباب في استعجال لاهث. وما كاد يرى امه حتى هتف: سأنال الشهادة في نهاية العام.. سأختصر سنة بطولها، وقبل أن تتماسك من دهشتها، قال: وبمجرد أن أحمل الشهادة سأتوظف.. أتوظف ياأمي وتستريحين أنت من هذا التعب، وقفز يأخذ وجهها بين يديه و يغمره بالقبلات.

ورأى كيف يحتقن وجهها، وتمشي في قسماته سحابة من حيرة وارتباك.. انتظر أن تقول له أي كلمة، فلم يسمع منها شيئا، وقبلته قبلات أحس انها اقل حرارة من تلك التي عهدها منها كلما جاءها بشهادة من شهادات النجاح، أو بأخبار الثناء الذي كان يجده من المدرسين.

ودخل الغرفة التي تستقبل فيها زائراتها فرأى سيدة لم يسبق له أن رآها من قبل. وقالت أمه: هذا ولدي ابراهيم ثم التفتت إليه تقول: «هيا اذهب واخلع ملابسك، واغسل وجهك، وسألحق بك» وخرج من الغرفة متباطئا، وما كاد يمشي خطوتين حتى سمع السيدة الزائرة تقول: «سيحبه كما يحب ابنه، بل هو يحبه منذ زمن طويل.. كثيرا ما حدثني عن ذكائه وجده واجتهاده.».

ومشى وهو يتساءل: ترى من هو هذا الذي تتحدث عنه السيدة الزائرة؟ وقبل أن يضع حقيبته في ركن الغرفة، كان يرى صورة رجل..مجهول.. هو الذي جاءت السيدة من أجله، وكانت ما تزال تتحدث عنه. وتساءل «ماذا يعني هذا؟».. واستطاع أن يطرد عن ذهنه فكرة العودة إلى الممر ليسمع المزيد، وليعرف ماذا هناك.

ولم يطل به الانتظار، فقد سمع أمه تودع السيدة وهي تردد: «يختار الله ما فيه الخير..»، وسمع السيدة تقول: «كل شيء قسمة ونصيب.»

وحين دخلت أمه الغرفة التي قبع في ركن منها، رأى في عينيها انها قلقة حائرة.. تريد أن تقول شيئا.. أشياء كثيرة ولكنها لا تستطيع.

وعادت إلى ذهنه صورة الرجل المجهول الذي سيحبه، كما يحب ابنه، وامتلأت نفسه بهذه الصورة، ووراءها مشاعر غامضة.. غاص لها قلبه الصغير.. وظل هو أيضا يريد أن يقول شيئا فلا يستطيع.

وأخيراً استطاع أن يهمس: ماما.. من هو الذي تتحدث عنه السيدة التي كانت هنا؟

وكأنما قد ألقى اليها بما ينتشلها من الغرق، فقالت: انه.. انه مدير مدرستك ياابراهيم، وهذه أمه.. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا.. فقد التزمت الصمت، وانصرفت تعدله غداءه.. وفي نفسها انه قد فهم كل شيء.

ولم يعد ابراهيم إلى الحديث عن الشهادة التي سيتقدم اليها من المنزل، وضاعت أحلامه الكبيرة في النجاح الذي قرر أن يعمل له ليتوظف، وليريح والدته من العناء الطويل.

وحين خرج من البيت إلى المدرسة في صباح اليوم التالي، كان يعلم ان مديرها قد خطب أمه لنفسه، وانه هو الرجل الذي سيحبه كما يحب ابنه.

ولمح المدير وهو يدخل فناء المدرسة، فأغضى وأطرق، ومشى بين لداته، وكأن بحراً لا قرار له يلتهم كيانه الصغير و يلفه في أحشائه، فلا يستطيع الاّ أن يستسلم لمصير غامض بعيد.

وخلال حصة الفقه التي كان يلقيها المدرس كان ذهن ابراهيم مشغولا بأمه التي لم يعد يشك في أنها ستتزوج المدير.. ثم بأبيه الذي قالت له مئات المرات، انه يشبهه هو في كل قسمة من قسماته، بل حتى في حركة يديه حين يتكلم، وفي مشيته حين يمشي، وفي ارتفاع جبهته على الأخمص. واستطاع أن يجمع شتات

ذهنه، أن يقول لنفسه ان المدير لايشبهه في شيء ابدا، فهو لايشبه أباه اطلاقا. وردد كلمات السيدة، والدة المدير، وهي تقول: انه سيحبه كما يحب ابنه.. وغاص قلبه مرة أخرى ومرات، فقد كان يعتقد ان الوحيد الذي يحبه في هذا العالم هو هذه الأم التي لم ير في حياتها سواه، ولم يشعر قط بمن يعطف عليه سواها. وأوغل في التفكير إلى أن وجد نفسه يتساءل: ترى أين سينام حين تتزوج أمه المدير؟ لن ينام إلى جانبها، ولن يسمع حكاياتها الحلوة، ولن تجيبه على أسئلته الكثيرة عن أبيه الذي سافر ولم يعد، وعن حفظه للقرآن، وصلاته اماماً في رمضان.

وانتبه على صيحة من مدرس الفقه وهو يوجه اليه سؤالا لم يكن قد سمعه، ولم يكن في ذهنه ما يجيب به عليه، وكانت هذه أول مرة، يسمع فيها مثل هذه الصيحة، ووراءها كلمة تأنيب كثيرا ما حرص على الا يسمعها من المدرسين.

وقبل نهاية الشهر، كان كل شيء قد تم.. وحين عاد من المدرسة بعد ظهر يوم الخميس، كان يعلم ان أمه ـــ وهو معها ـــ سيغادران بيتهما الى بيت المدير. وظل السؤال الذي لم يستطع أن يوجهه إلى أمه هو: أين ينام حين يذهب معها إلى البيت الجديد؟

ورأى وجه أمه وهو يدخل عليها بعد الظهر.. ذابلا شاحباً، ورأى في عينيها بقية من دموع. وبكى.. وبكى كما لم يبك في حياته قط، وبكت هي أيضاً وهي تضمه إلى صدرها النحيل وتغمر وجهه بما لا حصر له من قبل فيها كل ما تستطيع لارضائه فيما بدا لها انه كارثة بالنسبة للطفل الصغير.

ومع ذلك، لم يستطع أن يسألها أين ينام في بيت المدير.

ومضى وقت الظهيرة بطيئاً ثقيلا.. كانت أمه خلاله تجمع أمتعتها في الحقيبة الكبيرة، وقد رأى بينها أردية جديدة ذات ألوان وزجاجات عطر وزخارف مما يتحلى به النساء.. ورأى أمتعته هو ملقاة هناك على طرف الوسادة، وبينها الحذاء الجديد الذي اشترته له في عيد رمضان.. ترى هل تفكر أمه في أن تتركه وحده في هذا البيت؟.. وأن تذهب وحدها إلى بيت المدير؟! قال لنفسه: ليتها تفعل..

وردد أمنيته وهو ما يزال يغص بدموعه، وهي ما تزال دامعة العينين، تجهش بالبكاء كلما القت عليه نظرة، ورأت انه مايزال يجتاز طريقه الوعرة إلى المصير المجهول.

وفي لحظات الغروب، أخذ الباب يطرق بين الفينة والفينة، وتدخل منه سيدة من الجارات والمعارف اللائي سيذهبن مع أمه إلى بيت العريس، فلا تكاد الواحدة منهن تراها باكية شاحبة حتى تشهق هي أيضاً وتأخذ في البكاء، مع كلمة من كلمات المواساة والعطف والتشجيع.

وقالت احداهن: ستأتي السيارة بعد صلاة العشاء.. قال ابو محمد انه سيصلي العشاء، ويجيء ليأخذنا.

وقالت أخرى: وأبو حامد أيضا سيأتي بسيارته، ومعه الرجال، وابراهيم..

وأدرك ابراهيم، أنه لن يبقى في هذا البيت منذ اليوم.. سيذهب مع أمه إلى بيت المدير.. ومرة أخرى، وجد نفسه يقول: كلا ان المدير لا يشبه أبي اطلاقا، ولن يحبني كما يحب ابنه.. وحتى أمي.. وابتلع أفكاره عن أمه، فقد كان لايطيق أن يتصور أن يحرم منها هي أيضاً.

وارتفع بوق سيارة قالت كل سيدة انها ليست سيارة احداهن.. وعقبت أخرى: لعلها مرسلة من العريس.. وهتفت ثالثة تقول: قم ياابراهيم وانظر من هناك؟

ونهض ابراهيم متثاقلا، وهو يسمع من يناديه هو بالذات.. كلا لم يكن صوت طفل من الأطفال، ولم يكن صوت المدير، ولا صوت أحد من الجيران.. وقبل أن ينتهي من الممر، رأى أمه تركض خلفه، وتهتف: أبوك.. أبوك، ياابراهيم.

وارتفعت ضجة النساء، وكل منهن تهتف: أبوك.. أبوك.. أبوك عبد الرحمن، ياابراهيم..

وأحس ابراهيم بأن كل شيء حوله يدور.. وتلاشت الضجة التي ملأت الممر، وساد الصمت.. ولم يعد ابراهيم يعي شيئا مما حوله.

وحين فتح عينيه رأى وجها حانيا عليه.. كان هو.. الرجل الذي يشبهه في كل قسمة من قسماته، وفي ارتفاع جبهته واشراقها على الأخص.

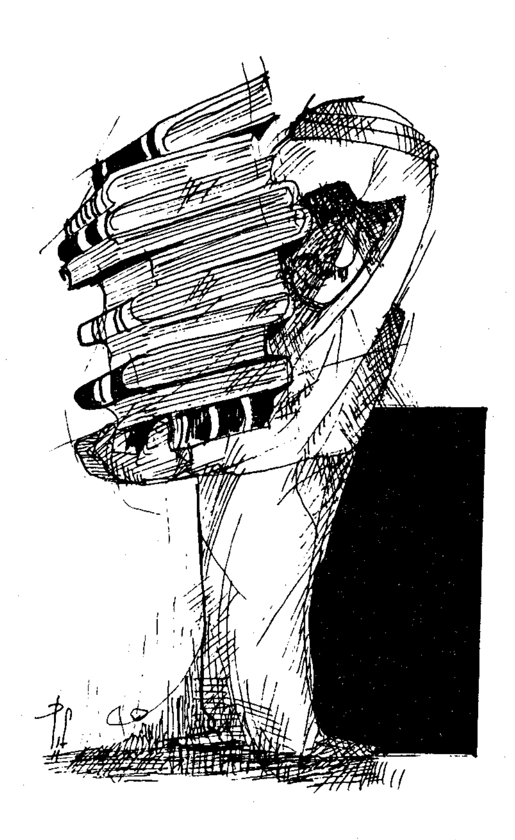
وأدار عينيه في المكان، فرأى رجالا كثيرين، ورأى المدير، ومدرس الفقه، وسمع صوت أبيه لأول مرة، وهو يقول: «الحمدلله..انه بخير» وسمع رجلا عرف أنه الطبيب، وهو يقول: «فعلا انه بخير..»

وسمع النساء خارج المكان يتهامسن: «لقد صحا.. صحا.. اطمئني ياأم ابراهيم انه بخير..» وحمله أبوه على صدره، ونهض به وهو يقول: «طريق.. طريق ياجماعة»، وانطلق في الممر إلى الغرفة التي ينام فيها ابراهيم.. كان فراشه هناك، وكانت أمه في ركن الغرفة مع بقية النساء.

ونام ابراهيم ليلته، وحين استيقظ في الصباح، رأى نفسه لأول مرة يجلس لتناول افطاره مع أمه وأبيه.



بائع الکتب





بائع الكتب

ما يزال هاشم يذكر من أيام طفولته أشياء كثيرة، منها: ما يضحكه، فلا يملك إلاّ أن يبتسم، و يردد: (أين تلك الأ يام من هذه الأ يام؟)، ومنها: ما يبعث في نفسه مشاعر الأسى والرثاء، فلا يملك إلاّ أن يلقي نظرة تائهة على الأ رفف في دكانه، وقد امتلأت بالكتب التي يبيعها منذ أصبح يمتهن تجارة هذه الكتب، استيرادا من الخارج و بيعا على الناس من عملائه الكثيرين الذين يعرف ان بعضهم من أكابر القوم، الذين عرفوا بما لهم من مكانة كموظفين كبار أو أدباء مشهورين يشار إليهم بالبنان.

وهو ما يزال يذكر كيف امتهن تجارة الكتب، ولكنه لايدري كيف لم يستطع ابدا أن يصبح شخصية مرموقة من هذه الشخصيات التي تتوافد على مكتبته وتتزاحم على شراء ما يستورده من احدث ما ظهر من الكتب في اسواق العالم العربي.

والذكرى التي يأسى لها، و يشعر بالحزن والرثاء هي: أنه نشأ في احضان والده الذي لم يكن يمضي يوما إلاّ و يراه داخلا وتحت ابطه مجموعة من الكتب لايكاد يستريح من المشوار الذي مشاه حتى يأخذ في وضعها على رفوف المكتبة الكبيرة، ثم بعد أن يتناول الغذاء و يضطجع للاستجمام والراحة، يفتح أحد هذه الكتب و يظل يقرأها إلى أن يحين وقت صلاة العصر، فينهض لادائها ثم لايكاد يفرغ من الصلاة حتى يعود إلى الكتاب ناسيا كل شيء مما حوله، وحتى من مطالب البيت ما دام الكتاب في يده.

كان هاشم يتساءل بينه و بين نفسه، وهو ذاهب إلى المدرسة أو عائد منها: ترى هل قرأ أبوه كل هذا العدد الكبير من الكتب التي يراها تملأ أرفف المكتبة في

بيته .. وحين يجلس لمذاكرة دروسه في المرحلة الابتدائية ، و يواجه تلك الصعوبات في فهم ما يجده في هذه الدروس ، يعود إلى التساؤل عن هذه المعجزة التي يرى أن أباه يحققها بقراءة ما يقرأ من الكتب التي يجيء بها من الأسواق يوما بعد يوم .

ثم هو لاينسى مساء الخميس من كل اسبوع ، واولئك الرجال الذين يجتمعون عند أبيه في المقعد الكبير وما يدور بينهم من أحاديث ومحاورات حول مواضيع ، ما يزال هاشم يعترف بينه و بين نفسه ، وحتى للخلّص من اصدقائه بأنه لم يكن يفهم منها شيئا ، وليس لديه شك في أنه لن يفهم أي شيء منها مهما طال به الزمن مع هذه الكتب التي يستودرها و يتاجر بها .

ولقد مات ابوه ذات يوم فجأة ، حين كان هو في المدرسة .. وتدمع عيناه حين يذكر تلك الليلة التي اجتمع فيها خلق كثير من عارفي فضل أبيه ومكانته العلمية ، اذ أدرك ــ وربما لأ ول مرة ــ أن للعلماء من أمثال أبيه مكانة في نفوس الناس ، اذ لم يكن يتصور أن يحضر للعزاء أولئك الامراء والوزراء وأمثالهم من كبار الرجال والشخصيات المرموقة في البلاد .

وكان وحيد أبو يه ، ولم يكن يزيد عمره يوم مات أبوه عن الرابعة عشرة ، فهو منذ تلك الليلة عميد الأسرة والمسؤول عنها ، وفيها أمه وأخواته الأ ربع ، وعمته العجوز وابنتاها .. ومع أنه كان في الليلة الأ ولى لوفاة أبيه خالي الذهن تقريبا من كل فكرة عن هذه المسؤولية ، فقد وجد أن خير مكان يلوذ به بعد انفضاض جمع المعزين من الرجال ، هو هذه المكتبة التي لم يكن ابوه يغادرها إلاّ حين يذهب لصلاة المغرب والعشاء أو حين يخرج للتسوق بعض الأحيان .

و يذكر أنه جلس في هذه المكتبة على نفس المقعد الذي كان يجلس عليه أبوه ، وأنه ظلّ يبكي بكاء صامتا مريرا ، يزداد و يزحم صدره باللوعة والحرقة كلما تناهت إلى سمعه أصوات الباكيات من النساء في البيت .. وعبر الدموع التي كانت تملأ عينيه ، كان يجيل بصره في الكتب التي تحيط به على جدران الغرفة وعلى بعض المقاعد ، هنا وهناك .

أبرق في ذهنه ، في تلك اللحظات أنه لابد وأن يأتي يوم يقرأ فيه هذه الكتب

كما قرأها أبوه.. وبذلك يصبح عالما من كبار العلماء الذين يجلّهم الناس ويعرفون فضلهم وان كانوا ليسوا من أصحاب المال الكثير والجاه الكبير والثراء العريض.

وما كادت تمضي أيام قليلة على وفاة أبيه، حتى أحس بتلك المسؤوليات الضخمة التي القيت على عاتقه حين قالت أمه، وعلى محضر من عمته العجوز: ان أباه مات فقيرا لايملك سوى هذه الكتب التي لايدري أحد ماذا تساويه من المال لو أرادوا بيعها.. ولا مناص لهم من بيعها اذ لم يجدوا في صندوق أبيه الخشبي الصغير، سوى مئتي ريال فضة، وخمسة جنيهات ذهبا.

ولا ينسى هاشم فجيعته في تلك اللحظات، ليس لأن أباه لم يترك أموالا تقي الأسرة شر العوز والفاقة، وانما لأن بيع الكتب ــ لو قرروا بيعها ــ يعني أنه سيحرم من قراءتها ومن أمله في أن يصبح ذلك العالم الكبير.

ولاحصر للمراحل التي ظلّ يقطعها في مسيرته لاجتياز الكثير من العقبات والصعاب التي ظلت تواجهه في أداء واجبه نحو الأسرة الكبيرة، ولكنه ما يزال يذكر أن أصعب هذه المراحل كان اضطراره لبيع كتب أبيه، اما كتابا كتابا بحيث يؤمن بقيمة الكتاب حاجة البيت إلى الطعام أو جملة تصل إلى خمسة كتب أو حتى عشرة، حين يجد أن ما يحتاجه البيت والاسرة من المال يستلزم مبلغا أكثر من قيمة كتاب أو كتابين.

وقد ذهبت الكتب جميعها، كما ذهب الكثير من المقتنيات إلى أن أراد الله له أن يتم مرحلة من التعليم يسرت له العمل في احدى الوظائف الشاغرة التي لم تكن شروط التوظيف في تلك الأيام تحتم ما تحتمه في هذه الأيام من الشهادات وسابق الخدمة والخبرة وما إلى ذلك من الشروط.

ولم يكن راتب الوظيفة يكفي لسد حاجة البيت من النفقة، ولكن بدأ ما أخذ يخفف من عبء المسؤوليات التي عليه، حين تزوجت الأخت الكبرى ثم تتابع زواج الأخريات من اخواته.. ومع أن الراتب الذي يتقاضاه لم يكن يزداد إلا بنسبة ضئيلة جدا، فقد استطاع ــ كما تقول أمه وعمته العجوز ــ أن يعيش معهم

مستورا لا يمد يده مستجديا أو محتاجا إلى عون أحد.

ولكن ما يسميه كارثة ــونعمة في نفس الوقتــ كان يوم صدر إليه أمر بالانتقال إلى تبوك.. وكان مع الانتقال وعد بالترقية إلى مرتبة تالية يزداد معها الراتب قليلا ولكن لم يكن في وسعه أن ينتقل إلى أي بلد مع من يعولهن من النساء، وهن أمه وعمته العجوز وابنتاها اللتان لم يتقدم أحد للزواج منهما. ولذلك لم يجد امامه حلا سوى أن يستقيل، وأن يبحث عن عمل آخر.

و يذكر أنه تردد على كثيرين ممن كان يتعشّم فيهم النجدة والغوث.. ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، وليس ذلك لأنهم لم يكونوا يعطفون عليه أو لا يرغبون في مساعدته وانما لأن قدرتهم على ايجاد عمل له كانت أقل مما يستطيعون.

وعاد إلى منزله بعد ظهر أحد الأ يام ودخل إلى تلك الغرفة التي كانت في عام ما ممتلئة بكتب أبيه وجلس على نفس المقعد، واستسلم للبكاء، وقد غامت الدنيا في عينيه واظلمت الحياة من حوله.. وحين رفع رأسه عن كفيه وأجال بصره في الغرفة رأى السجادة من الحصير التي كان يصلي عليها ابوه، فازدحم صدره باللوعة والحنين والأسى.. ثم لايدري كيف أحس بانتعاش وانشراح صدر لا عهد له بهما منذ زمن طو يل.. فنهض وأسرع يتوضأ، ثم عاد إلى الغرفة و بسط السجادة وصلى ركعتين، ورفع يديه ضارعا إلى الله أن يجعل له مخرجا من أمره.

وما كاد يفرغ من دعائه وضراعته حتى وجد نفسه يتساءل.. ما الذي يمنع أن يفتح مكتبة بالعدد القليل جدا من الكتب التي رآها ما تزال متناثرة على بعض أرفف المكتبة؟

وأسرع يعرض الفكرة على والدته وعمته العجوز وأدهشه أن يجدهما ترحبان بما عرض، ثم نهضت عمته وخرجت حيث غابت قليلا لتعود وفي يدها أسورة من الذهب قالت: (انها كانت تحفظها عقدة كفن.. ولكنها لا ترى ما يمنع أن يبيعها ليستأجر دكانا و يبدأ عمله بائعا للكتب).

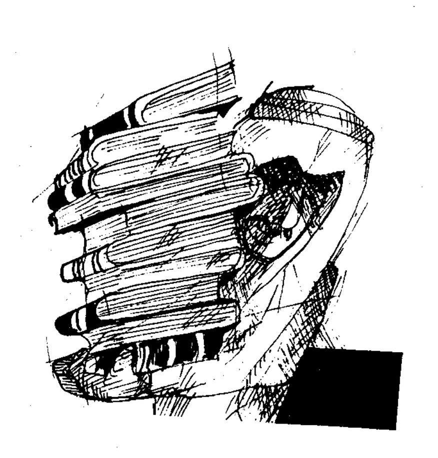
وما كاد يمضي في مشروعه حتى توالت عليه مراحل من التسهيلات التي لم

تكن تخطر له ببال اذ أعطاه عدد من تجار الكتب مجموعة كبيرة مما لديهم يبيعها برسم التصريف وله ربح محدد من قيمة كل كتاب.

ومنذ ذلك اليوم مضت أعوام كثيرة، اتسع خلالها عمله، فأصبح قادرا على أن يسافر بنفسه إلى الخارج، وأن يعود وقد اشترى ما يشحن له من الكتب التي عرف بالمران مدى رواجها واقبال الناس عليها.

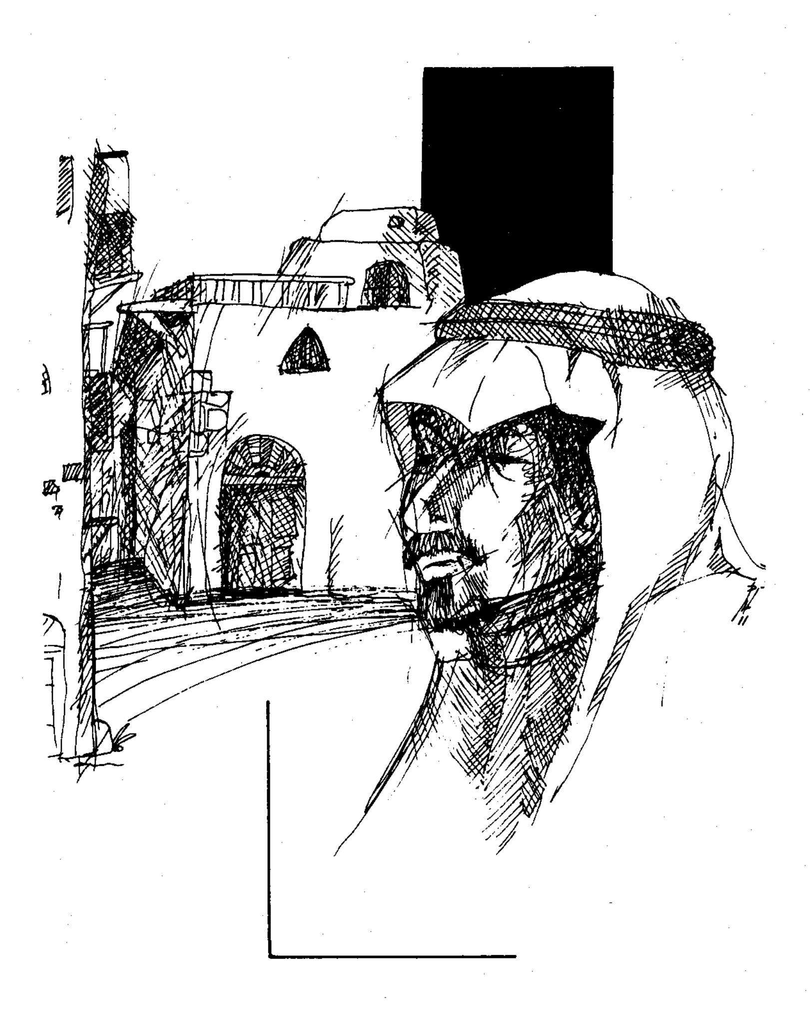
وقد ماتت أمه، ولحقتها عمته العجوز وتزوج هو احدى بنتيها قبل وفاتها، ثم تزوجت الأخرى وأصبح بذلك رب أسرة جديدة فيها زوجته واطفاله وفيها اطمئنانه إلى المستقبل اذ ازداد الاقبال على الكتب بازدياد عدد المتعلمين، والمتخرجين من مختلف مراحل التعليم من ذكور واناث.

ولا يخامر هاشما شك في أنه قد اجتاز الكثير من العقبات خلال هذه المرحلة من العمر، وقد شارف الأربعين ولكن، العقبة التي أدرك أنه لن يجتازها هي أن يصبح عالما كبيرا كما كان أبوه على الرغم من مئات الكتب التي يستوردها ويبيعها وتملأ أرفف محله دون أن يستطيع قراءة أي كتاب منها. وهو يعلل ذلك بأن الأيام تغيرت اذ كيف يتاح له أن يقرأ وهو مشغول بالبيع والشراء طوال اليوم، وبالاصغاء إلى الراديو ومشاهدة التليفزيون كل مساء.





البيت المهجور





البيت المهجور

لم يكن ابراهيم شوقي وحيد أبو يه، كما لم يكن الوارث الوحيد لثروة والده من أموال ومقتنيات وعقار، ولكن بعد وفاة والده في أولى سنوات الحرب العالمية الثانية، تعاقب تشييع الجنائز من البيت الكبير الذي تسكنه الأسرة منذ أكثر من مئة عام، بحيث لم تنته الحرب، وتبدأ أسواق مكة تستقبل السلع التي ظلّت محرومة منها طوال أيام الحرب، حتى كان ابراهيم قد شيّع جنازة أمّه، وهي آخر من بقي له من أسرته.

وهو ما يزال يذكر تلك الليلة التي انتهت فيها قراءة العزاء في أمه، فقد صعد إلى السطح الأعلى حيث اعتاد أن ينام مع اخوته قبل أن يموتوا، ثم مع امه وقد ماتت هي أيضا.. وحين استلقى على السرير الخشبي، ودار بعينيه حوله، أحس كأن وجوه الموتى تحيط به وتحملق فيه، وكأن كلا منهم يهمس في اذنه بكلمة واحدة لم تتغير وهي: (انت أيضا لاحق بنا قريبا ما دمت تسكن هذا البيت).. ولم يغمض له في تلك الليلة جفن إلى الفجر، ليس لأنه سوف يلحق بهم كما خيّل إليه انه يسمع منهم، فالموت حق، وهو نهاية المسيرة على كل حال، ولكن لأن لحاقه بهم وهو لم يتزوّج ولم ينجب، معناه فناء الأسرة وزوال اسمها من الوجود والأهم من ذلك، أن جميع ما قدر الله له أن يرثه من أموال سيؤول إلى بيت المال، وهو يعلم أيضا انّه لا وارث لأمه سواه، وقد تركت الكثير من الجواهر والحلي إلى جانب بيت في منى، وآخر في شعب عامر، وأراض في المدينة المنوّرة يذكر أن أباه عني بتسويرها، وكان يرفض ما يعرض عليه من اسعار ليبيعها كلّما زار المسجد النبوي في شهر رجب من كل عام، وحجّته التي يقنع بها أم ابراهيم أن (المخزن) وهو اصطلاح أهل المدينة لمساحة من الأرض— اذا كانوا يدفعون فيه مئتي ريال في هذه الأيّام، فانهم سوف يدفعون عشرة آلاف ريال عندما يعود قطار

السكة الحديدية إلى الحركة بعد سنوات.

واذ كانت البيوت التي ورثها مؤجّرة كلها، و يتعذّر أن يطالب أي ساكن بالاخلاء في منتصف العام فقد قرر أن يبحث عن بيت يسكنه، وان يعرض البيت الكبير للايجار، ولولا انّه وَقْفٌ لعرضه للبيع وتخلّص منه إلى الأ بد.

وقبل نهاية الشهر كان قد وجد بيتا حديث البناء في جرول فانتقل إليه واثّثه بأثاث جديد و بعد أن باع كل الأ ثاث القديم باستثناء الصندوق الحديدي الكبير. الذي كان يودع فيه أبوه مقتنياته، وصناديق امّه السيسم الثلا ثة، وشيش الجراك المصنوعة في الهند والمغلّفة بالفضّة والنحاس، ثم عرض البيت للايجار، وفي نفسه الاّ يحاول حتى مجرد المرور من الزقاق الذي يقع فيه هذا البيت، فاذا لم يستأجره أحد، بعد أن شهدت الحارة كلّها عدد الجنائز التي شيّعت منه خلال سنة الحرب، فلا بأس بأن يظل مغلقا، اذ هو مستغن بفضل الله عن ايجاره بما يملك، وهو أكثر من الكثير.

وظلّ البيت الكبير الوقف مغلقا.. وكما توقع ابراهيم لم يجرؤ أحد من الحارة على استئجاره، حتى لشهور الموسم، وحتى الذين يبحثون عن بيوت في أول العام الجديد من الحواير الأخرى، كانوا يأخذون منه المفتاح ثم يعيدونه إليه دون أن ينبسوا بكلمة، و يفهم ابراهيم، انهم قد وجدوا من سكان الزقاق وربّما الحارة كلّها من اخبرهم بعدد الجنائز التي خرجت منه، فعذرهم واضح ومفهوم. وليس في ذلك ما يضايقه أو يدهشه، اذ لم ينس قط انّه هو نفسه قد هجره وهرب منه.

وكان أبوه قد كوّن ثروته من تجارة اللؤلؤ والجواهر والحلي.. وكانت طريقته في الاتجار بهذه النفائس الغالية تختلف عن طريقة غيره من المشتغلين بهذه التجارة.. كان المقعد الكبير الذي يجلس في روشانه، وإلى جانبه ذلك الصندوق الحديدي الضخم، هو محلّه التجاري، وهو أيضا المجلس الذي يستقبل فيه ضيوفه، ولم يكن وقت العمل عنده محدودا بصباح أو مساء.. بل لم يكن يتردد في استقبال أي عميل يطرق بابه بعد صلاة العشاء، أو في الساعات الأ ولى من الصباح.. وهو، على استقبال عملاء الليل أو ساعات الصباح الأ ولى، احرص منه على استقبال

عملاء الأوقات المعتادة من النهار.. وذلك لأن الذي يختار وقت خلو المقعد من الضيوف أو العملاء، هو الذي يعرض للبيع ما يعزّ عليه أن يراه أحد في هذا الموقف الذي يدل على ما وصل اليه الحال من العوز والفاقة.. ومع أن العم شوقي كان يقدّر هذه المواقف و يأسى لها ويحرص على الآ يبخس العارضين اشياءهم، إلاّ أنّه يفلسف الهبوط بالأسعار التي يعرضها لشراء ما يحمله إليه المحتاجون والمحتاجات، بأن (السوق يحكم) وان الأسعار بطبيعتها في أيام الأزمات والحروب، تبرر أن يشتري ما قيمته مئة جنيه ذهب بأقلّ من ثلاثين، فاذا لاحظ من لهجة العميل ــواحيانا العميلةــ التحسّر وشعور الخيبة واليأس والاضطرار، لم يكن يتردد في أن يرتفع بالسعر إلى خمسة وثلاثين أو حتى أربعين، وحين يدفع المبلغ، و يستلم الحلية من اللؤلؤ أو الماس، كان يرفع يديه و يدعو للعميل ولنفسه وللمسلمين بالفرج العاجل القريب، و يؤكّد انّه مستعد لأن يبيعه نفس الحلية بربح لايزيد عن جنيه أو جنيهين اذا عاد إليه بالمبلغ في بحر مدة لا تزيد عن شهر أو شهرين.

ولكن الظروف تغيّرت بعد الحرب، اذ بدأت الأسواق تشهد انتعاشا، ليس في بيع المصوغات والحلي والجواهر فحسب، وانما في سلع أخرى لم تكن تخطر لأحد ببال. وأحس ابراهيم، أن طريقة أبيه التقليدية لم تعد مما يتقبّله النشاط التجاري الجديد خصوصا، وان البيت الكبير مغلق، والكثيرون من عملاء أبيه من دلاّلي المصوغات يستصعبون الوصول إليه في منزله بجرول.. وقد دخل السوق من ابتسم لهم الحظ فأصبحوا يبيعون و يشترون المصوغات بمئات الألوف بل و بالملايين.. ولذلك قدر ابراهيم أن يساير حركة التغير والتطور، وأن يلتمس مجالات أخرى، ان لم تجد عليه ربحا طائلا كذلك الذي يتسامع الناس أن بعضهم قد حققه، فليس أقل من أن تدر عليه ما يمكّنه من الاحتفاظ بما ورث، وعلى الأخص بعد أن تزوّج ودب بين عينيه وعلى يديه خلال أقل من سبع سنوات ولدان و بنت، لابد أن يترك لهم من الثراء مثل ما تركه له أبوه وأمه على الأقل.

ولم يكن مستواه في التعليم يتعدى الابتدائية من احدى المدارس الأهلية، وهكذا كان أكثر الناس في تلك الأيّام.. وهكذا كان تفكير أبيه أيضا، اذ حتى عندما تطلع ابراهيم إلى الالتحاق بمدرسة تحضير البعثات، كان منطق أبيه أن لا

ضرورة لذلك، ما دام لايطمح إلى الوظيفة الحكومية، لأن التجارة خبرة وممارسة، فاذا كرّس جهده لها ووفقه الله، فانّه سوف ينجح كتاجر كبير في المصوغات والجواهر، وهي تجارة قال ابوه انها (صنعة) والمثل العامي يقول: (صنعة ابوك لايغلبوك)..

وبهذا المستوى المتواضع من التعليم، وبالموروث من المال الكثير، وبظهور مشروع توسعة الحرم الذي بدأته الدولة واعتمدت له مئات الملايين من الريالات دخل ابراهيم كغيره سوق المقاولات.. ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان له مركز رئيسي في مكة، وفرع في جدة، وفي المركز الرئيسي وفي الفرع عدد من المهندسين، إلى جانب عدد آخر من الموظفين والمحاسبين، وامام الباب سيارته المترفة، تحف بها سيارات النقل ومعدّات البناء، بالاضافة إلى علاقات واسعة بتجار الأسمنت والحديد والخشب، وورش النجارة، ولا تقل عنها اتساعا ووثوقا، علاقات مع كثير من رعيل رجال الأعمال المحدثين، مكّنت له من السمعة الحسنة التي اتاحت له ان يتمتّع بالكثير من الحفاوة والترحيب اينما حل وارتحل.

وفي غمرة هذا النجاح، كان ابراهيم قد باع جميع العقار الذي ورثه ــ باستثناء البيت الوقف الكبير الذي ظلّ مغلقا ــ وحولّ تلك الحجارة والتربة إلى ارصدة في البنوك أحس انها تمتاز بالقدرة العجيبة على الحركة والانتقال.. وكان لابد له من حركة هذه الأرصدة حين اصبحت تضطره صفقة معينة إلى السفر إلى بيروت أو فرانكفورت أو لندن، فان هذه الأرصدة أو جزءا منها يكون تحت امره في أي بنك من بنوك هذه البلدان، يسحب ويودع، وهذا بالاضافة إلى أن أبواب الشركات الكبرى كانت تفتح له على مصاريعها بكلمة من هذا البنك أو ذاك، فيعود بعقود الصفقات والتوكيلات.. ويتّسع العمل ويتنوّع، وتمتد له الشرايين، وتتجمّع بين يديه ــ كلمّا وقف مراجعو الحسابات امامه يعرضون عليه مركزه المالي ــ آفاق لاحصر لها من الربح والنمو، حيث اصبح ابراهيم على يقين لايتزعزع، بأن ما أصبح يملكه ويتصرّف فيه من المال والأعمال سوف يكفي احفاد أحفاده للعيش في رغد وسعادة وهناء.

ومع أن مشروع توسعة الحرمين، ظلّ يدفق الثراء في حياة البلد، وعلى الأخص في حياة المقاولين، فان ابراهيم بعد ان اتّسعت اعماله وتشعبّت تجارته اصبح يتطلّع إلى الانسحاب من مقاولات البناء وما تجره من متاعب وتستدرجه إلى مسالك فيها الكثر من الالتواء، والأكثر من اخضاع الضمير لمقتضى الحال توقّيا للخسائر وتجنّبا للمواقف التي كثيرا ما انذرته باحتمالات الخطر والضياع.

وبدراسة قام بها بعض من رجّح اخلاصهم من المحاسبين في مؤسسته، بداله ان الاكتفاء باعمال الاستيراد هو خير ما يحسن به التركيز عليه.. ومع ان تصفية التزامات البناء لم يكن يكفيها من الزمن اقل من سنتين اذا كفّ عن الالتزام باعمال جديدة، فقد قرر هذه التصفية، وبدأ يستبعد الكثير مما يتاح من الفرص رغم ما يؤكده له المهندسون في مؤسسته من احتمالات الأرباح الطائلة، كما أخذ — في نفس الوقت— يتوسّع في استيراد السلع التي استطاع أن يحصل على توكيلاتها.

وحرص على ان يتكتّم عزمه على التصفية، فلم يستغن عن المهندسين والفنيين، ولم يلغ العقود القائمة بينه وبين المحاسبين والموظفين ولكن تكرر استبعاده الدخول في التزامات جديدة لم يفلت من ملاحظة المنافسين، ومعهم تجار مواد البناء، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى بدأ المهندسون والموظّفون عنده يتهامسون عن الظاهرة، التي لم يجدوا لها تفسيرا إلاّ أن مؤسسته توشك ان تفلس أو هي قد افلست فعلا.. وتطور الهمس إلى التصريح بحيث وجد من يزوره من اصدقائه ويفاتحه عمّا سمع.. بل لقد حدث ان قدم إليه بعض عملائه من بيروت ومن غيرها، يتحسسون الحالة، ويلمّح بعضهم بأن حسابه معهم (مدين) ولكنهم لم يجيئوا لهذا الغرض، وانما للتفاهم على مواضيع اخرى، يتضّح لابراهيم في النهاية انها تافهة واقل اهمية من أن تستلزم قدومهم، ولا يداخله شك، في أن الغرض من الزيارة ليس في الواقع إلاّ الرغبة في الاطمئنان على ذلك الحساب (المدين).

وقد ظل يسخر من الاشاعة فترة من الزمن، ولكن لم يستطع ان يخفي قلقه عندما اخذ يتلقّى من أحد البنوك التي يعاملها اشعارات بحسابه المدين ورجاء التغطية.. فأسرع يطلب من مراجعي الحسابات ان يقدّموا له تقريرا عن وضعه

المالي قبل الموعد المقرر للمراجعة.. وانتظر اياما، جاءه بعدها المسؤول عن اعمال المراجعة، يحمل إليه تقريرا، انكبّ على دراسته دون ان يشرك أحدا من موظفيه.. واكتشف ــلأ ول مرةــ ان وضعه الحسابي متين ومتماسك (دفتريا).. ولكن هذا الوضع الدفتري لايعني ان تحت يده تلك الأموال الطائلة التي تحددها الأ رقام في حقل (الحسابات الدائنة).. اذ كان أكثر من خمسة وسبعين في المئة منها ديونا على متعددين لم ينس وهو يقرأ اسماءهم، انهم ظلّوا يماطلون في الدفع منذ اكثر من ثلاث سنوات..

ولم يطل به الأمر حتى واجه وضعا آخر هو ضرورة الوفاء بالتزامات البناء التي ما تزال تحت التنفيذ.. وهذا يستتبع ضرورة توفّر السيولة النقدية، أو ما يسمّى بالأ رصدة الدائنة في البنوك.. واطمأن قليلا وهو يرى ان هذه الأ رصدة ما تزال عالية، ولكن لم يغب عنه انها ستعجز عن تمكينه ــفي نهاية الأمرــ من الوفاء بهذه الالتزامات.

واشتد به القلق، وتسلّل إلى حياته الارتباك والتوجّس، ولكنه ظل يتظاهر بالتماسك.. وحين عرض عليه مساعدوه عملية من العمليات الضخمة، قدّروا لها أكثر من خمسة عشر مليونا من الريالات، وجد أن خير ما يواجه به اشاعة الافلاس وحالة القلق، ان يغامر بالدخول فيها.. ولم تمض اسابيع حتى كان العطاء قد رسا على مؤسسته، وشرع في تنفيذ الالتزام.

ونجحت الخطة في استبعاد اشاعة الافلاس، ولكن هو نفسه لم يكن يشك في انّه يقترب يوما بعد يوم من شفير الهاو ية.. وعلى الأخص عندما بدأ محاميه يخسر قضايا الديون التي له عند الغير لعدم توفّر المستندات والوثائق.. ورأى رأي العين كيف يشتد به الانحدار إلى القاع، عندما اكتشف ان العملية الضخمة خاسرة وان الفرق بين عطائه الذي رسا عليه، و بين التقدير المسبّق لها لايقل عن خمسة ملايين ريال.. ولم يعد يحتاج إلى مراجعي الحسابات ليقولوا له شيئا عن وضعه المالي، فقد اصبح يدرك، انّه قد خسر كل ما يملك، حتى هذه الدار الفخمة التي يسكن فيها مع زوجته وابنائه.

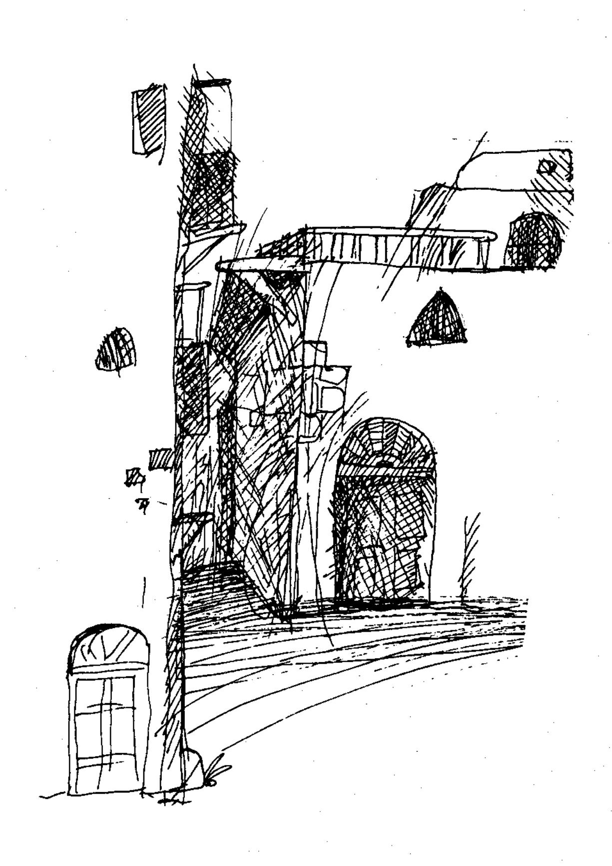
وتطوّر موقفه بسرعة مذهلة، اذ عجز عن اتمام العملية، كما عجز عن اتمام العمليات التي كان قد قرر تصفيتها وتراكمت عليه الغرامات، فصدرت الأحكام بالحجز على كل ما يملك، و بعد الحجز وثبوت العجز، بدأ البيع تحت اشراف هيئة أو لجنة التصفية.. ولم تمض سوى أيام حتى وجد نفسه مطالبا بالاخلاء في اجل محدود، ومهدّدا بالسجن اذا لم تف الموجودات بسداد ماعليه، وكان يعلم انها لن تفي، فمصيره قد تقرر، ولم يعد يخفي شقاءه على أحد من اصدقائه فضلا عن زوجته وابنائه و بناته.

وفي صباح اليوم المحدّد للاخلاء كانت احدى سيارات الأجرة تقف بابراهيم واسرته امام ذلك البيت المقفل، الذي اعتاد الصبية في الزقاق، أن يسمّوه البيت المهجور.. وعالج ابراهيم القفل الصدىء وقتا إلى أن تمكّن من فتحه.. ودخل، ودخلت وراءه زوجته وصغاره.. وفي الدهليز الكبير، وقد عشش فيه العنكبوت، وغطّت ارضه الأتربة الناعمة، وانتشرت فيه رائحة البلى والهجر والقدم.. بكى ابراهيم، و بكى من معه.. وان لم تكن زوجته قد شهدت أو حتى سمعت عن الجنائز التي خرجت من هذا الدهليز، فانّه هو.. كان يرى، وراء دموعه المنهمرة اخوانه واخته الكبيرة الوحيدة، وأباه وأمّه.. وقد اخرجوا كلّهم من هذا الدهليز.

وفي مساء ذلك اليوم، رأى جيران البيت المهجور سيارات النقل تقف امام الباب بقطع الأثاث ورأوا ابراهيم يستقبلها و يشرف على ادخالها كما رأوا الدهليز والمقعد الكبير يضاءآن لأول مرة منذ سنين، ولكن بالأتاريك، اذ لم يكن البيت قد زوّد بالكهرباء.. ومع ان سكان الزقاق قد تغيّروا ولم يبق من الجيران القدامى أحد، فقد زاره بعد بضعة أيام أحد اصدقائه من جدة.. ولكن زيارته لم تطل اكثر من دقائق، حيث خرج مسرعا إلى سيارته ليعود بعد قليل بأحد الأطباء.

وفي اللحظات التي شهد فيها الصبية في الزقاق، نقيب الحارة يقف بعد العصر، وفي يده ورقة تطلب حضور ابراهيم إلى مركز الشرطة، سمع الجميع صراخ امرأة وعويل اطفال.. واستدار النقيب وهو يحوقل ويحسبل، وعندما فتح الباب وخرج أحد ابناء ابراهيم يبكي، وسمعه النقيب يقول وهو ينشج.. بابا.. بابا ياعمّي.. بابا مات.

ومرّت اعوام، وأسرة ابراهيم تسكن البيت الكبير، بحيث نسى الناس انه البيت المهجور.. ولكنّهم لم ينسوا، انّه ظلّ البيت الوحيد في الزقاق، الذي يضاء بالأ تاريك..



الخنافس والكنز





الخنافس والكنز

كان اعتقادها الذي لايتزعزع، هو أن البيت الذي تكثر فيه الخنافس لابد ان يكون فيه كنز.. ولم يكن في وسع ابنها في الثانية عشرة من عمره، وقد تقدّم في مراحل الدراسة قليلا، وعرف بعض حقائق الحياة، ان ينتزع من ذهنها، أو أن يقنعها بأنّه لا علاقة اطلاقا بين الخنافس والكنوز.. كانت لا تكاد ترى الخنافس تدب في القاعة أو الديوان من البيت القديم الذي تسكنه مع (حمادة) واخوانه الثلاثة الصغار، بعد وفاة ابيهم، حتى تطيل التأمّل في كل خنفسة، وتتابعها بنظراتها إلى أن تختفي في احد الجحور، وما اكثرها في هذا البيت، ثم تستغرق في حلمها الدائم الذي لم يبرح مخيلّتها قط، وهو ان هذه القاعة، وهذا الديوان ــ وربما الدهليز أيضا ــ يخبيء كنزا له في مخيلّتها صورة معينّة واضحة أشدّ الوضوح.. بل يبلغ من وضوحها انها تستطيع ان تصف الكثير من تفاصيل الصورة، وحتى الوانها، كأنها قد رأتها رأى العين ولمستها لمس اليدين.

فالكنز، الذي لابد أن يكون مخبوءا في الأرض، حيث تدب الخنافس ليلا ونهارا، عبارة عن (زيرين مغربيين) فوهة كل منهما مسدودة بغطاء من الطين الحلو، فاذا نزع هذا الغطاء، وما اسهل ان ينزع عند العثور على الكنز فهناك في جوف كل زير يقبع الذهب.. وهذا الذهب ليس سبائك، أو مسحوقا، وانما هو نقد ذهبي اسمه (ابو فرج الله). وكل قطعة من هذا النقد الذهبي، تساوي أو تزن خمسة جنيهات عثمانية رشادية أو ربما حميدية أيضا.

فاذا سألها حمادة عن معنى (الزير المغربي، فانها تذهب في وصف هذا الزير، لتقول انّه وعاء يشبه ذلك الذي تراه في كتاب (كليلة ودمنة) الذي ماتزال تتهجّى القصص الموجودة فيه.. وهو عندها كتاب لايقدّر بثمن، ليس لما فيه من الحكم،

وانّما لأنّه واحد من عشرات الكتب التي تركها المرحوم والدها واضطرتها الحاجة الى بيعها، إلاّ هذا الكتاب لأن (المرحوم) كان يقص عليها منه القصص عندما كانت طفلا يحتال على اغرائها بالنوم.. وتنهض مسرعة وتجييء بالكتاب وتقلّب صفحاته إلى أن تجد الصورة التي سرعان ما تقول (هذا هو الزير المغربي بعينه وسنّه).. فيقول ابنها مصححا.. (خابية.. خابية ياأمّي).. فلا يهمّها ان تعرف ماذا يسمّيه الكتاب، فهو الزير المغربي الذي تستأنف وصفه لتقول انّه كبير الحجم جدا، يمكن ان يستوعبها، ومعها أحد اخوته الصغار لو لم تكن له تلك الفوهة الضيّقة التي تسد بالطين الحلو، الذي تعرفه أيضا، بأنه الطين الذي يغادره السيل بعد ان يجرى بضعة أيام.. وهي تؤكّد انها رأت هذا الزير في طفولتها فلونه (اخضر زيتي).. وهذا اللون الأخضر الزيتي، هو ما يمتاز به الزير المغربي عن الأزيار التي تملأ بالماء وتنتجها مصانع الفخّار في المدينة.. و يستهو يها الوصف، والحلم اللذيذ، فتذهب إلى حد التأكيد بأن (أهل أول) كانوا يستوردون زيت الزيتون من المغرب في هذه الأزيار، ولأنها مدهونة بهذا اللون، ومصقولة كالطبق الصيني، فهي لا تصلح للماء، وانما الذي تصلح له هو تخزين الثروة من قطع (ابو فرج الله).. من الذهب، فاذا ما امتلأت إلى ما يقرب من الحافّة، فانهم (وتقصد أهل أوّل) يدفنونها في ارض القاعة أوالديوان لأن الغرف العليا من البيوت لا تصلح لدفن شيء.

ولها منطقها، الذي يجعل حمادة يفكّر أحيانا، في أن ما تقوله قد لايخلو من الصحة، فأهل أول قوم كانوا يتوارثون الأموال ابا عن جد، فما يملأ الزير المغربي، ليس ثروة من يدفنه في ارض القاعة أو الديوان، وانما هو حصيلة مالايقل عن ثلاثة أو أربعة اجداد.. ثم كان لابد لهم من أن يدفنوا ثرواتهم في الأرض، لأن تلك الأيام كانت حافلة بالغزوات والحروب، وبالنهب والسلب، مما كان يضطر الأسرة إلى مغادرة البيت في هجرة إلى بلد آخر على أمل الرجوع إليه في يوم ما عندما تستقر الأحوال و يزول شبح الحرب والرعب..والذي يحدث ان تطول الهجرة إلى أن تنقرض الأسرة، أو إلى أن يموت الكبار، وفي صدورهم اسرار الكنوز التي دفنوها، فلا يدري الصغار شيئا عن المخبوء من الذهب.. وهنا تتهلّل اساريرها لتضيف

قائلة: (ليس الذهب وحده ياحمادة.. وانما الماس والياقوت والزمّرد واللؤلؤ أيضا، بل كل ما كانوا يقتنونه من غالي الدر والجوهر، يجيئون به في عودتهم من رحلاتهم الطويلة إلى الهند، وجاوة ودمشق والآستانة.

ولايجد حمادة ما يمنع أن يحاول حفر ارض القاعة والديوان بل والدهليز وهي الأماكن التي لاتخلو من هذه الخنافس قط.. فلا تكاد امّه تسمعه مهتمّا بكلامها، حتى يشتعل الانفعال في عينيها الواسعتين، وتهتف.. (ياليت ياحمادة.. ياليت.. لولا ان الوقت ليل.. ولا يعلم إلاّ الله ماذا يمكن ان يحدث، لمن يحفرون الأرض في الليل)..ثم تسترسل قائلة: (لو حفرنا واستخرجنا هذا الكنز، فما اسرع ما نتخلّص من العيش والدقّة والشاهي بالسكر الأحمر).. ولا يكاد يسمع حماده منها (العيش والدقّة والشاهي) حتى يسرح معها في حلمها السخي، فالكنز هو الذهب والياقوت والزمردّ واللؤلؤ، و بهذه الأشياء التي يسمع عنها ولم يرها قط، يستطيع أن يملأ البيت حنطة وسكّرا أبيض، وشايا، لا.. بل، سيشترى أكياسا بكاملها من الأرز (المزّة) وعددا من قرب السمن، ولن يتعذّر أن يجد عددا من الخراف، يبيعها هؤلاء الذين يربّونها و يراها امام ابوابهم، سمينة، مستديرة الالايا، معقوفة القرون، وعندئذ فما أكثر ما سيأكل هو واخوانه من الفطير المبسوس بالسمن، ومن (الحيسة) التي يذكر ان امّه كانت ــ قبل أن يموت أبوه ــ تصنعها من الدقيق والتمر والسمن في ليالي الشتاء على الأخص، وقد كانت ليالي ينامون فيها ملء اجفانهم لا تزعجهم هذه القنابل التي قيل له انها تنطلق من الجبل، وتستطيع ان تقطع مرحلة بكاملها لتصل إلى هدفها، ولكنّها تزلزل البيوت، وتصم الآذان، وتختلط بأصوات طلقات الرصاص التي لا تهدأ إلى بزوغ الفجر.. فهي الحرب، التي لايدري لم نشبت، ومتى يمكن ان تنتهي؟ لتعود إلى الأسواق تلك السلع التي لم يبق منها شيء، حتى التبغ الأخضر وورق السجاير الذي اصبح الدفتر منه يباع بريال مجيدي كامل، ولم تستطع امّه ان تستغني عنهما، فلمّا انعدما من الأسواق كما انعدمت مباسط الخبز والشريك، لم تجد ما يمنع ان تدخّن ورق الورد الجاف تلفّه في أي ورقة من أي نوع.. وكان يشترى لها الورد الجاف من العطّار، اما الورق فما اكثر الكتب القديمة التي وجدها ملقاة في (الحنية) تحت الدرج..

اما الأرز ولحم الخراف، فما اشد ما يسيل لعابه اشتهاء لأكلة من ذلك الأرز تجيد أمه طهوه باللحم الطري، والجزر، ومالا حصر له من التوابل والبهارات، وعلى وجه الطبق الصيني الطويل مجموعة من محمّر اللوز والصنوبر والجوز والزبيب.

ويأخذ عينيه النعاس، وهو يسمع منها هذه الألوان الزاهية المشرقة من الآمال والأحلام، وقد صمّم على أن يجيء منذ الغد، بما يحفر به ارض القاعة اولا، فاذا لم يجد شيئا، فالديوان، وليس معقولا ابدا، الاّ يجد شيئا في الدهليز، ما دام ذلك العدد الكبير من الخنافس يدب فيه، ولكن لايدري، لم يجد نفسه ـــ حين يستيقظ في الصباح وهو يتأهب للذهاب إلى المدرسةـــ ساخرا من فكرة حفر القاعة أو الديوان، بل ومن حفنة الأحلام التي ظلّت تراود خياله طوال الليل.. وحتى لقمة العيش يغمسها بالدقّة ويدحرجها في حلقومه برشفة من الشاي المغبرّ، لم تكن تستطيع ان تغريه بأن يحزم امره فيجيء بما يلزم للحفر.. بل قد يرى خنفسة تدب على الأرض أو تتسلّق الجدار المهترىء، أو تعالج الدخول في أحد الشقوق تحت عتبة البيت، فلا يعنى حتى بدهسها أو التفكير في علاقتها الوشيجة بالكنز الذي لم يستطع أن يرى علاقته بالخنافس، كما لا تزال امّه تتحدّث وتؤكّد منذ استأجرت هذا البيت القديم جاءت إليه مع ابنائها بعد وفاة ابيه، قبيل نشوب الحرب بشهور..

وتطاولت أيام الحرب، وشحّت في المدينة المنوّرة كل موارد المؤن والغلال، وأصبح مستحيلا أن يشتري أي شيء، حتى ولو ما يملأ الكف من السكّر الأحمر أو الدقيق بالريال الذي تخرجه امّه من قاع صندوقها السيسم كل صباح.. وقد عاد ذات يوم من المدرسة، وقد تقرر اغلاقها في اليوم التالي إلى أن تنتهي الحرب، ليجد امّه واخوانه الثلاثة ينتظرونه في الدهليز، وفي عيون الصغار ذهول ونعاس ورهق، وفي عيني امّه بقايا دموع، لم يشك في انها ظلّت تذرفها طويلا كما هي عادتها كلّما طافت بذهنها ذكرى أبيه الذى توفّى (بالجمبة) وتركها مع صغارها للحياة وقسوتها، ثم لهذه الحرب بكل ما جاءت به من رعب وقلق، إلى جانب هذا الشح في الأرزاق، مع غلاء في اسعارها ظل ينهش، يوما بعد يوم، المزيد من الألف مجيدي، ويكاد يزحف إلى العشرين جنيها عثمانيا، هي كل الثروة التي اغلقت

عليها صندوقها بمفتاح لم يعد يفارق صدرها حيث يتدلّى بانشوطة من الحرير الأحمر، تبدو، وكأنها جرح دائم الرعف بدم الشباب، اذ تمتد من الجيد الأتلع البض إلى ما يقرب من الجيب الناهد المتوفّز.

وحين تساءل مأخوذا بما يرى قالت أمه: (السقف ياحمادة.. السقف طرّق ثلاث مرات منذ الصباح).. وفهم ما تعنيه بكلمة (طرّق) هذه، اذ سبق له ان كان نائما ذات ليلة، حين سمع وسمعت هي معه ما يشبه تقصّف اخشاب السقف فقالت: (ان البيت يطرّق) وتقصد انّه ينذر بالانهيار، و يطلب من سكانه ان يسرعوا إلى اخلائه.. فاذا تكرر هذا التطريق ثلاث مرات في يوم واحد ومنذ الصباح، فلا مفر من أن يسرعوا بالخروج قبل ان يتداعى و ينهار عليهم.

ولم يستطع حمادة ان يستبعد احتمال انهيار البيت، فهذا (التطريق) حقيقة ماثلة، لاسبيل إلى تجاهلها اطلاقا، اذ ما الذي يجعل اخشاب السقف تتقصّف ثلاث مرات ان لم تكن الجدران توشك على التقوض في أي لحظة.. كلاّ.. وليست المسألة كحكاية الخنافس والكنز، اذ فيها الدليل المحسوس على أن ما تخشاه امه يمكن ان يقع.. واذ تصوّر انهيار البيت عليهم وهم نيام، أو حين يكونون متحلّقين حول مائدة العيش والدقّة والشاي، احس كأن الدم يجمد في عروقه، فهو لايدري إلى أين يمكن أن يذهب بهم.. وظل ذاهلا مشدوها لحظات كانت عيون اخوانه الصغار وأمّه مسمّرة عليه إلى أن استجمع بعض قدرته على الكلام ليقول: (نذهب إلى بيت خالي عمر.. وغدا ابحث عن بيت آخر).. ولم يكن يستبعد ان ترفض امّه الذهاب إلى بيت اخيها بعد ان اهانتها زوجته، وحين خرجت تجر اطفالها وراءها، لم يحاول أن يستوقفها او يسترضيها بكلمة، ولكنّها، على عكس ما توقّع، تحرّكت، وفي يدها صندوق خشبي صغير اقرب إلى العلبة، لم يشك حمادة أن فيه ما بقي لديها من النقد، ثم تحرّك الصغار وفي يد كل منهم ما يستطيع حمله من صرر الثياب.. واعطته وهي تتخطّى الباب مفتاحه.. فاغلقه ومشى خلفها وحوله اخوانه إلى بيت الخال.

ولم يتعذّر أن يجد بيتا خلال يومين انتقلوا اليه، وكانت أهم ملاحظة لم تغفل عنها امّه ان البيت الجديد لم يكن فيه اثر للخنافس، فهو حديث البناء، ولم تجر

العادة بأن توجد الكنوز في اي بيت جديد، ولذلك فلا وجود للخنافس أيضا.

ومرّت اعوام، انتقلوا خلالها إلى مكة، وبعد ان اجتاز مرحلة من مراحل التعليم المتاح في تلك الأيّام تيسّر له ان يعيّن في وظيفة اغناه راتبها عن فكرة امه في فتح دكان للسكر والشاهي بما بقي لديها من المال.. وقبل ان ينتهي العام الأول في وظيفته، كان قد وفّر مبلغا ظلّ يحرص عليه، ليحقق املهم في قضاء ايام عيد الفطر في المدينة، وكان شوقهم اليها يجعلهم يتحسّرون على فراقها، ويتلهفّون على اليوم الذي يستطيعون ان يركبوا فيه سيارة البريد، وان يزوروا كما يفعل الكثيرون ممّن توشجّت الصلات بهم على مر الأيام.

وبعد صلاة العيد في المسجد النبوي الشريف، وقلبه مفعم بفرحة العودة إلى مسقط رأسه ومراتع صباه، وجد نفسه يسلك نفس الزقاق الضيق الذي كان يقوم فيه ذلك البيت القديم، ولم يملك ان يبتسم وهو يذكر الخنافس وعلاقتها بالكنز المدفون في ارض قاعته أو ديوانه.. التفت، إلى الجانب الذي يعهد فيه البيت، فاذا به يرى مكانه بيتا ملأ عينيه تعدد ادواره وبهاء طلائه، وجدةّ رواشينه، ونظافة الساحة أمام بابه الواسع العريض.

وحين عاد إلى امّه، وقبل أن يحدّثها عما رآه، بادرته هي تقول :(هل علمت ياحمادة.. لقد اشترى فلان ذلك البيت.. وهل تدري بكم؟ تصوّر.. بمئة جنيه) ثم تضيف.. (واسمع ما تقوله خالتك ناجية.. اسمعها تقسم لك انها رأت بعينيها زيرين مغربيين امام البيت، بعد هدمه، نقلهما الرجل إلى الحراج، بعد ان افرغ منهما الذهب والزمرّد والياقوت واللؤلؤ) فلمّا قال لها انّه رأى مكان البيت القديم، ذلك البيت الجديد، سمع الخالة ناجية تقول وظهرها إليه، وهي ملفّعة بشرشف الصلاة.. (ياحمادة ياولدي.. ليس ذلك البيت فقط.. لقد اشترى الرجل سبعة بيوت، وهو اليوم من اكابر التجار).

ومنذ ذلك اليوم.. وحمادة يحرص على سكنى البيوت القديمة.. ويرفض ان يغادرها مهما تقصّفت اخشاب السقف ولايدهشه شيء كما يدهشه، الاّ يرى أثراً للخنافس، كما كان يراها مع امّه في ذلك البيت القديم.

شفته الوارعة





شقة الوارمة

لم يكن زكريا يفهم شيئا واضحا من هذه الضحكات والغمزات التي يراها تتوالى في وجوه من حوله من الصبية، حين كان يلعب معهم في الزقاق الضيق الطويل، الذي يذكر انّه يدخله من دكّانين لبيع العطارة في الشارع، ليصل إلى بيته في منتصفه، ثم لايدري إلى أين ينتهي من الطرف الآخر، ولكنّه يرى عددا من الصبية يجيئون من هذا الطرف المجهول، وكل منهم يحمل لوح الكتّاب، ليرمي به على أي عتبة من أعتاب أبواب البيوت في هذا الزقاق، ثم يأخذ في لعب البارجوه إلى أن يعلو صوت المؤذن لصلاة الظهر، فيسرع كل منهم إلى اللوح، يتأبّطه أو يحمله على رأسه، و يعود من حيث اتى.. من الطرف الآخر من هذا الزقاق، الذي فتح زكريا عينيه على الدنيا، يرى فيه بيته، وفي البيت أمّه وجدّه، وجدّته، وأحيانا بعض النسوة من الجارات في هذا الزقاق، يجئن قبيل الظهر، و يأخذن في الحديث عن أشياء لا يفهمها، ولا يجد غير النظرة المنذرة بالضرب من الجدّة القابعة في الركن، اذا ما خطر له أن يسأل عما يستثير دهشته وعجبه من هذه الأحاديث، عن فلانة التي ما تزال تبحث عن علاج كالذي تناولته (أم السعد)، فاكرمها الله قبل مرور العام بولد، ثم ها هي الآن حامل، وربما كان القادم غلاما أيضا.. ورضي عنها زوجها، واقلع عن عزمه على الزواج كما ظلّ يهدد طوال الأعوام الثلاثة منذ تزوّجها إلى أن أراد الله وحملت وانجبت.. أو عن (هيا) التي اشتدت عليها علّة (داء الصدر) وكادت تقضي نحبها قبل ليلتين، لولا أن الله سبحانه سخر لها (أم خلف) التي ذهبت إلى العطار، واشترت لها (معجونا) ما كادت (هيا) تتناول منه (لحستين)، حتى فرّج الله عليها، وكفّت عن ذلك السعال المتواصل الذي يسمعه سابع جار.

وقد ظل زكريا، لايفهم شيئاعن سبب الضحكات والغمزات، في وجوه مَنْ

حوله من الصبية، وأحيانا في وجوه بعض الفتيات الصغيرات اللائي يترددن على المنزل لزيارة امه أو جدّته، إلى أن ادخلوه الكتّاب، وقد اكتشف لأول مرة انّه في الطرف الآخر المجهول من الزقاق، وأن (الفقيهة) فيه سيدة عجوز، فطساء الأنف، ومع ذلك تضع على هذا الأنف الأفطس نظّارة سميكة، لا تكاد تجد مكانها، فتنحدر إلى ما يقرب من شفتها العليا، أو إلى فمها عندما تثور وتحتدم على الأطفال الصغار، وتقفز من مقعدها، وفي يدها العصا الطويلة، وتنهال عليهم بها ليزدادوا صراخا وعويلا، وتزداد هي احتداما، إلى أن يرهقها اللهاث والركض، خلف هذا أو ذاك وهم يهربون منها ويحتمون بالكبار فترتمي على المقعد وتكون النظّارة، قد تعلّقت باحدى اذنيها، فتعيدها إلى الأذن الثانية، لتستقر حيثما اتفق من هذه المساحة الضائعة بين ملتقى العينين وبين النهاية من انف لايكاد يبين.

وقد حمد الله كثيرا في سرّه، على أن (الفقيهة) لم تلتفت اليه اطلاقا، بل ولم تشعر بوجوده، بعد ان خرجت امّه، فلم تلحقه عصاها طوال الوقت، ولكن حين ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر، وأخذ الأولاد والأطفال في التزاحم على الخروج من الباب الذي تجمّعت على عتبته احذيتهم الصغيرة، نادته الفقيهة، واصلحت وضع النظّارة على المساحة الضائعة من مكانها، وما كادت تتأمله قليلا، حتى خفقت صدرها بيدها، وقالت..(من؟ من الذي ضربك على فمك؟) ثم واصلت تفجّعها وهي تقول :(لابد انّه الشقي حمزة.. أو لعلّه عبد الحفيظ).. وهزّت رأسها ورفعت عصاها وهي تقول :(اعرفهما.. وسترى كيف أؤدبهما عندما يجيئان صباح الغد).. وما كادت تنتهي من تهديدها ووعيدها، حتى رأى عددا من الصبية الذين يجيئون إلى الزقاق ليلعبوا (الباراجوه) يتضاحكون ويتغامزون.. ثم انفجر احدهم ضاحكا وهو يقول : (لم يضربه أحد.. هذا.. هكذا خلق.. شفته وارمة، طول عمره، شفته وارمة). وما كاد يتم كلامه حتى انفلت كالصاروخ وانفلت وراءه بقية الصبية هاربين.. والتفتت إليه الفقيهة وعادت تتأمّل وجهه.. ثم قالت تسأله.. (لم يضربك أحد، أليس كذلك؟ على فكرة ما اسمك.. فقد نسيت) وهزّ زكريا رأسه نافيا ان الشقي حمزة أو عبدالحفيظ قد ضرباه، ثم قال..(اسمي زكريا) فلم تزد على أن قالت..(طيّب.. هيّا اذهب إلى بيتك..

وقل لأمّك، تشتري لك اللوح والمضر).. وفي طريقه إلى البيت، وفي ذلك اليوم الذي لن ينساه لم يكن يفكّر في شيء سوى انّه خلق هكذا.. وان شفته وارمة طول عمره.. وان هذه الشفة الوارمة هي التي تحمل الصبية، وحتى الفتيات الصغيرات، على الضحك والتغامز.. وما كاد يدخل، و يرى امّه عاكفة على تنقية الأ رز في طبق كبير بين يديها، حتى اقترب منها، في توجّس وحذر، ان تسمعه الجدّة القابعة في الركن، وفي يدها فنجان الشاي والتفتت إليه امّه، وفي وجهها فرحة برؤيته يعود من الكتّاب لأ ول مرة في حياته، أو في حياتها هي، حيث كان وحيدها، وقد مات أبوه بعد عام من ولادته، ولم يجد أهل ابيه بأسا في أن تعود إلى بيت أهلها، وأن يمدّها عمّه بخمسة عشر ريالا في الشهر، قال انها فوق الكفاية لطفل ما يزال رضيعا.. ورأت انّه يريد أن يقول شيئا يخشى ان تسمعه جدّته وامها، فقرّبت عنقها من فمه وسمعته يسألها هامسا..(لماذا.. انا هكذا؟). وحين ادرك انها لم تفهم من سؤاله شيئا.. اشار إلى شفته.. وانهمرت الدموع من عينيه.. ورأى كيف مشت في قسمات أمّه وفي عينيها الواسعتين، موجة من الفيجعة والألم.. ثم رآها تتماسك، وتقول..(سأقول لك فيما بعد..)

وقالت له فيما بعد، انّه قد اخذ هذه الشفة من أبيه.. ولم يفهم يومها شيئا.. لم يفهم كيف اخذ هذه الشفة الوارمة من أبيه الذي يعلم انّه مات منذ كان رضيعا.. ولكنّه فهم بعد ان تخطّى مرحلة التعليم المتوسط وأخذ يقرأ كل ما تصل إليه يده من الكتب، في هذا الصندوق الكبير الذي ظلّت امه حريصة على الاّ يعبث بما فيه احد، بل على الاّ يفتحه أحد سواها، وهي لا تفتحه إلا لتضع فيه هذه الكرات من النفتالين، مرة أو مرتين في العام.. ولكنّها لم تر ما يمنع أن يفتحه زكريا بعد ان كبر وأخذ يتلهّف على القراءة، وعلى شراء الكتب، بكل ما يوفّره من القرش أو القرشين، ينفحه بهما جده كل صباح.. قالت له :(في هذا الصندوق الكبير، كتب كثيرة، اقرأ منها ما تشاء، ولكن لا تنس أن تعيد كل كتاب إلى مكانه بمجرّد الانتهاء من قراءته).

وحين ابتعث للدراسة الجامعية، وفي كلّية الطب في بلد عربي شقيق، كان اهمّ ما يدور في ذهنه، هو هذه الشفة الوارمة، التي يعلم ان دهشة الذين يرونها

لأ ول مرة، لا تنقطع، والابتسامة الساخرة لا تنتهي، إلاّ بعد ان تتصل بينه و بينهم اسباب الصداقة والود، أو بعد ان يسمعوه يتحدّث ويملأ النفوس اعجابا بسعة اطلاعه، وشدة لمّاحيته وذكائه.. وكما ظل يتوقّع، فقد اثارت شفته دهشة كل من كان يزامله من الشبان والفتيات في كلية الطب، ولكنّها الدهشة التي يضبطها، ويحول دون امتدادها إلى حد السخرية، انهم الزملاء والزميلات، وانّه (الحاج) الذي يواظب على الصلاة، في اوقاتها، و يتلو آيات من القرآن الكريم، كلّما اجتمعوا على تشريح جثّة، أو التفّوا حول الهيكل العظمي يدرسون تفاصيل عظام الجمجمة أو عظام اليد.

وكان زكريّا، يرى زميلاته في كلية الطب، ومنهن الجميلات الوضيئات، فلا يخطر له أن يرفع بصره إلى واحدة منهن، وهو يعترف انّه كان يتمنّى لو أنه يملأ عينيه من واحدة بعينها، ولكنّه يجهد نفسه في الإغضاء، وتجنب مناسبات اللقاء، بل و يدعو الله صادقا أن يمحو صورتها وذكراها من نفسه، لأنّه لم يكن يشك، في انها كغيرها ترى شفته الوارمة، وقد ازداد امرها، بحيث تدلّت إلى ما يقرب من نهاية عنفقته، فليس مما يعقل، ان يتقدم لخطوبتها وهو بهذه الشفة، بل ليس مما يتفق وطبيعة الأشياء، أن تقبل الزواج منه أية فتاة وضيئة جميلة كهذه التي علق بها قلبه، وقلوب غيره من الشبان، الذين لم يكونوا يتحدّثون إلاّ عنها، كلّما دارت بينهم احاديث الحب والصبا والجمال.

وشارفت سنوات كلية الطب نهايتها، وما تزال هذه التي عاش حلم الاقتران بها، والحياة السعيدة في بلاده معها، توالي مثله النجاح عاما بعد عام، وكأنّها تحرص على الآ يسبقها إلى التخرّج، أو هذا ما ظل يتوهمه، كلّما ظهرت نتيجة الاختبارات.

وظهرت نتيجة السنة الأخيرة ونجح زكريا بدرجة (جيد جدا).. وكانت هي ـــواسمها مهجةـــ كانت هي أول من بشّره بنجاحه، اذ ما كادت تراه يمشي في الرواق الطو يل، حتى هتفت (مبروك يادكتور).. واضافت (و بدرجة جيد جدا) وحين اقترب منها، مدت يدها تصافحه، وقد اشرق وجهها بابتسامة، استطاع زكريّا ان يشبع من تأملها لأ ول مرة، وتلعثم، ودار رأسه، حين سألها في لهفة..

(وأنت؟) فضحكت وهي تقول.. (أنا؟ ماذا تظن؟). ولم يدر ماذا يقول؟ فقد كان يواجه يأسه من الأمل في ان يراها ما دام قد تخرّج وآن له ان يعود.. وما اكثر ما تلعثم وتعثّرت الكلمات، على (شفته الوارمة) وهو يقول.. (ناجحة باذن الله) وضحكت، وما أشد ما كان يحرص على أن يسمع رنين ضحكاتها طوال هذه الأعوام، وقد ظلّ كمألوف سلوكه يكتفي بالاصغاء دو ان يحاول رؤية ما تضفيه الضحكة أو الا بتسامة على طلعتها من السحر والفتنة والألق، وقد رآها الآن.. رأى الذي لم يسبق أن رآه قط من سحر الضحكة، وكيف يستطيع رنينها العذب، واشراقها على القسمات، وتألقها في العينين والأجفان، واختباءها في هذه الظلال من الأهداب.. كيف يستطيع كل هذا، أن ينسيه نفسه، وشفته الوارمة، والنجاح، ومستقبله، فيضيع، في تيه لايدري كيف يخرج منه.. وسمعها تقول..(اين كلمة مبروك يادكتور.. انا أيضا بدرجة جيد جدا..).

وحين وقف أمام المرآة، في المساء، ورأى هذه الشفة التي ما تزال تتدلى وكأنها كلوة، لم يسعه إلاّ ان يضحك وان يخرج على هذه الشفة لسانه، ساخرا من نفسه، ومن هذا التفكير الذي ظلّ يحاصره طوال اليوم، و يهيب به ان يتقدّم لخطوبتها.. ولكن عجبا.. كيف؟ كيف لم يفكّر في هذا.. كيف لم يخطر له ببال وهو الذي يدرس الطب، و ينوي أن يتخصص في الجراحة، بل هو الذي اصبح (الدكتور زكريا) كيف لم يخطر له، أن يجرى عملية لهذه الشفة، وان يتخلّص منها إلى الأ بد.

وكان لديه من الوقت، اكثر من شهر من شهور الصيف، قبل ان يعود إلى المملكة.. فما الذي يمنع ان يجري هذه العملية في هذه الفترة من الوقت.. ولكنّه.. تذكّر في هذه اللحظات، كلمة امّه.. يوم قالت له انّه قد أخذ هذه الشفة من أبيه.. وانّه لولاها، لانعدم شبهه به.. وعاد يضحك.. ثم يستغفر الله مما جال بذهنه عن صورة أبيه.. ثم وجد نفسه يتساءل..(حسنا.. سأتقدم لخطوبتها قبل ان اجري العملية.. لابد أن أرى كيف يمكن ان تقبلني هي، أو أي فتاة في الدنيا، وأنا كما أنا..).. وعجب في نفسه لما داخله من الجرأة وهو يدخل غرفة الاستقبال في بيت ابيها، و ينتظر دخول هذا الأب الذي لم يره قط.. ولم يطل

انتظاره فقد دخل الأب مرحبّا بحرارة، وهو رجل لم يتخط الخمسين من العمر، يتوهّج بشرا ونشاطا ومرحا.. واستطاع زكريا أن يقول ما ظلّ يردده قبل أن يصل إلى هذا البيت.. و بعد أن فرغ من الكلمات القليلة التي افضى بها.. احس ان قلبه يكاد يقف، وان الرفض هو الرد الطبيعي المعقول.. ولكن. نهض الأب من مكانه مستأذنا لحظات.. ودخلت (مهجة) بأكواب الشربات.. ودخل بعدها ابوها وامها.. ودارت الدنيا حوله أو هو الذي دار حولها، وهويسمع منهما (مبروك يابني.. مبروك يامهجة..). ثم زغرودة خافتة ارسلتها الخادمة من الردهة.

وحين دخل بيته في ذلك الزقاق الضيق الطويل، وإلى جانبه عروسه (مهجة).. وارتمى في احضان امّه سمع جده يقول لجدّته.(قلت لك. انّه سيجري عملية و يتخلّص منها.. هيّا تأمليه.. وقولي لي اين شفته الوارمة..).



الاسم الذي لا تحب





الاسم الذي لا تحب

يوم نشرت الصحف اسماء الناجحات في شهادة التوجيهية، كان ممّا يثير قلقها وضيقها، وحتى تقززها، ان اسمها ــ اذا كانت من الناجحات ــ سينشر في الصحف، وسيكون الاسم الوحيد، بين مئات الألوف من اسماء الفتيات، الذي لابد وان يسخر منه كل من يقرأه، فهو الاسم الذي استطاعت ان تخفيه عن زميلاتها، في مرحلتي التعليم المتوسط والثانوي، رغم انّه معروف لدى ادارة كل مدرسة دخلتها، اذ لاسبيل إلى تغييره في السجلات، التي تعتمد على حفيظة النفوس، وما اليها من الوثائق الرسمية. وهي ما تزال تذكر اليوم الذي ادركت فيه ان اسمها، يبعث على سخرية من يسمع به.. فقد كانت واقفة إلى جانب عمّها، وهو يقوم باجراءات قيد اسمها في السنة الأولى من المدرسة الاعدادية، اذ ما كاد يلفظ اسمها حتى ارتسمت على وجه الكاتب ابتسامة ما لبثت ان انفرجت عن ضحكة حاول ان يحبسها دون جدوى.. ومع ان عمّها لم يثر ولم يستغرب ضحكة الكاتب وهو يقيّد اسمها اذ يبدو انّه قد الف السخرية بهذا الاسم كلّما تلفّظ به، فانها ــ هي ــ قد احسّت بالحرج والضيق، ولم تملك دمعة طفرت من عينيها وظلّت تجري في مآقيها إلى ان استقرّت في الفصل، وتذكر اليوم، انها الهمت اسما جميلا، هو (نادية) حين تجمّع حولها الفتيات الصغيرات من لداتها في الفصل يسألنها عن اسمها، واين تسكن، ومن ابوها إلى غير ذلك من الأسئلة المألوفة كلّما انتقلت من مرحلة إلى مرحلة من مراحل التعليم.

أما اليوم، وقد نشرت الصحف اسماء الناجحات في التوجيهية، كما سبق ان اذاعتها الاذاعة في الليل، فان جميع زميلاتها، سيضحكن، ساخرات، من ان يكون (مبروكة) هو اسم الفتاة التي ظلّت تزعم ان اسمها (نادية)..

تمنّت لو انها لا تقرأ الصحف، وقد حرصت في الليلة البارحة على الاّ تسمع الاذاعة، كما لم يسمعها أحد في المنزل إذ لم يكن بين أهلها، من يهتم بنجاحها او رسوبها، ولكن ما كادت تفرغ من تصفيف شعرها امام المرآة المعلقة على الجدار في الغرفة التي تنام فيها مع بنتي عمّها الصغيرتين، حتى رأت رافع ابن عمّها في العاشرة من عمره، يندفع كالصاروخ، وفي يده الجريدة، و يصرخ.. مبروك.. مبروك ياستيته مبروكة.. من العشرة الأوائل.. من العشرة ياستيته.. هاتي البشارة.).

ولم تصدّق انها من العشرة الأوائل.. ونسيت حكاية ضيقها وتقززها من اسمها.. وارتمى رافع على السرير الحديد الذي تنام عليه، وهو يلهث و يردد.. (ياسلام.. العشرة الأوائل.. شوفي.. شوفي هنا في اول الصفحة).. واقتربت منه وقد غمرتها الدهشة، وقرأت اسمها.. فاذا بها تجد انها الرابعة مكــــــرر من العشرة الأوائل في المملكة.. ودار رأسها.. لم تستطع ان تتفوّه حتى بكلمة الشكر التي كان ينتظرها رافع.. فلمّا رفع بصره إلى وجهها وقد جلست إلى جانبه رأى الدموع تملأ عينيها وقد اطرقت برأسها والجريدة على ركبتيها.. ولم يفهم ما الذي يجعلها تبكي وهي تقرأ اسمها بين الناجحات والناجحين، ومن العشرة الأوائل.. ولم يسعه إلاّ ان يبتعد في صمت، وجلس على الأرض و يتساءل بينه و بين نفسه..«ترى ما الذي يجعلها تبكي.. لو كان هو الذي يقرأ اسمه بين الناجحين، لقفز فرحا، ولملأ البيت هتافا، بل لما تردد في ان يذهب ليشتري من هذه الجريدة عشر نسخ يعلّق كل نسخة على هذه الجدران في المنزل، ليعلم الجميع، وكل من يغشى البيت من الضيوف انّه هذا النابغة الذي نجح وكان من العشرة الأوائل.. ولكن مبروكة.. تلتزم الصمت.. وما تزال عيناها تذرفان الدموع.

وتعذر عليها هي أيضا ان تعرف لماذا يزحم صدرها ما يحملها على البكاء.. ومضت لحظات طويلة، قبل ان تلتفت الى رافع ثم تنهض، وتنحني عليه وتقبّل جبهته، وتقول.. عقبالك يارافع.. انت كمان تكون من العشرة الأوائل في جميع الشهادات».. ووقف رافع ذاهلا ثم رفع بصره إليها وقال: «ولكن.. البكاء.. لماذا البكاء؟» وضحكت مبروكة، ثم اخذت تستغرق في الضحك.. ووجد رافع

نفسه يضحك معها.. وازداد ضحكها. وظل يستمر و يتزايد ولم تستطع ان تتوقّف، وسرت عدوى الحالة إلى رافع فكان يضحك ضحكا متواصلا، لاسبيل إلى السيطرة عليه، ولم يشعر هو كما لم تشعر هي بمن فتح الباب ودخل و وقف مبهوتا وهو يراهما يضحكان.. يضحكان بحيث كان كل منهما يضع يديه على صدره لكثرة ما يعانيان من هذا الضحك المتواصل الطو يل.

وارتعد رافع و بدا كأن الدم قد جف في عروقه وهو يرى اباه امامه صارخا..« و بعدين معاكم؟.. أما تستحون؟».

والتفتت مبروكة إلى عمّها وما تزال عيناها تلتمعان بالدموع، وفي بياضهما حمرة الاحتقان الذي تعانيه لكثرة ما ضحكت وما لايزال يزحم صدرها من مشاعر الفرحة بهذه النتيجة التي لم تكن تتوقّعها قط.. واستطاعت ان تقف إلى جانب رافع الصغير وان تضع يدها على كتفه وقالت : «فرحانين ياعمّي.. فرحانين بالنتيجة..» واستطاع رافع ان يفتح فمه هو الآخر وان يضيف..«يابو يا ستيته مبروكة من العشرة الأ وائل في المملكة..».. وسقط فك عمّها دهشة، وظلّ لايكاد ينبس بكلمة لحظات ثم قال..(العشرة الأ وائل في الممكة؟).. وتماسك قليلا ثم تحرّك، واقبل على مبروكة يحتضنها و يقبّلها.. و يقول..(يافرحة ابوكي وامّك، لو كانوا موجودين..). ثم التفت إلى رافع وقال..(اسمع يارافع.. قول للربع.. يتعشّون عندنا القابلة.. ثلاث . ثلاث ذبايح يارافع.) وقبل ان يغادر الغرفة، قال..(وانتي يامبروكة.. اعزمي كل البنات.. كلّهم.. كلهم يتعشّون عندنا القابلة..).

واطرقت مبروكة برأسها، ثم رفعت وجهها إلى عمّها فرأى في عينيها وعلى وجنتيها هذه الدموع التي ظلّت تنهمل منذ امسكت عن الضحك ومنذ سمعها تقول.. (فرحانين ياعمّي..) ولم يطق ان يقول كلمة واحدة اذ كان لايجهل ما تجيش به نفسها من انفعالات وذكريات، اقلّها ايلاما لنفسها، انّه لم يسبق قط، ان قبلّها واحتضنها كما فعل الآن.. ليس لأنّه لايحبها أو لايحنو عليها، وانما لأنّه لم يستطع ان ينسى انها كانت أول من رزقه اخوه من الذرّية بعد ان ظلّ محروما منها

طوال زواجه من امّها رغم عشرة امتدت اكثر من اثنى عشر عاما.. فما كادت تتم الشهر الثالث من عمرها، حتى اختطفت يد الموت اباها وامّها في حادث سيارة، وكانت هي وحدها التي نجت ومع ذلك، فقد اراد الله ان يسموها (مبروكة).. وهو لاينكر انّه كثيرا ما تهكّم وسخر، من هذا الاسم.. اذ كيف تكون هذه البنت (مبروكة) وقد كان الموت يتربّص بأبيها وامها وكأنّه لاينتظر إلا ان تجيء، ليختطفها و يتركها هي يتيمة الأ بوين.

وقد عاشت مع ابنائه و بناته، ولا ينكر انّه لم يتحمّل نفقة تربيتها، فقد ترك لها ابوها ثروة لابأس بها، كما لاينكر انها منذ بلغت السابعة، وادخلها المدرسة، قد اظهرت ما لم يره في ابنائه و بناته من الجد والاجتهاد والحرص على ان تنجح، وان تكون الفتاة المرموقة، ليس بين زميلاتها وفي المدارس التي دخلتها فحسب، وانما في منزله و بين افراد اسرته أيضا، اذ كان الكل يحبّونها، و يشيدون بما طبعت عليه من خلق فاضل كريم وقدرة على ان تجتذب القلوب وان تتألفّها، فالكل لايكفون عن الثناء عليها والاعجاب بها.

وحين خرج من الغرفة، وخرج يتبعه ابنه رافع، تهالكت (مبروكة) على فراشها، واستسلمت للحظات من التفكير ورددت في همس، وابتسامة ساخرة..(مبروك.. مبروك.. يامبروكة) ودار في نفسها انّه لاسبيل لها منذ اليوم ان تزعم لزميلاتها انها (نادية).. اذ كيف يتّفق ان تكون (مبروكة) هي الناجحة من العشرة الأ وائل في المملكة و(الرابعة مكرر) وان تكون هي (نادية) التي لم يظهر لها اسم بين الناجحات.

وابتعثت (مبروكة) لدراسة الطب، في بلد عربي شقيق، وعلى مألوف عادتها في مراحل التعليم التي اجتازتها لم ترسب قط، بينما رسب الكثيرون من الذين ابتعثوا في دفعتها، حتى اولئك الذين كانوا يدرسون في كلّية الآداب.. وحملتها الطائرة اخيرا إلى جدة، واسمها في التذكرة (دكتورة مبروكة حمد الغامدي).. وهي لاتنسى كيف استقبلتها الأسرة، وفي مقدمتهم عمّها ومنهم رافع ابن عمّها الذي كانت تعلم انّه انتهى من المرحلة التوجيهية، والتحق بكلية الآداب في

جامعة الرياض. كان استقبالا رائعا، واروع ما فيه تلك الحفلة الكبيرة التي لم يبق احد من اقارب الأسرة واصهارها، ومعارفها، إلاّ وشهدها، وعبّر عن اعجابه بالدكتورة مبروكة، وعن امله في ان يعرض عليها في عيادتها حالة من حالات المرض التي يعانيها هذا الطفل، او ذلك الأخ، أو الزوجة.. ولكن المفاجأة التي ذهلت لها بعد انصراف الضيوف، هي غرفة النوم المترفة الأنيقة التي اعدّت لها في المنزل.. ذهبت بها ام رافع إلى الغرفة وهي لا تكف عن الترحيب بـ (الدكتورة.. الدكتورة مبروكة..).. وتردد..(مبروكة.. والله انك مبروكة يامبروكة..).

وقبل ان تأوى إلى فراشها الوثير في هذه الغرفة التي لم تشهد مثلها قط إلاّ في الأفلام السينمائية، وقفت امام المرآة.. ولم تملك إلاّ ان تطيل الوقوف، فهذه هي.. مبروكة.. لها ذلك القوام المتناسق الممشوق، وهذه الطلعة المشرقة.. تتوجها جبهة تظللها خصلات شعرها الوحف المائج، تلتهم العينين وفيهما دعج، وفي اهدابهما وطف، تذكر في استحياء وخفر الآن، أن زميلا مهووسا بالشعر، في السنة الأخيرة من كلية الطب، قدّم لها قصيدة يتغزّل بهذا الدعج والوطف في عينيها، ثم حين رأى القصيدة تعود اليه بالبريد، دون كلمة منها، قدّم لها قصيدة اخرى يشيد فيها بالأخلاق العالية، والفضيلة والشرف، وما الى ذلك من نعوت أضفاها ليس عليها فحسب، وانما على كل فتاة تفد من هذه الأرض التي سمّاها (ارض الطهر والفضيلة والعفاف)..

وظلّت تقابل في عيادتها اصنافا من البشر، إلى جانب الكثيرات من زميلاتها في المرحلة التوجيهية، يزرنها في عيادتها بدافع الفضول، ولم تكن تغفل عن اسلوب بعضهن في تذكيرها بـ(نادية).. اذ تقول احداهن..(يامبروكة) ثم تتظاهر بأنها تستدرك خطأها فتقول (يانادية) لتعود فتقول.. (مبروكة) وتزعم انها لا تدري كيف تناديها.. وكان ما ظلّت تجيب به على مثل هذه الدعابات هو..(اسمي مكتوب على اللافتة الكبيرة.. اسمي مبروكة).

وتلقى اصدقاء الأسرة وصديقاتها في ذات يوم بطاقة الدعوة لحضور حفلة زفاف

(الدكتورة مبروكة حمد الغامدي، على الدكتور محمد فهد العتيبي).. وانتهت الحفلة مع طلائع الفجر في الفندق الكبير.. وحين كانت إلى جانب زوجها في السيارة.. ظلّت تسمع من الواقفات حولها يودعّنها..(مبروك.. الف مبروك.. يامبروكة).

وعلى مقعد الطائرة، وهو الى جانبها ابتسم وقال.. هل تعلمين انك «مبروكة فعلا»؟. فقد وافقت الوزارة على ابتعاثنا معا للتخصص في انجلترا ولم يسعها إلاّ ان تضحك وهي تقول..(كم تمنّيت لو كان اسمي نادية..).



العودة





العودة

همهمة وهمس .. «الحمد لله .. و يرحمها .»

ولم يفكّر منذ فارق القرية ــوفيها ابوه واخوته وعشيرته ان يعود اليها ، فقد وجد نفسه مع خاله وزوجته ، مسؤولا عن مساعدة نفسه بالسعي لاكتساب رزقه ، بل ومسؤولا عن مد يد العون إلى خاله الذي لم تكن له مهنة أو عمل سوى بيع التمر، ولم تكن مواسم الزيارة في تلك الأ يام ــمع وعورة الطريقــ كما هي اليوم فحصيلته من بيع التمر، لا تكاد تكفي حاجة البيت من الطعام .

واشتغل عوّاد ببيع التمر في الشهور الأ ولى ، ثم رأى انّه لن يضيف إلى دخل خاله مبلغا يذكر، ورأى ورشة يديرها أحد الهنود المسلمين لاصلاح السيارات ، ووقف ساعات بطولها تحت الشمس يرى ذلك الرجل الذي سمعهم يسمونه (المهندس) يفكّك السيارة ، و يعالجها بالاصلاح ، فاذا عاد صاحبها لاستلامها يستلم المهندس عشرة أو عشرين ريالا .. وهو مبلغ لايدخل جيب خاله في اسبوع بطوله .

وهو ما يزال يذكر كيف ظل المهندس يطرده كلّما رآه يقف بالقرب منه وهو يمارس عمله ، ولكن يبدو أن وقفته اصبحت شيئا مألوفا .. فلم يعد يمانع في ان يأمره بأن يأتيه بمفتاح أو ان يرفع معه عجلة أو أن يسند معه خزّان البنزين .. و بذلك ، وجد عوّاد نفسه عاملا في الورشة التي لم يكن فيها سوى المهندس وعامل آخر .. ومضت ستة شهور، وهو لايتقاضى من المهندس اكثر من ثلا ثة ريالات في الأسبوع .. ولكّن عواداً كان يحرص على أن يرى كيف يتم اصلاح اجزاء السيارة ، ووجد في نفسه الجرأة على ان يسأل عن هذه القطعة او تلك ، وعن عملها .. ثم لمّا حدث ان طلب احد سائقي سيارة قديمة ، (توضيب المحرّك) ووافق المهندس على ذلك ، لقاء ثلا ثمئة ريال .. احس عوّاد انّه قد آن له أن يرى

هذا الذي يحرّك السيارة، .. ان يرى الأحشاء والأمعاء كما يسميها.. واذ تكررت عمليات التوضيب، وكان هو يلاحظ كل شيء بداله انّه هو ايضا اصبح شيئا قريبا من (مهندس).

وادرك المهندس الهندي بدوره، ان عواداً قد اصبح أهم عامل بين العمال الذين تكاثروا بمرور الأيام.. فلم يبخل بأن يجعل له راتبا شهريا، قدره مئة وخمسون ريالا.. ومرّت الأيام.. وفوجيء عواد بأن المهندس قد تلقّى رسالة من بلاده، وانّه سيسافر إلى الهند وقد لايعود.. وسمعه يبحث عمّن يتقبّل منه الورشة من المهندسين امثاله.. وهنا..ذهب عوّاد إلى خاله، وعرض عليه فكرة شراء الورشة، والتمس منه ان يساعده اذا كان يدّخر شيئا من المال.

وبخمسمئة ريال لا اكثر اشترى عوّاد الورشة، بمفاتيحها، والرافعة المنصوبة فيها، والبطاريات القديمة، والكفرات الممزّقة.. واصبح هو مهندس السيارات عوّاد الذي يعتمد عليه سائقو السيارات من المواطنين، واستمر في عمله، والهم ضرورة التجديد والتحسين، وكانت لديه الجرأة على قبول كل سيارة ومحاولة اصلاحها.. وما يجد انه يتعذّر عليه.. كان لايتردد في ان ينصح السائق بأن يذهب إلى غيره.

وقد سافر خلال الثلاثين عاما، شرقا وغربا.. بل سافر إلى الخارج.. إلى الأردن وسوريا ومصر وتزوّج وانجب اطفالا.. ادخلهم المدارس.. ومنذ تم مشروع توسعة الحرم النبوي، وتكاثرت مواسم الزيارة اغدق الله عليه الكثير من الرزق اذ تطوّر عمله من اصلاح السيارات إلى شرائها وبيعها، ومن السيارات إلى الأراضي والعقار.. وخلال هذه الفترة من الزمن، كان ابوه يزوره بين الفينة والفينة، فلا يتركه يخرج من المدينة إلاّ وهو يشحن له سيارة بكاملها من الحبوب والغلال والأقمشة هديّة يعود بها ابوه إلى القرية ممتنا، ولايكاد يصل، حتى يبعث اليه (قربة) من العسل ورسالة يقول ان الذي كتبها بخطّه احد اخوانه.

ولا يدري العم عوّاد كما اصبحوا يسمّونه في المدينة بعد ان انعم الله عليه بالثراء لم انقطع عن القرية كل هذا الدهر الطويل؟ ولكنّه لايدري ايضا لم قرر اخيرا ان يزورها، ورجّح ان هذا هو الواجب فقد مات ابوه، ولابد ان اخوانه

يحتاجون إليه، وان زوجة ابيه قد شاخت وهرمت، ولا تستغنى عمّن يعينها على ان تقضي البقية الباقية من عمرها بسلام.

كانت بيوت القرية، على عهدها به، باستثناء المسجد، والمدرسة، ومركز للشرطة، فهي اشياء جديدة لم يكن لها وجود.

وحين طرق باب بيته.. لم يجبه احد.. وعاود الطرق مرات ومرّات، دون ان يسمع احدا يتحرّك وطال به الانتظار قليلا.. إلى ان خرج من البيت المجاور، فتى سأله عمّن يبحث.. فان سكان البيت قد هجروه منذ زمن طويل.. والمسموع انهم في الرياض.. ولكن (ام العيال) لم تغادر القرية.. وهي صماء لا تسمع، وعمياء لا ترى، وتقبع في ابعد غرف البيت عن الباب.. ولكن لها حفيد لا يلبث ان يعود من الصلاة.

هو الذي يبقى معها، اذ غادر اولادها جميعهم الى حيث لايعلم، ولكن الأرجح انهم في الرياض.

وجاء الحفيد بعد لحظات.. وهتف وهو يتأمل العم عوّاد: (ياهلا.. ياهلا.. عم عوّاد) وارتمى يحتضنه.. واسرع يقول..(والله انّك ياعم مثل صورتك التي جاءنا بها جدّي قبل وفاته.. وهي موجودة عند جدّتي.. تفضّل.. ياهلا.. ياهلا..).

وفي صباح اليوم التالي.. خرج العم عوّاد وتجوّل في القرية.. وقف عند مزارعها التي ما تزال على ما كانت عليه.. تروى بماء البئر القديمة، بالسواني وما يشبهها من وسائل الري.. وهبّت على وجهه نسمة رقيقة منعشة.. واحس بالجوع.. فالهواء نقي.. وتذكّر الكثير مما رآه في الخارج.. بل في المدينة من وسائل الزراعة الحديثة.. ومن العمران الحديث.. وتساءل.. ما الذي يمنع.. ان تصبح هذه القرية مدينة.. مدينة صغيرة.. وما دامت فيها المدرسة والمسجد ومركز الشرطة، وربما مركز البريد ايضا والطريق اليها معبّد، يمكّنه من نقل الحاصلات إلى حيث يشاء.. فليس بعيدا، ان يأتي يوم يستقر هو فيها ويموت على ارضها، إلى جانب أبيه واجداده عبر العصور.

ولم يمض شهر على وجود العم عوّاد في القرية ، حتى عرف سكانها ، ان الرجل يشتري من الأراضي البور الكثير ولا يمتنع عن شراء المزارع لمن يريد ان يبيع .. اما البيوت من اللبن والرضم فقد وافق ان يشترى اراضيها وان يعيد بناءها .. وان يتقاضى ثمن المباني بالتقسيط المريح الذي لايرهق .

ومايزال سكان القرى المجاورة .. يتحدثون عن العم عوّاد .. وعن انّه رجل الخير .. وعن القرية التي سوف تصبح مدينة صغيرة في وقت قريب .



بيت الأحلام







كان عثمان شابا فقد ابو يه منذ نعومة اظفاره، ومع أن عمّه الذي كفله منذ الثالثة من عمره، لم يبخل عليه بما في وسعه من العطف والحنو والرعاية، فان عثمان لم يستطع قط ان ينسى انّه يتيم.

وعندما شب عن الطوق قليلا، واخذ ادراكه يتّسع لواقع حياته، لم يفارقه احساس مرهف بأنه على أية حال ــعبء على عمّه (فؤاد) وهو يرى انّه رجل كثير العيال، ومصدر رزقه الوحيد ذلك الدكان في الشارع الخلفي المتفرع من الشارع الرئيسي الكبير، يبيع فيه ما يمكن ان يحتاجه سكان العمارات حوله من اللوازم الصغيرة والمأكولات المعلّبة ممّن اعتادوا أن يشتروا حاجاتهم بالقطّاعي أو على قدر حاجة اليوم.

وقد ظل عثمان يتطلّع إلى اليوم الذي يستطيع فيه ان يعول نفسه بعمله وعرق جبينه.، وقد يضيف إلى هذه الأمنية املا يبدو له بعيدا، وهو ان يجد نفسه في يوم ما قادرا على ان يساعد هذا العم الذي كفله فيوفيه بعض ما اغدقه عليه من الحنان والاحسان.. ومع انّه يرى ان اثنين من ابناء عمّه قد بلغا مرحلة الدراسة الجامعية، وآن لهما ان يتخرّجا وان يعملا فيساعد كل منهما اباه، إلاّ انّه يرى: (هناك ستة بنات، اصغرهن في الثانية، وثلاثة ابناء اصغرهم في الخامسة.. ولذلك فان عمه لن يستغني عن اى مساعدة اقدّمها له.. ولكن.. كيف؟ الله كريم على كل حال).

وتعذّر عليه بعد ان اكمل مرحلة الدراسة التوجيهية ان يلتحق او ينتسب إلى الجامعة، ليس لأن عمّه ابدى ضيقا بأن يتحمّل عبء الانفاق عليه، فالرجل ظل كالعهد به يعامله كأحد ابنائه و بناته تماما ولكن لأن عثمان وجد الفرصة سانحة

لأن يعمل في احدى الوظائف التي شغرت في احدى دوائر الدولة، فتقدّم بطلبه، وفي نفسه انها محاولة، قد تنجح وقد تخيب، فاذا نجحت فذلك سبيله إلى العمل وإلى ان يعيش من كدحه وعرق جبينه، واذا خابت فالصبر والمتابعة كفيلان بأن يحققا له هذه الأمنية التي طالما ظل يحلم بها..

واعتبرها معجزة وتوفيقا من الله يوم تلقى ما يبشّره بأنّه مقبول في الوظيفة التي تقدم لها.

ومنذ استلم عمله الكتابي الصغير في الدائرة، وفي مكتب المدير، وبدأ يرى نماذج من الناس لم يسبق له ان رأى مثلهم في حياته السابقة المحدودة الضيقة، بدأ يشعر ان السبيل امامه مفتوح ليحقق الكثير الذي كان يبدو مستحيلا من الأحلام.. ومن هذه النماذج، محاسب الدائرة ــ العم محمد علي ــ فهو رجل قد تخطّى الخمسين من العمر، ويعترف بأنّه لايحمل حتى التوجيهية، لأن الأيام التي اسعده الحظ بالتوظف فيها، لم تكن دوائر الدولة تشترط فيها هذه المؤهلات.. ومع ذلك فهو اليوم في مرتبة كبيرة، وراتبه يزيد عن الف وثمانمئة ريال، وقد استطاع ان يتملّك بيتا يسكنه مع اهله ويؤجّر جزءاً منه بما لايقل عن اربعمئة ريال في الشهر.. ومنها ايضا ذلك الرجل العجوز، الذي ظن حين رآه يراجع احدى معاملاته لأول مرة، انّه احد الفرّاشين او المراسلين او شيئا من هذا القبيل، ولكنّه ذهل حين قال له احد زملائه: (ان العم محسون مليونير، وانّه صاحب اكثر من ثلاث عمارات كبيرة في الشارع الكبير) وان الرجل قد كوّن ثروته الطائلة، من الاتجار في مبيعات الحراج، وقد تدرج في عمله من شراء وبيع الأثاث القديم والأدوات المنزلية التي تستهلك ويستغني عنها الناس، إلى بيع وشراء السيارات، ثم الأراضي والعقارات.

واستهوت عثمان، فكرة الاتجار بمبيعات الحراج، فهي لا تستلزم محلا ولا رأس مال كبير.. كل ما عليه ان يذهب إلى الحراج، وان يشترى ما يبدو له انّه يمكن ان يجد له زبونا يشتريه بربح معقول، ومع ان راتبه كان لايزيد عن خمسمئة ريال، فقد استطاع أن يعيش به في شقّة يشترك معه فيها بعض زملائه ممّن هم في مثل سنّه

ومركزه من الشباب، وان يوفّر منه، مبلغا لايقل عن الف وخمسمئة ريال في اقل من سنتين.. وما كاد يرى هذا المبلغ في حوزته حتى اسرع إلى عمّه بخمسمئة ريال، قدّمها له مع الأ يام الأ ولى من شهر رمضان، كهدية لأ بناء عمه و بناته الصغار.. ورأى كيف تهلّل وجه العم، ثم سمعه يقول: (فيك الخير ياولدي.. ما قصّرت)..ثم اضاف: (سأقيّدها لك سهما في الدكان، وعسى أن يكون فيها البركة والخير.).

وحمل الألف الباقية، واتجه إلى الحراج.. وأخذ يزيد فيما طاب له من السلع المعروضة، وعلى الأخص الثلاّجات والغسّالات.. واشترى مارسا عليه المزاد، وحمله إلى دكان أحد أصحاب المعارض في الحراج وفوّضه في البيع بسعر حدّده لكل سلعة احتسب فيه الربح وعمولة صاحب المعرض.. وابتسم له الحظ.. و بدأت العملية تعطيه الكثير، بل اكثر مما كان يقدّر للسلع التي يشتريها ثم يتركها في المعرض للبيع.. ومع كل عملية يربح منها مبلغا مناسبا، كان لاينسى ان يذهب إلى عمّه وفي يده مئة أو مئتان من الريالات، كان عمّه فؤاد يستلمها منه و يقول له: (سأقيدها لك سهما في الدكان).

وكان عثمان يأخذ هذا الكلام من عمّه على انّه نوع من الإباء والتعفّف عن ان يأخذ منه شيئا كوفاء لما سبق له من الجميل.

ومرّت الأ يام.. وانتعشت اعمال عثمان في الحراج، وفي غير الحراج وكان اجمل ما في طريقته انّه لم يكلّف نفسه عناء فتح معرض أو المغامرة برأس مال كبير وان كان ما تجمّع لديه من النقد، قد اصبح يشجّع على ان يستقيل من عمله، وان يتجّه إلى الأعمال الحرّة،.. على ان اكبر صفقة اصابته بما يشبه الذهول، لضخامة ما حققه من الربح فيها، كانت حين جاءه من يعرض عليه شراء ارض في منطقة معينة من المدينة،.. كانت ارضا كبيرة تزيد مساحتها عن خمسة آلاف متر مربّع.. وقد اشتراها بمبلغ بسيط نسبيا، وقبل ان يمر عام واحد جاءه من يعرض شراءها منه بربح يزيد عن مئتين في المئة.. فباع. ومنذ افرغ للمشترى لدى كاتب عدل واستلم المبلغ الضخم.. شرع عثمان يفكّر في ان يكون له هو بيت.. ان يمتلك بيتا خاصا به، يملك كل ذرة من ارضه و بنائه.. واخذ يستعرض في خياله ما

ينبغي ان يتوفّر في هذا البيت من الغرف والمرافق، وما ينبغي ان يوضع فيه من أثاث، كثيرا ما رآه في الصور التي تنشرها مجلاّت انجليزية، لايقرأ منها حرفا، إذ يكفيه ان يرى الصور وان يتمنى مثلها لنفسه في يوم من الأ يام.

ولم يخب أمله في تحقيق هذه الأمنية ايضا.. اذ جاءه من يعرض عليه دارا من هذه الدور التي بناها ملاّكها في فترة من الزمن ثم زهدوا فيها، ليبنوا ما هو احدث طرازا واكثر مرافق وزخرفة.. واشترى عثمان الدار، بعد ان وجد فيها الكثير مما كان يحلم به من المرافق والغرف.. ولم يعجزه ان يؤثثّها بأثاث، ليس كذلك الذي طالما رآه في الصور، ولكنّه ليس بعيدا عنه، والأ يام مرة أخرى كفيلة بأن يرى فيها الكثير مما لم يتيسر له الحصول عليه في الأسواق.

وفي اللحظات التي كان يشرف فيها علي تنسيق الأ ثاث، كان يذكر احدى بنات عمّه، و يستعرض في خياله فرحة عمّه حين يتقدّم لخطوبتها وحين يسكنها هذه الدار.. أو بيت الأحلام كما ظل يسمّيها قبل ان يتيسّر له شراؤها، حتى قبل ان يصبح قادرا على شراء ما اشتراه من مبيعات الحراج.

وذهب إلى بيت عمّه بعد الغروب، وملء صدره اعتزاز بما استطاع ان يحقق من طموحه، واملٍ في ان يرحّب به عمّه زوجا لابنته التي كثيرا ما قضى معها ايام طفولته وصباه.. ولم تخف عليه دهشة عمّه وهو يسمع منه انّه اشترى داراً وأثّثها وانّه جاء يخطب ابنته (سها).. ومع انّه قد رحّب به فعلا، واعطاه ما يسمى (كلمة).. فقد تعذّر على عثمان ان يفهم اصرار عمّه على ان يرى الدار، قبل ان يوافق نهائيا على العقد.

وفي مساء اليوم التالي، كان عثمان في سيّارته وإلى جانبه عمّه يتجهان إلى الدار.. وما كاد يقف امام بابها العريض، حتى سمع عمّه يقول: (كفى.. كفى.. لقد عرفتها..) ورفض ان يغادر السيارة واصرّ على ان يعود به إلى الدكان.. وادهشه اكثر من ذلك ان عمّه استغرق في ضحك متواصل قبل ان يقول

له: (ضحكوا عليك ياولدي..).

ولم يستطع ان يفهم عثمان شيئا، إلى ان استقر به المجلس في بيت عمّه. حيث جلس امامه يقول: (انك تذكر اني كنت اقيّد لك كل مبلغ تدفعه لي.. وقد بارك الله في تجارتي، بعد ان اتخذتك شريكا دون ان تدري انت عن شيء.. وقد عرضوا عليّ هذه الدار.. عرضوها منذ اكثر من سنتين وكنت سأشتريها فعلا، بعد ان ابيع هذا البيت.. ولكن هل تدري ما الذي صرفني عنها؟) والتزم الصمت قليلا ثم قال: (اخبرني بعض الذين اعرفهم من السكان بجوارها، ان الذي بناها، مات بعد عشرة أيام من سكناه فيها.. وانتقل منها ابناؤه، فاستأجرها عمّك محجوب.. صديقي الذي لااظنّك قد نسيته.. ولكن ما كاد يقضي فيها شهرا، حتى دهست السيارة اكبر ابنائه.. ثم توالت الأحداث فيها كلّما وقع في استئجارها احد ممّن لايعلمون شيئا عن حقيقتها.. واخيرا ظلّت مهجورة.. مهجورة لايسكنها احد ولا يقبل على شرائها مخلوق.. انها مشؤومة ياولدي.. ولا ادرى كيف يمكن ان تتخلص منها.. كان الله في عونك.. اما سها فهي زوجتك، وحصتك من المال عندي فوق الكفاية للسكن في أي شقة أوبيت أودار كما تحب).

وما كاد يفتح عينيه في صباح اليوم التالي، حتى شرع يفكّر في ان يطالب بفسخ البيع، لأن البائع لم يخبره بما عرف من شؤمها.. وانقضت سنتان منذ تقدّم برفع الدعوى، عن طريق وكيل شرعي، ما يزال يؤكد له ان القضية ستنجح في يوم قريب.





فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: **الكتاب العربي السعودي**

صدر منها:

- **الجبل الذي صار سهلا** (نفد) — الأستاذ أحمد قنديل
- **من ذكريات مسافر** — الأستاذ محمد عمر توفيق
- **عهد الصبا في البادية** (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- **التنمية قضية** (نفد) — الدكتور محمود محمد سفر
- **قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا** (نفد) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- **الظمأ** (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- **الدوامة** (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- **غداً أنسى** (قصة طويلة) (نفد) — الدكتورة أمل محمد شطا
- **موضوعات اقتصادية معاصرة** — الدكتور علي بن طلال الجهني
- **أزمة الطاقة إلى أين؟** — الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
- **نحو تربية إسلامية** — الأستاذ أحمد محمد جمال
- **إلى ابنتي شيرين** — الأستاذ حمزة شحاتة
- **رفات عقل** — الأستاذ حمزة شحاتة
- **شرح قصيدة البردة** — الدكتور محمود حسن زيني
- **عواطف إنسانية** (ديوان شعر) (نفد) — الدكتورة مريم البغدادي
- **تاريخ عمارة المسجد الحرام** (نفد) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- **وقفة** — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- **خالتي كدرجان** (مجموعة قصصية) (نفد) — الأستاذ أحمد السباعي
- **أفكار بلا زمن** — الأستاذ عبدالله الحصين
- **كتاب في علم إدارة الأفراد** (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- **الإبحار في ليل الشجن** (ديوان شعر) — الأستاذ محمد الفهد العيسى
- **طه حسين والشيخان** — الأستاذ محمد عمر توفيق
- **التنمية وجها لوجه** — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- **الحضارة تحد** (نفد) — الدكتور محمود محمد سفر
- **عبير الذكريات** (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- **لحظة ضعف** (قصة طويلة) — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
- **الرجولة عماد الخلق الفاضل** — الأستاذ حمزة شحاتة
- **ثمرات قلم** — الأستاذ محمد حسين زيدان
- **بائع التبغ** (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ حمزة بوقري
- **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة** (تراجم) — الأستاذ محمد علي مغربي
- **النجم الفريد** (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- **مكانك تحمدي** — الأستاذ أحمد محمد جمال
- **قال وقلت** — الأستاذ أحمد السباعي
- **نبض** — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- **نبت الأرض** — الدكتورة فاتنة أمين شاكر

• السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك (الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي	الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• إليها .. (ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

الكتاب		المؤلف
● أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
● التعليم في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
● أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
● البعث	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
● شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
● الإسلام في نظر أعلام الغرب	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
● حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
● مدارسنا والتربية	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
● وحي الصحراء	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
● طيور الأبابيل	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
● قصص من تاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
● زوجتي وأنا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
● لن تلحد		الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
● عمر بن أبي ربيعة	(الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
● رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
● حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
● من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
● الإسلام في معترك الفكر		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
● إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
● في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● العالم إلى أين والعرب إلى أين؟		الدكتور بهاء بن حسين عزي
● البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
● محمد سعيد عبدالمقصود خوجة	(حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعيد بن حسين
● جزء من حلم		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء

تحت الطبع:

الكتاب	المؤلف
● وجيز النقد عند العرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
● هكذا علمني ورد زورث	الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
● الطاقة نظرة شاملة	الدكتور عبدالهادي طاهر
● لا رق في القرآن	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
● من مقالات عبدالله عبدالجبار	الأستاذ عبدالله عبدالجبار
● ديوان حسين عرب	الأستاذ حسين عرب
● العقاد	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
● خواطر مجنحة	الأستاذ محمد حسين زيدان
● ذات ليلة	الأستاذ حسين عبدالله سراج

• انتاجية مجتمع		الدكتور محمود محمد سفر
• من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى (قصة طويلة)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• الحضارة تحد	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• الجبل الذي صار سهلا	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد قنديل
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة:

الكتاب العربي اليمني

تحت الطبع:

• تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي		الأستاذ أحمد الشامي
• بغية المريد وأنس الفريد		الأستاذ عامر بن محمد بن عبدالله
	(تحقيق)	الأستاذ محمد محمد الشعيبي
	(مراجعة وتعليق)	الأستاذ احمد محمد الشامي

سلسلة : **الكتاب الجامعي**

صدر منها :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية		الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	(الطبعة الثالثة)	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مباديء القانون لرجال الأعمال	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)		الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية		الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن	(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم		الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
• التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن		الدكتور خضير سعود الخضير
• مبادىء الطرق الإحصائية		الدكتور جلال الصياد الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
• مبادىء الإحصاء		الدكتور جلال الصياد الأستاذ عادل سمرة
• المنظمات الاقتصادية الدولية		الدكتور حسين عمر
• التعلم الصفي		الدكتور محمد زياد حمدان

تحت الطبع:

- الاقتصاد الاداري — الدكتور فرج عزت
- الاقتصاد الصناعي — الدكتور سليم كامل درويش
- دراسات في الإعراب — الدكتور عبدالهادي الفضلي
- أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- العلاقات الدولية — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- التوجيه والارشاد — الأستاذ فاروق عبدالسلام

سلسلة: رسائل جامعية

صدر منها:

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية) — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

تحت الطبع:

- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة — الأستاذة عواطف فيصل بياري
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية) — الأستاذ مأمون يوسف بنجر
- التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة — الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صدر منها:

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
  (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان / الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض؟ — الدكتور اسماعيل الملباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات

العنوان	المؤلف
● الطب النفسي معناه وأبعاده	الدكتور محمد محمد خليل
● الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
● مجموعة الخضراء (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
● ديوان السلطانين	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
● الامكانات النووية للعرب وإسرائيل	الدكتور صدقة يحيى مستعجل
● رحلة الربيع	الأستاذ فؤاد شاكر
● وللخوف عيون (مجموعة قصصية)	أحمد شريف الرفاعي
● البحث عن بداية (مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
● الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	الدكتور حسن محمد باجودة
● المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذة منى غزال
● من فكرة لفكرة (الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
● رحلات وذكريات	الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
● ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب
● تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
● مشكلات بنات	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
● دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية	الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
● نفحات من طيبة (ديوان شعر)	الأستاذ علي حافظ
● الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
● الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
● الدليل لكتابة البحوث الجامعية	الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
● القطار والحبل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
● المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية	الدكتور علي علي مصطفى صبح
● مسائل شخصية	الأستاذ مصطفى أمين
● مجموعة النيل (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● الزكاة في الميزان	الدكتور محمد السعيد وهبة الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
● من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
● سرايا الإسلام	الشيخ أبو تراب الظاهري
● اتجاهات نفسية وتربوية	الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
● الحجاز واليمن في العصر الأيوبي	الدكتور جميل حرب محمود حسين
● ملامح وأفكار	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
● النظرية الخلقية عند ابن تيمية	الدكتور محمد عبدالله عفيفي
● الكشاف الجامع لمجلة المنهل	الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
● ديوان حمام (ديوان شعر)	الأستاذ محمد مصطفى حمام

• رحلة الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• قريش والاسلام	الدكتور حسين مؤنس
• الدفاع عن الثقافة	الدكتور عبدالعزيز شرف
• في بيتك طبيب	الدكتور محمد عبدالله القصيمي
• مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر)	الأستاذ فاروق جويدة
• البسمات	الدكتور حسن نصيف
• نسيب الشريف الرضي : الحجازيات وقصائد أخر	الدكتور عاتكة الخزرجي
• مشكلات لغوية	الدكتور شوقي النجار
• دليل مكة السياحي	اعداد تهامة للنشر والمكتبات
• السبئيون وسد مأرب	الأستاذ محمود جلال
• الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي
• التلفزيون التجاري في الولايات المتحدة	الأستاذ غازي زين عوض الله



صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصــوم
- الصــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضــوء
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني

إعداد — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- عقبة بن نافع — الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي، الدكتور سعد اسماعيل شلبي

Books Published in English by TIHAMA

- **Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.**
  By: F.M. Zahran/A.M.R. Jamjoom/M.D. EED
- **Zaki Mubarak: A Critical Study.**
  By: Dr. Mahmud Al Shihabi
- **Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.**
- **Education in Saudi Arabia, A Model With Difference.** ***(Second Edition)***
  By: Dr. Abdulla Mohamed A. Zaid
- **The Health of the Family in A Changing Arabia. (*Third Edition*)**
  By: Dr. Zohair A. Sebai
- **Diseases of Ear, Nose and Throat.**
  By: Dr. Amin A. Siraj/Dr. Siraj A. Zakzouk
- **Shipping and Development in Saudi Arabia**
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- **Tihama Economic Directory.** ***(Second Edition)***
- **Riyadh Citiguide.**
- **Banking and Investment in Saudi Arabia.**
- **A Guide to Hotels in Saudi Arabia.**
- **Who's Who in Saudi Arabia.** ***(Third Edition)***
- **An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib.
- **The Role of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of the Al-Hasa Of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **An Analysis Of The Effect Of Capitalizing Exploration And Development Costs In The Petroleum Industry — With Emphasis On Possible Economic Consequences In Saudi Arabia.**
  By: Mohiadin R. Tarabzune
- **An Evolving Typology Of Constructs Of Critical Thinking, Curriculum Planning And Decision Making In Teacher Education Programs Based On The Islamic Ideology.**
  The Case Of Saudi Arabia.
  By: Ahmad Issam Al-Safadi
- **The Effect Of A Listening Comprehension Component on Saudi Secondary Students' EFL Skills.**
  By: Mamoun Yousef Banjar